

التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد : ٣٢ - صفر ١٤٠٩ هـ - تشرين الأول « أكتوبر » ١٩٨٨ م - السنة التاسعة

المدير المسؤول:

علي عقلة عرسان

رئيس التحرير:

د. عبد الكريم اليافي

أمين التحرير:

عبداللطيف أرناؤوط

هيئة التحرير:

د. ابراهيم الكيلاني

د. نشأت الحمارنة

د. عدنان درويش



ترسل المواد والراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ - ٢٤٤٢٩٩ - ٢٤٤٣٢٩

مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرْبِ

أ. علاء الدين شوقي



www.lisanarab.com

المحتويات

ص

- سمات العلم والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية د. عبد الكريم الياقبي ٧
- التهامة و المصادر الأفمال صلاح الدين الزعلاوي ٢٤
- الساحل السوري بين البر والبحر أو من الأدطورة إلى التاريخ د. محمد حرب فرزات ٦٠
- أضواء على أوغاريت والكتمانين من خلال مكتشفات رأس ابن هاني د. عدنان البنسي ٧٩
- لمحات من أدب أواخر العهد العثماني في مدينة حمص عبد الله نبهان ٨٨
- نجوم .. لا شهب .. عبد العزيز البشري مسحور فاخوري ١٠٣
- أصداء حطئين والمقدس في الشعر العربي د. عمر الدقاد ١٢٢
- من النجوم الغوارب .. القاضي محمد أديب الاهلي د. موفق نعسانى ١٤٠
- من غاب عنه المطرب للشعالبي - استدرادات و ملاحظات عادل الفريجات ١٤٦

سمات العلم والتعاليم في الحضارة العربية الإسلامية

د. عبد الكريم اليافى

يتالف هذا البحث من ثلاثة مقاطع : نشوء التعليم وتكامله في حضارة الاسلام ومكانة الجامعات في العصر العاشر وخصائص العلم والتعليم في تلك العضارة .



قل أن وجدت حضارة من العضارات في الزمن القديم أو العديث رفت من قيمة العلم وحثت على طلبه وبشه كالحضارة العربية الإسلامية . ذلك أنه لما يزغ نور الاسلام دفع الناس جميا على اختلاف الأحوال والأعمار الى طلب العلم والنهوض لتلقينه والى بته وتعليمه . أول الوحي الى الرسول الكريم طلب قراءة سطور النور المنزل . فلقد كان الوحي في رأينا تلقينا سمعياً وقراءة عينية : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، « ولقد رأى بالافق المبين ، وما هو على الغيب بضئن » ، كما كانت فاتحة الوحي منته جل وعلا على الانسان بتعليمه ما لم يعلم .

ومنذ تبشير الدعوة اتخذ الرسول دار الأرقم بن عبد مناف بن سعد المخزومي مركزا له ولأصحابه حين كانت الدعوة سرية . فكان المسلمين يتلقون حول الرسول فيها يتلون كتاب الله ويتعلمون مبادئ الاسلام . يحفظون ما يتنزل من سور النور الكريم وأياته . ثم أصبح منزل الرسول في مكة بمنزلة المهد الذي يتلقى فيه المؤمنون القرآن ويستمعون الى العديث الشريف . ثم غدا المسجد في

المدينة غب الهجرة المكان المعهود للعلم والفتوى والقضاء الى جانب اداء
المبادرات فيه وعرض الأمور العامة على المسلمين . بل غدا كل مجلس يجلسه
الرسول ويلتقى فيه أتباع الرسالة مناسبة للتعليم .

ولعل أهل الصفة القراء كانوا من أوائل مدارس الاسلام . حدث عريفهم
أبو هريرة كما جاء في « حلية الأولياء » : « قال قال رسول الله ﷺ في حديث تحدثه
يوماً : لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى إليه مقالتي هذه ثم يجمع إليه ثوبه الا
وعن ما أقول فبسطت نَمِرَةً (بردة من صوف) علي حتى إذا قضى النبي ﷺ
مقالته جمعتها إلى صدرى . فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء » .
وعندنا ان بسط الثوب وجمعه اذا ذاك من نوع التنبية وتركيز الفكر . كذلك
تحدث أبو هريرة كما جاء في الحلية أيضاً الى من هاله كثرة حديثه عن الرسول :
« انكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي ﷺ وتقولون ما للمهاجرين
والأنصار لا يدثنون عن النبي ﷺ مثل حديث أبي هريرة ، وإن أخوانى من
المهاجرين كان يشتمل الصفق (ضرب اليدي على اليد في قام النبي والشراء) بالأسواق
وكان يشغل أخوانى من الأنصار عمل أبوالهم و كنت امرءاً مسكوناً من مساكين
الصفة ألم النبى ﷺ على ملء بطني فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون » .
كذلك كانت أمهات المؤمنين وفي طليعتهم السيدة عائشة والصحابيات
مدارس النساء الأولى .

وقد وقع في غزوة يدر لفيف من المشركين في الأسر فكان فداء الأسير الذي
يكتب أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة .

ذلك أن للعلم في ذاته قيمة كبيرة وهي المعرفة . وهو فوق ذلك نوع من
أنواع القوّة ووسيلة من وسائل النضال والكافح كفاح الشرك ونضال الظلم ،
وهو أيضاً سبيل من سبل العلا والتقدم .

انه ميراث النبوة . العلماء ورثة الأنبياء . سواء أكان ذلك في العلا
والتقدم ، أم في النضال والكافح ، أم في القوة والمعرفة .

وقد جرى الغلفاء الراشدون والصحابة على هذا السنن ، سنن رسول الله . ثم
غدت الندوات الفكرية تتعقد في المساجد وفي بيوت الأفراد يؤمها الذين يرغبون في

مدارسة العلم . وهناك أخبار كثيرة على ذلك . نذكر منها ما روى عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى في منتصف القرن الأول الهجري اذ كان له « بيت فيه مصاحف يجتمع اليه القراء قلما تفرقوا عنه الاعن طعام » . وربما كان هذا البيت أول المكتبات في المعهد الاسلامي الأول . وقد شغل الغلفاء الامويون في ابان عهودهم بالفتוחات أكثر منهم شغلا بالعلم . اللهم « الالحلية عمر بن عبد العزيز . وظهر الاهتمام الشديد لدى الأمير الاموي خالد بن يزيد الذي يروى عنه انه اهتم بالصنعة وبالكتب التي تبعث فيها فاختط نهجاً وقوياً في جميع الكتب والمعارف . والنف هو نفسه كتباً هو أول مصنف عربي في هذا العلم . وهكذا ظل الم المتعلمون والملماء يحرصون على تلقي العلم وعلى نشره ويجمعون الكتب ويتداولونها ويملئون شأنها في عهود الصحابة والتابعين وتابعـيـ التـابـعـين . ولكن ما ان لاح المصـرـ العـبـاسـيـ حتى تـبـواـ الـلـمـاءـ أـلـىـ مـنـزـلـةـ . هـذـاـ بـوـ جـفـرـ المـصـورـ يـشـيـءـ خـزانـةـ كـتـبـ فيـ قـصـرـهـ وـيـجـمـعـ الـعـلـمـاءـ وـيـمـهـدـ لـيـهـمـ فيـ تـالـيـفـ الـكـتـبـ وـتـرـجـمـتـهـ . وـهـاـ هـوـذـاـ الرـشـيدـ مـنـ بـعـدهـ يـشـيـءـ بـيـتـ الـحـكـمـةـ وـهـوـ مـرـكـزـ أـصـبـعـ مـعـجـ الـلـمـاءـ وـالـأـدـبـاءـ . ثـمـ يـجـيـءـ عـصـرـ الـمـأـمـونـ وـهـوـ ذـرـوـةـ فـيـ التـارـيـخـ الـمـرـبـيـ اـهـتـمـاـ بـالـعـلـمـ وـالـمـكـتـبـاتـ . نـظـمـ بـيـوتـاـ للـحـكـمـةـ اـجـتـمـعـ فـيـهـ الـكـثـيرـ مـنـ كـتـبـ الـأـقـدـمـيـنـ ثـمـ طـلـقـهـ لـلـقـرـاءـ يـقـرـؤـونـ فـيـهـ وـيـتـلـمـعـونـ وـوـضـعـ لـهـمـ مـنـ يـقـومـ بـأـمـرـهـمـ فـنـصـبـ خـزانـةـ يـدـعـىـ الـوـاحـدـ مـنـهـ صـاحـبـ بـيـتـ الـحـكـمـةـ . وـلـمـ يـقـتـصـرـ عـلـىـ ذـلـكـ بـلـ كـانـ يـدـعـوـ إـلـىـ نـدـوـاتـ وـمـجـالـسـ لـلـأـدـبـاءـ وـالـعـلـمـاءـ تـدارـ فـيـهـ الـمـنـاقـشـ وـيـشـتـرـكـ هوـ فـيـهـ . وـقـدـ شـفـعـ الـعـلـمـ قـبـلـهـ وـشـفـلـ عـقـلـهـ حـتـىـ اـنـ رـأـىـ فـيـ مـنـاهـ كـمـاـ يـرـوـيـ اـبـنـ النـدـيمـ فـيـ فـهـرـسـهـ أـرـسـطـاطـالـيـسـ . وـهـكـذـاـ رـغـبـ فـيـ اـسـتـحـضـارـ الـكـتـبـ الـيـونـانـيـ وـتـرـجـمـتـهـ تـلـبـيـةـ لـعـاجـاتـ الدـوـلـةـ الـعـلـمـيـةـ .

يروى أن الخليفة المستضد كان مع ثابت بن قرة العراني في بستان له ويده على يد ثابت . فانتزع يده بفترة من يد ثابت ففر من ذلك فقال له المستضد : يا ثابت أخطأت حين وضعت يدي على يدك وسهوت فان العلم يعلو ولا يعلى .

قصة المعاذ العلمية والمكتبات ومكانة العلم في الحضارة العربية مستفيضة وواسعة . ولا بد لنا من أن نذكر أطرا فامنها في القسم الأول من هذا الحديث .

ما استولى السلاجقة على بغداد وعى أغلب العالم الاسلامي ظهر منهم نظام الملك أباز وزراء ذلك المعهد . كان هو نفسه عالماً عرف مكانة العلم فأنشأ

المدارس الكثيرة التي نسبت اليه في بغدادو بلخ ونيسا بور وهراء وأصفهان والبصرة ومردو وأمل والموصل كما يذكر السبكي في طبقاته . بل يقال ان له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة (طبقات الشافية ج ٣ ص ١٣٧) وأمد هذه المدارس جميعها بالأساتذة والأموال والكتب .

وكانت نظامية بغداد أولى تلك المدارس وأهمها . ومن المعروف المتداول أن نظام الملك لمح في مجالس معاكسره الذي أقامه قرب نيسابور عبقرية الفرزالي وعلمه حين قدم عليه فولاه التدريس في نظامية بغداد مع غيره من العلماء الأعلام . وذكر السبكي نقلاً عن الفرزالي « علت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تقلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة » وهذا تنويه بمكانة العلم واحترام العلماء وبصورة من صور المجد الذي تبوأه اذ ذاك .

ثم أنشأ المستنصر بالله الخليفة الباسبي المدرسة المستنصرية في بغداد سنة ٦٢٥ فكانت عظيمة الشأن مستفيدة النفع .

وعند قيام امارات الأتابيك والشاهات على انتهاج السلاجقة بقى الشفت الكبير بالعلم لدى الأمراء والملوك الذين خلقوهم . ومن أبرزهم نور الدين محمود زنكي الذي غدا ملكاً لسورية فقد رعى العلم والثقافة رعاية مثلى على الرغم من نيران العرب الصليبية وزيادة على تدبیره المحكم للقضاء على أولئك الغزاة . ومن المناسب أن نشير استطراداً إلى أمره بصنع منبر فائق الصنعة هدية منه إلى المسجد الأقصى عند تحريره من الفرنجة . وقد أقامه في المسجد خليفتنه صلاح الدين فبقي تحفة فنية رائعة إلى عهد قريب حين شب الصهاينة العريق في الجامع فاحتراق المنبر . كان نور الدين مجالس عظيمة لأهل العلم عنده وكان يجمعهم للبحث والنظر ويستقدمهم من البلاد الشاسعة وقد توطدت علاقته بالأمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون الموصلي الأصل حين التحق به في مدينة حلب فنان حظوة عنده وأقام السلطان له جموعة من المدارس في حلب ودمشق وحماة وحمص وبعلبك ومنbij وفوض إليه الاتساع عليهما التدريس فيها وتسمية من يراه أهلاً لتولي التدريس فيها وعرفت بالمدارس المصرؤنية . وبعد وفاة نور الدين عام ٥٦٩ اطمأن إليه صلاح الدين فولاه قضاة القضاة وصحبه في وقعة حطين .

وكان الحال اذ ذاك أن كل عالم أو متخصص متميز في علم من العلوم يبني

مدرسة ويقف عليها وقفاً ويجمل فيها داركتب ويشرف هو نفسه على التدريس فيها وينتدب معه من يراه أهلاً لذلك . وإنما رجعنا إلى كتاب « الدارس في تاريخ المدارس » المؤلف عبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ وجندنا في جزءيه الكبيرين عدداً كبيراً من المدارس لكن علم من العلوم المعروفة لذلك المهد . وبطبيباً لنا أن نذكر هنا أن دمشق في زمن الملك العادل الأيوبي وعهد نور الدين زنكي كثُرت المدارس فيها كثرة كبيرة واشتدا الاقبال عليها وتخرج فيها مشاهير الرجال الأعلام في كل مضمار . وليس شيء أدل على ذلك من قيام ثلات مدارس طبية في وقت واحد تقريراً بدمشق إلى جانب المشافي التي كان أشهرها المارستان التوروي نسبة إلى نور الدين زنكي . وقد ذكر النعيمي في كتابه تلك المدارس الطبية الثلاث وهي المدرسة الدخوارية بالصاغة العتيقة قبل الجامع الأموي أنشأها شيخ الأطباء آذاك مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار سنة احدى وعشرين وستمائة . وهو من بيت عريق في الطب . أبوه كحال وكذلك أخوه حامد بن علي وكان هو في ياده أمره كحالاً . وعلى مقربة من المدرسة الدخوارية كانت تقوم غربى المارستان التوروي المدرسة الدينيسرية أنشأها عماد الدين الدينيسري من أشهر أطباء عصره وقد درس في الدخوارية بعد محمد ابن قاضى بعلبك الذي تلا مؤسساها الدخوار . وكان كثرة الطلاب والمريدين جعلته يفتتح مدرسته الطبية هذه قريبة من تلك . وفي خارج دمشق مدرسة طبية ثالثة تدعى المدرسة اللبودية التجممية أسسها نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي سنة أربع وستين وستمائة . وكانت تلك الماهد تسمى مدارس وهي تقابل الجامعات في العصر الحديث . وإنما استطردنا هذا الاستطراد لتنشير إلى ازدحام الطلاب الذين كانت تعج بهم البلاد في كل عهد على الرغم من الانحرافات السياسية التي كان أبرزها العروب الصليبية وغارات المغول واستطردنا كذلك لنتوء بالطبيب العربي العبرى علاء الدين بن أبي العزم ابن النفيس الذي ولد بدمشق سنة ٦٠٧ هـ = ١٢١١ م ؟ وتوفي بالقاهرة عام ١٢٨٨ / ٦٨٧ . لقد درس في المدرسة الدخوارية تلك وتخرج فيها ثم علت شهرته فقربه الملك الأيوبيون والمالiks الشراكسة ولا سيما الملك الظاهر بيبرس وغدا في مصر رئيساً للمارستان الناصري وللمارستان المنصورى الذي أسس قبل وفاته ب نحو خمس سنوات والذي وهب له ابن النفيس داره الجميلة التي ابتناها بالقرب منه وخزائن كتبه وما ملكت يدها .

ويهمنا هنا أن نذكر بأن ابن النفيسي كان علامة في الفقه وفي أصول الفقه وفي الحديث وفي اللغة العربية وبلاعتها . وقد أطراه أثير الدين أبو حيان النعوي الأندلسي الذي قدم القاهرة . وهذا التوسيع في مختلف العلوم من صفات المضاراة العربية والعلم العربي كما سرر قريباً . ولكن شهرة ابن النفيسي الطبية هي التي غلت عليه . وهو أول من كشف الدورة الدموية التي تدعى بالصفرى . فالي جانب كتبه الطبية المديدة لخص كتاب القانون لابن سينا ما عدا قسم التشريح منه ودعاه « موجز القانون » . ثم عمد إلى قسم التشريح فشرحه في كتاب دعاه « شرح تشريح القانون » . وفي هذا الكتاب يرفض ما جاء في كلام جالينوس وابن سينا من أن الدم يمر من البطين الأيمن في القلب إلى البطين الأيسر ورفضه مبني على أن جدار القلب بينهما سميك مستحصف لا كما أدعى ابن سينا وجالينوس . ورأى أن الدم يذهب بالشريان الرئوي إلى الرئة ليصفو وينقى ثم يعود بالوريد الرئوي وأصلاً في النهاية إلى البطين الأيسر وحملماً معه روح الحياة . ونزير بهذه المناسبة أن نتطرق إلى مصير هذا الكشف العلمي الرائع فقد جاء الطبيب الإيطالي اندريرا البااغو (مات عام ١٥٢٠) بعد نحو قرنين من ابن النفيسي وعكف يجمع المخطوطات العلمية العربية ويترجمها إلى اللاتينية ويقال أنه قضى في سوريا قرابة ثلاثين سنة لهذا الغرض وترجم فيما ترجم كتاب ابن النفيسي . وأتى في ذلك الوقت طبيب ولاهوتي إسباني هو ميخائيل سرفيفيتوس (١٥١١ - ١٥٥٣) درس الطب في جامعات باريس ومونبليي ولوغان كما درس اللاتينية والمعربة والعبرية وكانت هذه الجامعات متأثرة تأثراً عميقاً بالطب العربي . ولما تخرج مارس الطب في بعض المدن الفرنسية ونشر كتاباً بعنوان « اصلاح المسيحية » عام ١٥٥٢ في فيينا عارض فيه عقيدة الثالوث المسيحيه والخطيئة الأولى وتعميد الأطفال فأثار الكنيسة واستدعته محكمة التفتيش في النمسا فأفلت منها ولجا إلى جنيف ولكن قبض عليه فيها وأمر به المصلح الديني كلفن فأعدم حرقاً . وهو في كتابه ذاك يشرح الدورة الدموية الصفرى وينتقل كشفها . وقد ذكر المستشرق مايرهوف في الموسوعة الإسلامية أن العمل التي كتبها سرفيفيتوس عن الدورة الدموية تکاد تكون نقلأ حرفيأ لما جاء في كتاب ابن النفيسي . وعاش في الوقت نفسه أيضاً الطبيب الإيطالي ماتيو رويندو كولبو فالف كتاباً في التشريح عرض فيه الدورة الدموية الصفرى عرضاً مقارناً ماجداً لكتاب سرفيفيتوس كما يؤكّد ذلك

مايرهوف . وأتى بعدهما بنحو خمسين سنة وليم هارفي الطبيب الانكليزي الذي تшиيد كتب تاريخ الطب بكشفه للدورة الدموية . ولكن هذا الطبيب قد درس في مدينة بادوقة الإيطالية عام ١٥٩٨ وتخرج فيها عام ١٦٠٢ واطلع على بحوث كولبو وسرفيتوس كما تفيد الموسوعة الفرنسية «أونيشرساليس» ، واستطاع بعد ذلك أن يصف الدورة الدموية وصفاً كاملاً في كتابه «دراسة تشريحية لحركة القلب والدم في الحيوان» عام ١٦٢٨ أي بعد نحو أربعة قرون من ابن النفيس وشاعت شهرته بذلك ولم ينتبه هارفي فيما ترجم عن ابن النفيس عند وصفه للدورة الدموية إلى ما ورد في كلامه من «منافذ محسوسة» بين الشرايين والأوردة أي مما دعي بالأوعية الشعيرية التي تأخر كشفها إلى جيء الطبيب الإيطالي مليبيغي عام ١٦٦١ أي بعد ما يزيد على ثلاثين سنة من كتاب هارفي وذلك حين تقدم العلم في الغرب وصنعت المجاهر .

هذا ولما كانت الأشياء تتميز بأضدادها كما قال أبو الطيب : «وبضدها تتميز الأشياء» رأينا أن نورد هذه النادرية الفريدة يقصها علينا أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» وهو البطل الأديب الذي عاصر بعض العروبة الصليبية ووصف ظواهر تأخرهم في شؤون كثيرة وفي المداواة والطب . كتب : «من عجيب طبهم أن صاحب المنطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداويي مرضى من أصحابه . فأرسل إليه طبيباً نصراانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد . فقلت له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : احضروا عندي فارساً قد طلمت في رجنه دُمّلة» وامر آة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيغة ففتحت الدملة وصلحت . وحميّت المرأة ورطبت مراجها . فباءهم طبيب أفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً يداويم . وقال للفارس : «إيّما أحباب إليك تعيش برجل واحدة أو تسوّت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة . قال : أحضروا لي فارساً قوياً وفاسقاً قاطعاً فحضر الفارس والفالس وأنا حاضر فحط ساقه على قرْمة خشب وقال للفارس : اضرب رجليه بالفالس ضربة واحدة اقطعهما . فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فصال من الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها فحلقوه ، وعادت تأكل ماكلهم : الثوم والخردل . فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل في رأسها . فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه

حتى ظهر عظم الرأس وحكته بالملح فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم الي حاجـة ؟ قالوا : لا . فجئت وقد تعلمت من طبـهم مـا لم أكن أعرفه (ص ١٣٢ - ١٣٣) .

وكان نفوذ الدولة الأيوبية قد امتدـاليـاليـمنـعامـ٥٦٩ـهـ = ١١٧٣ـمـ حين أرسل صلاح الدين أخيـاهـ اليـهـ فـاهـتمـ مـلـوكـهـ بـنـشرـ الثـقـافـةـ والمـلـمـ فـيـهـ وـبـنـيـالـلـكـ مـعـزـ الدـينـ اـسـمـاعـيلـ بـنـ طـفـتـكـينـ بـنـ آـيـوبـ مـدـرـسـتـيـنـ اـحـدـاـهـمـاـ فـيـ تـبـعـ سـماـهاـ المـدـرـسـةـ السـيـفـيـةـ نـسـبـةـ إـلـيـهـ سـيفـ الـاسـلـامـ طـفـتـكـينـ وـالـثـانـيـةـ فـيـ زـيـدـ نـسـبـهاـ إـلـيـهـ نـفـسـهـ فـسـمـاـهـاـ الـمـعـزـيـةـ أـوـ مـدـرـسـةـ الـمـعـزـ .

وانقطع حـكـمـ الـأـيـوبـيـيـنـ فـيـ الـيـمـنـ عامـ٦٢٦ـهـ = ١٢٢٩ـمـ خـلـفـهـمـ بـنـوـ رـسـولـ وـكـانـ عـهـدـ هـؤـلـاءـ أـخـصـبـ عـهـودـ الـيـمـنـ ثـقـافـةـ وـأـكـثـرـهـاـ اـهـتـمـاماـ بـاـشـاءـ الـمـارـسـ وـعـمـارـةـ الـمـكـتبـاتـ وـأـشـدـهـاـ عـنـايـةـ بـالـلـمـاءـ وـتـكـرـيـمـاـ لـهـمـ . وـغـداـ الـيـمـنـ فـيـ عـهـدـهـمـ موـئـلـ الـلـمـاءـ يـجـدـونـ فـيـهـ مـنـ التـقـدـيرـ وـالتـكـرـيـمـ أـكـثـرـ مـاـ يـأـمـلـونـ . وـمـنـ اـشـهـرـ مـنـ قـدـمـ الـيـمـنـ فـيـ ذـلـكـ الـمـهـدـ الـأـمـامـ الـلـغـوـيـ مـجـدـ الـدـينـ الـفـيـروـزـ اـبـادـيـ فـاحـتـفـيـ بـهـ الـمـلـكـ الـأـشـرـفـ الـثـانـيـ مـهـمـهـ الـدـينـ اـسـمـاعـيلـ بـنـ الـبـيـاسـ فـتـصـدـرـ الـأـمـامـ لـلـتـدـرـيـسـ فـيـ مـدـيـنـةـ زـيـدـ . وـلـمـ يـمـتـنـعـ الـمـلـكـ نـفـسـهـ مـنـ أـنـ يـأـخـذـعـنـهـ . وـقـدـ وـلـاهـ قـضـاءـ الـأـقـضـيـةـ فـكـانـ يـقـضـيـ وـيـدـرـسـ وـيـؤـلـفـ . وـقـدـ اـلـفـ كـتـابـهـ الـقـامـوسـ الـمـعـيـطـ وـأـهـدـاهـ إـلـيـ الـمـلـكـ .

وـخـلـفـتـ الـدـوـلـةـ الرـسـوـلـيـةـ الـدـوـلـةـ الطـاهـرـيـةـ عـامـ٨٥٥ـهـ = ١٤٥١ـمـ فـسـارـ مـلـوكـهـ عـلـىـ ذـلـكـ النـهـجـ وـتـابـعـوـ بـنـاءـ الـمـارـسـ وـنـشـرـ الـلـمـ .

وهـكـذاـ كـانـ سـيـرـ الـعـكـامـ فـيـ مـخـلـقـ بـقـاعـ الـعـالـمـ الـمـرـبـيـ الـاسـلـاميـ مـثـلاـ فـيـ حـيـهمـ للـلـمـ وـتـكـرـيـمـهـمـ لـلـلـمـاءـ وـحـفـزـهـمـ عـلـىـ جـمـعـ الـكـتـبـ وـتـالـيـفـهـ ، وـلـاـ سـيـماـ فـيـ مـصـرـ وـالـمـفـرـقـ وـالـأـنـدـلـسـ . وـلـوـ كـانـ اـهـتـمـاـمـ الـمـؤـرـخـينـ الـمـرـبـ قـدـمـاءـ وـمـحـدـثـيـنـ مـُنـصـبـاـ عـلـىـ تـارـيـخـ الـلـمـ وـبـنـاءـ الـمـارـسـ وـتـأـلـيـفـ الـكـتـبـ وـجـعـهـاـ بـأـنـوـاعـهـاـ أـكـثـرـ مـاـ اـهـتـمـهـ بـالـمـلـوـكـ وـالـرـؤـسـاءـ وـالـعـرـوـبـ لـظـهـرـ فـضـلـ الـحـضـارـةـ الـعـرـبـيـةـ الـاسـلـاميـةـ أـوـضـحـ مـاـ ظـهـرـ وـلـطـفـيـ نـورـهـاـ عـلـىـ أـنـوـارـ الـعـصـارـاتـ الـأـخـرـىـ وـلـاستـبـانـ غـنـاؤـهـاـ فـيـ تـقـدـمـ الـلـمـ وـالـمـرـفـانـ فـيـ كـلـ مـضـيـارـ وـلـتـبـيـدـتـ شـدـةـ تـكـرـيـمـهـاـ لـلـمـشـتـقـلـيـنـ بـهـمـاـ وـرـفـعـهـاـ لـهـمـ فـوـقـ كـلـ مـكـانـ وـمـكـانـ ، عـلـىـ الرـغـمـ مـاـ أـصـابـهـاـنـ فـتـنـ وـتـحـيـفـهـاـ مـنـ مـحـنـ وـتـعـرـضـتـ لـهـ مـنـ كـوارـثـ وـغـارـاتـ .

ان ما ذكرناه آنفًا يتناول المدارس المستقلة مؤخرًا عن المساجد وان كان بعضها لا يخلو من مصلىٌ تقام فيه الصلوات . بيَّنَ أن المساجد والجوامع منذ أول الدعوة كما ذكرنا حتى الوقت الحاضر هي مراكز تعليم وتنقيف وتتوسيء . وهي لا تكاد ت manus في كل قطر . يأتي في طليعتها الجامع الأموي بدمشق والجامع الأزهر بالقاهرة وجامع الزيوتونة بتونس وجامع القرويين بفاس وجامع قرطبة المشهور حيث حلقات العلماء والطلاب تتعقد دائمًا من قبل شروق الشمس إلى غسق الليل . ونعن نتصوّر عدد الجوامع الأخرى الكثيرة الصغيرة التي لم تكن تفتّت بيت العلم بتنوعه المختلفة . ويطيب لي هنا أن أذكر إلى جانب تعليمي في المدارس الرسمية الحكومية بمدينة حمص كنت وأنا ذي في نحو الخامسة عشرة من العمر أستيقظ قبل الشمس فأصلي الصبح وأسرع إلى جامع بازرباشي وهو جامع صغير على بعد كيلو متر من دارنا لأقرأ مع غيري من الطلاب كتب التعلّم والبلاغة والمنطق القديمة وتفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وأنهل بملء ملకاتي الناشطة المتحفزة من مناهلها العذبة الثرّة ما كان لي فيما بعد قوّة علمية أيّ قوّة مع دراستي للملوّم الأجنبية .

ومن الطبيعي أن يرافق إنشاء المدارس الابتكاب على تاليف الكتب وانتشار فن الوراقه وإنشاء المكتبات مستقلة أو مرتبطة بالمدارس . ولقد كان بعض المكتبات ينشأها الأدباء والعلماء أنفسهم ويفتحونها للطلاب العلم ويرونهم بالمال والورق مثلما كان بعضهم ينشئون المدارس . نقرأ في « ارشاد الأديب » لياقوت أن جعفر بن عبد الموصلي (٢٤٠-٣٢٠) « كانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب للعلم لا يمنع أحد من دخولها اذا جاءه غريب يطلب الأدب وان كان مسراً أعطاوه ورقاً وورقاً تفتح في كل يوم ويجلس فيها اذا عاد من ركوبه ويجتمع اليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته (ج ٢ ص ١٩٢) . ويدرك ياقوت أيضًا في كتابه نقلاً عن نشوار المعاشرة أنه « كان يكرر من نواحي القفص (قربياً من بغداد) ضيعة فنيسة علي بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميهها دار الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلّمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن

يعنى (ج ١٥ ص ١٥٧) . هذا شأن الشعب . أما الأمراء والخلفاء والوزراء فقد كانوا يتسابقون إلى ذلك ويزيد الخلف على ما قام به السلف . ولقد من آنفًا حديث بيت الحكمة الذي أنشأه هارون واشتهر في زمن المأمون .

ولقد أحب الناس في الحضارة العربية الإسلامية الكتاب كل العب ووصفوه بأجمل الأوصاف وننته بأسمى النعموت وأكثرها غرابة وغنى . وأكاد أقول إنما يلاحظ قد تغزل متنفسنا بالكتاب في مستهل كتابه الحيوان حين أنشأ بنشره الممتع البليغ وصفه ذاك . ولا نستطيع أن نمر على ذكره دون أن تزدحم في البال بعض فقراته كاللآلئ المفصلة : «نعم الذخرا والعقدة هو ، ونعم الجليس والمدة ، ونعم النشرة والنزة ، ونعم المشتغل والمعرفة ، ونعم الآتيس لساعة الواحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الفربة ، ونعم القررين والمدخل ، ونعم الوزير والنزييل . والكتاب وعاء مليء علمًا وظرف حشبي ظرفًا وآلة شحن مزاحاً وجداً . ان شئت كان أبين من سجين وائل ، وان شئت كان أعياناً من باقل ، وان شئت ضحكت من نوادره وان شئت عجبت من غرائب فرائده ، وان شئت الهتك طرائفه ، وان شئت أشجعتك مواعظه . ومن لك بواعظمه ، وبزاجر مفر ، وبيناك فاتك ، وبيناطق أخرس ، وبيارد حار » ثم يقول : «من لك بطبيب أغراضي ومن لك بروماني هندي ، وبفارسي يوناني ، وبقديم مولد ، وبميته ممتع ! ومن لك بشيء يجمع لك الأول والأخر والناقص والوافر ، والخففي والظاهر ، والشاهد والنائب ، والربيع والموضع ، والثنت والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟ وبعد فمتي رأيت بستانًا يحمل في ردن وروضة تقل في حيبر ، ونطاقًا ينطلق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ؟ ومن لك بمونس لا ينساً إلا بتوmek ولا ينطرك إلا بما تهوي ؟ آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من رباب الوديعة إلى آخر هذا الوصف المتفنن في معasan الكتاب ومزاياه . فلا غرو بعد هذا أن يقول أبو الطيب مشيرًا إلى السلم والى النضال معاً :

أعز مكان في الدنيا سرج ساجع وخير جليس في الأنعام كتاب

ولا عجب أن يفتخر جار الله أبو القاسم المزمخري فيقول ساهراً عاكفاً على القراءة والكتابة :

سهرى لتنقيح العلوم الذَّلى من وصل غانية وطيب عناق

وتمايلني طربا لعل عويصة
أشهى وأحلى من مدامه ساق
أحلى من الدوكاه والعشاق
نقرى لأنقى الرمل عن أوراقها
والذ من نقر الفتاة لدهما
أبيت سهران الديجى وتبته
نوما وتبغى بعد ذاك لعاقي

بل قد بلغ حب الكتب من قلوب الناشئة والعلماء مبلغا عميقا حتى ان آبا عبد الله محمد بن سلامة المقرى خشي أن يموت دون أن يذهب ظمئه وينقضى أربه من ذلك العجب .

اني لما أنا فيه من منافستي
فيما شففت به من هذه الكتب
لقد علمت بان الموت يدركني
من قبل أن ينقضى من جبها أرببي
كما يذكر ياقوت في مقدمة كتابه .

ولعل اهتمام الجاحظ بالكتابة والأدب والعلم والفلسفة جعله يستفرق
وينسى نفسه وكنيته فقد حدث مرة قال: نسيت كنيتي ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي
فقلت لهم : به أكنى ؟ فقالوا : بأبي عثمان .

وربما كان الجاحظ هو نفسه يضع النواذر ترويعا ، فقد ذكر أنه دخل مدينة
واسط فيك يوم الجمعة الى المسجد فعدفرأى على وجه رجل لعنة لم ير أكابر منها
واذا هو يقول لآخر : الزم السنة حتى تدخل الجنة . فقال له الآخر : « وما
السنة ؟ قال : حب أبي بكر بن عفان وعثمان الفاروق و عمر الصديق وعلى بن
أبي سفيان و معاوية بن أبي شيبان . قال: ومن معاوية ابن أبي شيبان ؟ قال : رجل
صالح من حملة العرش وكاتب النبي ﷺ وزوج ابنته عائشة (أخبار العملى) .
يريد أمير الفكاهة من نادرته هذه أن ينبهنا على الا نفتر بالظاهر ولا بالألباب
اذ تكون أحيانا مضللة .

وكان العلماء العرب يخشون التعريف وعدم الدقة في روایاتهم فاستعملوا
الفكاهة للتتنديد بهما . سال أبو عبيدة كيسان كاتبه عن اسم رجل من شعراء
العرب فقال اسمه خداش أو خراش أو خشاش أو شيء آخر وأظنه قرشيا . فقال

له أبو عبيدة : من أين علمت أن نسبة في قريش ؟ فقال : رأيت اكتناف الشينات عليه من كل جانب .

وكيسان هذا يترجم له السيوطي في كتابه « بغية الوعاة » فيورد قول أبي عبيدة فيه : « كان كيسان يخرج معنا إلى الأعراب فينشدونا . فيكتب في الواحه غير ما ينشدون ، وينقل منها إلى الدفاتر غير ما فيها . ثم يحفظ من المفاتير غير ما فيها ثم يحدث غير ما حفظ . »

ولقد ضاق شاعر قدیم بروايته فقال :

اقول له بکراً فیسمع خالداً ويکتبه زیداً ويقرؤه عَمْراً

وقد نجد أمثل كيسان هذا في المscr العاscr موزعين بين المحققين والمصححين والناشرين والموظفين وان كانوا قلة نادرين . وكم تضيق صدورنا بالأخطاء المطبعية في الكتب التي تنشرها دور الطباعة اليوم . على أن طالب العلم ومعلمه ينبغي أن يكونا مكفيّي المؤونة متفرغين لما هما بصدده من البحث والا كان مثلهما مثل أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي . قال : « حضرت مجلس يزيد بن هارون فاملى ثلاثة حديثاً فحفظتها فجيئت الى منزله أعلق . فعلقت منها ثلاثة . فجاءتني الجارية وقالت : مولاي ! فني الدقيق (أي الطحين) فنسخت سبعة وعشرين وبقيت ثلاثة . »

وهنالك أمثلة تظهر فضل المكتبات في اعداد العلماء . يروي الشيخ الرئيس ابن سينا أنه لما مرض نوح بن منصور السامي في يخارى شارك وهو شاب ناشيء في مداولاته حتى برأه فسأله يوماً الأذن في دخول دار كتبه ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب فاذن له . فدخل داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض . في بيت منها كتب العربية والشعر . وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد . يقول ابن سينا : « فطالعت فهرست كتب الأولي وطلبت ما احتجت إليه منه لرأيتي من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها . »

وكان طلاب العلم يقصدون مناهله مهما تكن بعيدة . ونعن نذكر كيف شد الرجال من معراة النعمان بالشام الى بنداد طلاب علم ضرير آية في النبوغ هو أبو العلاء المعربي ليزور فيما يزوره دار العلم السابورية التي أنشأها أبو نصر سابور بن أردشير الشيرازي وزير يهاء الدولة بن عضد الدولة . وقد ذكرها حكيم المعرفة حين سمع في أصيل يوم ربيعي حامة تهدل على شجرة مزهرة من أشجار المكتبة :

وَغَنِتَّ لَنَا فِي دَارِ سَابُورِ قِينَةً * مِنَ الْوَرْقِ مَطَرَابِ الْأَصَائِلِ مِيهَالٍ

واشتهرت هذه المكتبة وبلغ خبرها الفاطميين بمصر فانتشروا مثلها في عهد الحاكم بأمر الله المفاطمي سنة ٤٠٠ هـ اي بعد دار العلم السابورية بتسعة عشرة سنة.

وذكر ياقوت في معجم البلدان بصدق كلامه على مدينة مو كثرة المكتبات العامة فيها فهو يقول : « ولو لا ما عرنا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات لما في اهلها من الرفدولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقدمة بها فاني فارقتها وفيها عشر خزانات للوقف لم ار في الدنيا مثلها كثرة وجودة . منها خزانتان في الجامع احدهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق بن أبي بكر وكان فقايعياً للسلطان سنجر . وكان أول أمره ببيع الفاكهة والريحان بسوق مرو ثم صار شرانياً له . وكان ذا مكانة منه . وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد او ما يقاربها ، والأخرى يقال لها الكمالية لا ادرى الى من تنسب وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته . وحزانتان للسماعانيين ، ٤٩٤ ، وحزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته ، وحزانتان للسماعانيين ، وأخرى في المدرسة العميدية ، وحزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرین بها ، والخزانات الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكة هناك . وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلتي منها مائتا مجلد واكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت ارتع فيها وأقتبس من فوائدها . وأنساني جبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد ، وأكثر فؤائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الغرائب . »

ولا ننس الأندلس ودور العلم فيها وازدحام الكتب على رفوف مكتباتها . وقد أثبت ابن خلدون أن أسماء دواوين الشعر وحدها في مكتبة قرطبة عاصمة

خلفاء بنى أمية في الأندلس كانت مدونة في ثمانمائة وثمانين صفحة . ويدرك المؤرخون أن مكتبة قرطبة كانت تحتوي على ستمائة ألف مجلد وأن فهرست أسماء تلك الكتب كانت تقع في أربعة وأربعين مجلداً .

هذا غيض من فيض وبرض" من عِدَّه . ولم تذكر المرباطات والخوانق والزوايا التي كانت تملأ البلاد العربية والاسلامية والتي كان المرء أنى وجد يستطيع فيها أن يتفرغ للعلم والتاليف والنسخ والوراقه مكفيًا مؤونته الماشية . ويُخيّل لنا ان البلاد العربية والاسلامية بأرجائها الواسعة وساحلها المطالولة وسفوح جبالها النضة وغياضها الخضراء من شمالها الى جنوبها ومن غربها الى شرقها كانت تتلاًّ بدور العلم والمعاهد والمكتبات تلال السماء الصافية بالنجوم البدعية وتتالق بعلمانها الأعلام تالقها بالكوكب المنيرة تضيء ذلك كله شمس الاسلام .

ولهذا كله انتجهت الحضارة العربية الاسلامية ما لا يحصى من روائع البيان وبدائع العلم وثمرات العقول والقلوب وغرائب الابتكار وفائد الاختراع في كل علم وفي كل فن وفي كل مضمار .

ولا غرو لما شرع الغربيون يطلعون على طائفة من تلك الفرائد وعلى قسط من تلك الفرائد وعلى نصيب من تلك البدائع والروايات وعلى جنى تلك الشرات ذهلوها أيما ذهول وخامرهن المجز عن أن يلعقوا بركتب تلك الحضارة فطفقوا يتعلمون ويجمعون الكتب والمخطوطات ويتجرجون ويقللون وينتعلون ما شاء لهم الاتصال والتقليد والترجمة والتعلم . ثم غدوا يطمسون آثار تلك الحضارة في نقوشهم وفي كتبهم وفي تقدّمهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . وحسبنا أن نشير هنا الى فقرات كتبها الشاعر الايطالي بتراركوس (١٣٠٤ - ١٣٧٤) يتبرم فيها بالحالة النفسية رانت على معاصريه . فهو يهيب ببني قومه ويستعنهم على الجرأة الفكرية والأدبية وينفع في هممهم فهو يقول محققاً ما ترجمته :

«ماذا ؟ لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستنس واستطاع فرجيلوس أن يكون شاعراً بعد هوميروس ، وبعد العرب لا يسمع لأحد بالكتاب ! لقد جارينا اليونان غالباً وتجاوزناهم أحياناً ، وبذلك جارينا

وتجاوزنا مختلف الأمم . وتقولون إننا نستطيع الوصل إلى شأو المرب !
يا للجنون يا للغباء ! بل يا لعقرية إيطاليا الغافية أو المنطفئة * .

ولقد كرت السنون بل كرت القرون، وتغيرت الأحوال وانتقل مركز العضارة العربية الإسلامية من بلد إسلامي إلى آخر ثم تخلفت البلاد العربية والإسلامية جميعاً عن ركب الحضارة الإنسانية بعد أن حللت وراءها عصوراً عديدة وبعد أن بلغتها أعلى ذراها من تحرير الإنسان والمساواة بين البشر وتمجيد مكارم الأخلاق وتوحيد الإيمان والت سابق في تحقيق القيم الرفيعة وتأكيد الأخوة الإسلامية والأنسانية . « أيها الناس كلكم من آدم وأدم من تراب » هدا واحده في مستوى الروح والأخلاق يصرف النظر عن الجوانب الملمسية والفنية والأدبية .

ثم تلامحت شعل العضارة المقتبسة في أوربة وأمريكة والاتحاد السوفيافي ولكنها مهما يشتدد بريتها ويأخذ بالأبصار بما أجزته من تقدم مادي وتكنولوجي تبقى بعاجة إلى نفحات علوية إنسانية على الرغم من كثرة الدعاوى الغريرة .

وهكذا بسبب التبعية العضارية ولاسيما المادية أصبحت البلاد العربية والإسلامية تنشيء جامعاتها على غرار الجامعات الغربية في الغالب .

* * *

إن الجامعة في الوقت الحاضر منظمة علمية وتربيوية ذات بنى مشتبكة وذات وجوه من النشاط متعددة : وهي تقصدى إلى أهداف تزيد تحقيقها كلّاً أو بعضها بحسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقد يتعرّض تحقيق الأهداف الكلية فتكتفى بأهداف اجرائية تنفيذية عاجلة . ومع ذلك تبقى الأهداف الكلية منصوبة للتحقيق . وهي أهداف وغايات علمية ووطنية وقومية وإنسانية .

ثم إن الجامعة من أهم مراكز المعرفة تتعمّد تالدها وتنمي طارفها وتنقل ما يلزم إلى الوطن من المعرفة المعاصرة وتعمل على تطوير هذه المعرفة بالتدريس والبحث والنشر والتشجيع في مجالات أكاديمية عالية . وهذه المعرفة إنما يقصد

* ذكر هذا النص غاستل بوتول في التوطنة التي كتبها وقلم بها ترجمة المستشرق دي سلان لكتمة ابن خلدون إلى اللغة الفرنسية ، طبعة باريس عام ١٩٣٤ .

منها جانبها النظري والتطبيقي الموائمان لطبيعة الوطن الذي تقوم الجامعة على أرضه سواء كانت الطبيعة مادية أو نباتية أو حيوانية والموائمان لنشاط السكان الذين يؤثرون البنية العية المدركة والمذين يتم بهم كل تقدم ورقة والذين يقدم كل منهم لمجتمعه أفضل ما يحسن من عمل وفي المقابل ييسر هذا المجتمع لأبنائه مساعيهم ويケفل تضامنهم ويضمن حريةتهم وكرامتهم ورفههم .

ولاشك أن الجامعة من خلال برامجها الأكاديمية وسياساتها التنظيمية والغائية تبقى متفتحة لابتكارات الجديدة ، مستجيبة لطلاب هيئاتها العلمية والطلابية ، مترصدة للأساليب الناجحة في توارث المعرفة الصناعية ونقلها من جيل إلى جيل ومن كل مكان الى البلد الأصلي . وهي تدرك العلاقات العامة بينها وبين ركب الحضارة والعلاقات الخاصة بينها وبين المجتمع الذي تقوم في أحضانه والذي تعمل على خدمته وتطوير مرافقه وتحقيق مطامحه واعداد رجالاته . ان كل كائن حي له وظائف تتماسك حياته بها ويتم تقديمها ونماؤه بأدائها على وجهها السليم . وكل قصور في أداء وظيفة من تلك الوظائف مسؤول عنها المضى أو الأعضاء المنوطة بها تلك الوظيفة .

والجامعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة القومية وبالمشاريع الوطنية كما ان لها شأناً قيادياً في القيام بالأبحاث العلمية وفي امداد المجتمع بسائل مستمر من الأفكار الجديدة والمخترعات الحديثة ، وفي امداد الدولة بالملالكات الوطنية التي تنفذ خطط التنمية وتحقق التقدم الاجتماعي وتيسّر الوصول الى مستوى عالٍ من الحداثة .

وقد أصبحت الجامعات خاصة والأقطار عامة بعضها ذات احتكاك ببعض بسبب سرعة المواصلات وتقدم وسائل الاعلام وأجهزة التصوير والطباعة الحديثة واحتمال تبادل الكتب والمجلات والتسجيلات السمعية والبصرية وما الى ذلك من تقنية تتطور في كل يوم .

فلا غرو أن تنفذ الى الجامعات وهي مواطن الفكر بشتى أنواعه وأساليبه وميادينه مختلف التيارات الفكرية وهذا يفضل حرية الفكر وحرية البحث المفروض توافرها . وربما ابتعثت تلك التيارات والاتجاهات الحديثة بعض البلبلة لدى الناشئة ونصيباً من الحرية . ولكن لا تخشى العبرة ولا البلبلة اذا كان الأساتذة والطلاب على حذر كاف من الثقافة التراثية والثقة بالنفس ، بل ربما

أفادوا من عناصرها العلمية والانسانية وزادوا غنى ثقافاتهم بما تحمله من مضامين فكرية وأحاطوا بها بدلًا من أن تحيط بهم . أو ليست الحكمة في تراثنا ضالة المؤمن يفتئمها حيث يظفر بها ويتقىل الملة لمن ساقها اليه كائنًا ما كان؟!

وقد يتساءل الناشر عن مواقفهم تلقاء تراثهم فينتظرون إليه من جانب الأفق العالمي ويقدرون كم أسمهم هذا التراث العظيم في تقسيم العلم ورفعة الفكر وخدمة الإنسانية . ثم ينظرون إليه من جانب الأفق العربي الإسلامي والجغرافي والتاريخي فيدركون أصالة هذا التراث وخصوصيته فوق ادراكمهم عموميته .

وكذلك ينظرون إليه من الأفق المطل على المستقبل فيستلهمونه في ضوء همومهم المطيفة وحل مشكلاتهم المترسبة . فيكون حافزاً لهم وياًعاً على العركة والعمل وهكذا إذا رجعنا إلى التراث العربي الإسلامي طالعتنا مزايا هذا التراث واستطعنا أن نستند إلى خصائصه المميزة وسماته العالية .

★ ★ ★

ونحن نحب أن نؤكد هذه السمات والخصائص والمزايا لعلها تنفس في صدور الناشرة وترسخ في نفوسهم وتغدو مستنداً ومصدراً لهم .

نوهنا في مستهل هذا الحديث بقيمة العلم في هذا التراث . فهو مجد وشرف وقوة ورفة ليس فوقها رفة . والمجتمع مسؤول عن كل علم نافع محمود حتى إذا أعز علم من العلوم كان فرض كفاية على الناس بحيث يجب أن ينفر فريق منهم لتعلميه واتقاده وتزويد المجتمع به ، والآثروا جميعاً .

والعلم حياة للمجتمع وللفرد . إنه حياة حقيقة في الحياة وبعد الحياة وقالوا في ذلك شعراً كثيراً نذكر منه هذين المبيتين :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فاجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأً لم يعي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

قال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك .
(إحياء ج ١ ص ٧)

وقد شبه فريد الدين المطار النفس بالفراشة لا تصل الى المعرفة الا ياحتها
في المشعلة شعلة العلم وقد أخذ هذا المعنى الشاعر الألماني غوتي فله قطعة شعرية في
كتابه «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» بعنوان الحنين السعيد تقوم على هذا
التشبيه كأن النفس تحن الى الاحتراق حين ترى مشهد النور فان لم تحرق كانت
طيفاً عابراً في هذه الدنيا لا اثر لها ولا خير . وثمة شعراً وكتاباً قدماً
وحيثون اقتبسوا هذا التشبيه .

وكان علماء الاسلام في علومهم التي يتخصصون بها لا يحصرون أنفسهم في
حدودها الضيقة . بل كانوا دائماً يتشفون الى ما وراء هذه الحدود ويلمّون
ما استطاعوا بعلوم أخرى متعددة . ولهذا كانت لهم صفات موسوعية الى جانب
اختصاصهم . وقل أن نجد عالماً من علماء الاسلام ضيق الأفق اقتصر على علم
واحد . قيل للامام الشافعي : متى يكون الرجل عالماً ؟ قال : اذا تحقق في علم فعلمه
وتعرّض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فمئن ذلك يكون عالماً (احياء علوم الدين
ج ١ ص ٢٦) ذلك أن أولئك العلماء كانوا يدركون اشتباك جوانب الكون
وترواكم عناصره وارتباط بعضها ببعض ضمن وحدته . فإذا درسوا عالماً من العلوم
يتناول موضوعاً ما انتبهوا الى احتمال علاقاته بموضوعات العلوم الأخرى
وحاولوا استشفافها حباً في كشف هذه العلاقات وفي تطوير علومهم وفي ابتكار
شيء جديد . ذلك أن من صفات العلم حركته وقوله للتطور وعدم اكتماله وتاريخيته
يعني أن كل علم هو زبدة العصر الذي ظهر فيه . فكان العالم المسلم متشوفاً نحو
الابتكار والاستكمال والاتيان بالجديد يهتدي بنور عقله وذكاء قرينته . قال
ابن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية . انما العلم نور يقذف في القلب (احياء
ج ١ ص ٤٩) . ويعنى ذلك في رأينا تعفّر العالم لتفهم ما خفي عنه بتوقّد
كرينته وابتكار الجديد لا الوقوف عند ماحصل .

ثم ان العلم في الاسلام يجب أن يقترن بالعمل . ومن عبرية اللغة العربية أنها
كانت لفظي العلم والعمل من حروف واحدة لبيان اقترانهما وأن الواحد لا يتم
الا بالآخر . وهذا ما يدعى في العربية بالاشتقاق الكبير . ثم ان كلاًًا منها يؤثر
في الآخر . وهذا ما يدعى في الفلسفة العدائية بعجلية العلم والعمل اشاره الى
التأثير المتبادل بينهما تأثيراً متلازمـاً . وعبر علماء الاسلام عن هذه العدالية

بعبارات بديعية كقولهم : « العلم يهتف بالعمل فان أجابه أقسام والا ارتعل » ، وقولهم : « ثمرة العلوم العمل بالعلوم » ، وقولهم : « شكر العلم العمل به وشكر العمل زيادة العلم » وفي هذا القول اشارة الى أن العلم والعمل كلاماً نعمة ! وقد قال علي كرم الله وجهه : قيمة كل امرئ ما يحسن . فأخذته الخليل الفراهيدي وهو العالم المبتكر فنظمه شرعاً :

لا يكون العلي مثل الدنيا
لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي
قيمة المرء قدر ما يحسن المرء
قضاء من الامام على

فالاحسان هنا بمعنى العمل المستند الى العلم والاتيان بالجديد المبتكر .

ثم ان العلم أيا كان موضوعه والعمل أيا كان ميدانه ينبغي لهما أن يؤديا الى مصلحة المجتمع وخدمة الانسانية وتعليم الناس الخير . فالغرض هو الهدف المقصود والتانية المرجوة من العمل والعلم معاً . لقد ورد في الحديث الشريف : « ان الله عز وجل وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جرها وحتى العوتوت ليصلون على معلم الناس الخير » . ومن المعلوم أن الصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة استفار ، ومن الغير دعاء . ولارتبة فوق رتبة من تشتمل الملائكة وجميع المخلوقات بالاستفار والدعاء له . ولهذا كان ثوابه لا ينقطع بموته . وان دعاء الانسان لأخيه الانسان من الخير . فكيف بدعاء الملا الأعلى ودعا الورى وبالهام الحيوانات الاستفار والدعاء له . وذلك لفضل العلماء وعملهم وارشادهم وهو سبب لانتظام أحوال العالم . وذكر النملة والعوتوت بعد ذكر الثقلين تعميم لجميع أنواع الحيوان . ثم ان نفع العالم يتتجاوز الناس الى جميع الغلائق حتى النملة والعوتوت . وفي التعبير الحديث نقول : على العالم أن ينتبه للتوازن الحيوي فوق الأرض فلا يقع فيها تلوث ولا إجحاف ولا تخريب لأن العلم والعمل مسوسان بالخير العام ومسيران نحوه .

ثم ان العالم العامل الذي يعلم الناس الخير يندو قدوة لغيره من الناس . هنا نأتي الى فكرة الأستاذ القديوة التي هي من مزايا الحضارة الإسلامية ، ذلك أن الناس يعيشون على الاقتداء بأفاضلهم وأعليهم كما نوه بذلك ابن خلدون قدماً وكما أشار بذلك أيضاً المفكر الفرنسي « تارد » حديثاً . وبالاقتداء الذي يؤلف

غالبية الشبكة الاجتماعية يسري الخير في نفوس الناس وتسرى المعنة والتضامن
كما يسري النسخ الحى في نسج النباتات فى ابان الريبع .

ان تضافر العلم والعمل والخير يجعلنا نفهم كلمة مفكر مسلم قديم (هو
أبو يزيد البسطامي) تبدو غريبة مستهجنة في ظاهرها وهي : « أشد الناس
حجباً عن الله ثلاثة : عالم يعلمه وعايد بعبادته وزاهد بزهده » ذلك لأن المالم
في رأينا اذا وقف عندما يعلم كان علمه محدوداً وغاب عنه ما وراء حدود علمه .
والعايد اذا اقتصر على عبادته دون أن يخدم مجتمعه لم تنفعه العبادة الشخصية
ووحدتها لأن غالبية العبادات ان لم نقل كلها ذات صفات اجتماعية تتعلق بتحسين
المجتمع وتجويد العلاقات الإنسانية والسعى في خير الجميع . والزاهد
بانصرافه عن عمارة الدنيا التي هي سبيل الخلود تقل موازيته في ميدان العمل
الشمر . وكل تجافي عن النظر في الكون والبحث في أسراره وعن التعاون مع الناس
انما هو تباعد عن السنن الطبيعي وتنكب عن جوهر الانسان . ولقد كان علماء
الاسلام حرصاً على الافادة من الزمن والغوف من فواته . كل ساعة عندهم
وسيلة من وسائل الفنى العلمي والمادي . قالوا: الوقت كالسيف ان لم تقطمه قطعك .
وقال الجنيد: « الوقت اذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعز من الوقت . » وقد كتب
أبو الفرج بن الجوزي في كتابه صيد العاطر : « ينبعى للإنسان أن يعرف شرف
زمانه وقدر وقته فلا يضيع لحظة في غير قربة ، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من
القول والعمل . ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن
من العمل . »

وقد نجد في التراث مواقف وأقوالاً غريبة وعجبية ورائعة في تقدير الوقت
خشية فواته وفي محبة العلم والحرص عليه . روى عن عامر بن قيس أحد
المتّابعين أن رجلاً قال له : كلمني (وعرف خواه حواره) فقال له عامر : أمسك
الشمس . أي أن الزمن لا يقف فتجب الافادة منه وعدم اضاعته سدى .

ومن أغرب هذه المواقف ما ذكر ياقوت في ارشاد الأديب عن أبي الريحان
البيروني فقد كان « مع الفسحة في التعمير وجلالة الحال في عامة الأمور مكتباً على
تحصيل العلوم ، منصباً إلى تصنيف الكتب ، يفتح أبوابها ، ويعيّط بشواكلها
وأقاربها ، ولا يكاد يفارق يده القلم ، وعيشه النظر ، وقلبه الفكر إلا في يومي

النيروز والمهرجان من السنة لا عدد ماقس اليه الحاجة في المعاش من بلقة الطعام وعلقة الرياش ، ثم هجّر امفي سائر الأيام من السنة علم يسفر عن وجهه قناع الاشكال ، ويحسر عن ذراعيه كمام الايلاق » * . ثم يذكر ياقوت أن الفقيه علي بن عيسى الولواجي قال : « دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه قد حشّر نفسه ، وضاق به صدره . فقال لي في تلك الحال : كيف قلت يوماً حساب الجدات الفاسدة ؟ فقلت له اشفاقاً عليه : أفي هذه الحال ؟ قال لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة إلا يكون خيراً من أن أخلّيها وأنا جاهل بها ؟ فأعادت ذلك عليه وحفظ وعلمني ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ » . وما ندرني أوقعت هذه القمة حقاً أم كانت خيالية لأبراز حب أبي الريحان للعلم حتى في سياق الموت . وأبو الريحان هو الذي قال فيه المستشرق الألماني زخاو : « انه أكبر عقلية عرفها التاريخ » وهو الذي اقترح مؤرخ العلوم الأمريكي سارتون تسمية النصف الأول من القرن العادي عشر الميلادي باسمه .

قال رسول الله ﷺ : « ان هذا الدين متنقاً وغلوا فيه برفق » . وفي الحقيقة ليس ثمة شيء صالح الا دعا اليه ولا شيء ضار الا بعد عنه حفظاً لصلحة الفرد والمجتمع والدولة والانسانية . ولكن الحياة في تطور دائم وصيورة مستمرة . ولا بد من أن تنشأ فيها مشكلات جديدة وتتشعب مواقف حرجية تتعلق بمسائل اجتماعية وفكورية واقتصادية وعلمية وسياسية وما إلى ذلك . ولنست هذه المواقف المشكلات بالقليلية كنظريّة التطور مثلاً في البيولوجيا ومشكلة تنظيم الأسرة وضبط النسل في علم السكان . هاتان مسائلتان بسيطتان في جانب مسائل أخرى دقيقة متعددة ، يمكن أن تعالج كلها في الجامعات ومعاهد البحث العالمية . ونعتقد أنه ليس من الصعب الوصول إلى الحلول السليمة تعلیها مصلحة المجتمع وأسلوب الفكر الإسلامي المتفتح المعيب بدخول الأصول والتلمع لصائرها والمدرك بأن النظريات العلمية ليست مطلقة ولا نهائية . بل هي ثمرة العصر الذي حصلت فيه والمرحلة التي وصلت إليها . نحن لا تخشى من أمثال هذه المباحث اذا اطلقنا اطلاعاً واسعاً وعميقاً على جوهرها وفکرنا مليئاً في مصلحة الأمة دون أن نعمد بسرعة الى

* هكذا في الأصل والمراد هنا اكمام جمع كم يضم الكاف وهو منخل اليد ومخرجها من الثوب . ولصل الالف سقطت هذه الطبع .

اعطاء رأي فطير أو فتوى جاءت في بعض الكتب الدينية المتأخرة بمناسبة حادثة طارئة . نعود فنضرب مثلا قضية ضبط النسل فلا بد في اعطاء رأي اسلامي في هذا الصدد من الالام بمواقف الدول المحدثة غربية وشرقية وبمواقف الأديان الأخرى وتبيّن ما وراء هذه المواقف واستلهم ما جاء في التراث الواسع جيئه قبل التسريع في الحكم . ونرى أنه من المفيد في جامعة اسلامية انشاء هيئة صفيرة استشارية تجتهد في هذا المضمار ان لم يكن ثمة نص قاطع تألف من الأكفاء العلماء المطلعين على قواعد التشريع الاسلامي والمتخصصين على روح الدين واتجاهه الاجتماعي مع الاطلاع على مکاسب العلوم الحديثة وتكون هيئتهم بمنزلة السفينة الماخورة في بحر العلوم بل في خضم الحياة المتلاطم الأمواج والمتضارب التزعمات . وقليل ما هم . ومن المفيد أيضاً لهذه الهيئة الاتصال بأمثالها في الجامعات الاسلامية ويدور الفتوى أن وجدت . ثم ان هدى بصيرة وتقوى القلوب واستشراف المستقبل تيسّر كل صعب وتدلل كل عقبة وتوجه كل بحث .

تجد في التراث أيضاً أن «العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه : قلب مفكر ، ولسان معبر ، وبيان مصور » (أدب الدين والدين للماوردي) . وهذا يدل على أنه لا بد في التعلم والتعليم من قلوب أو عقول متقدمة مفكرة تستوعب المعاني والمعلومات ، ولا بد فيما أيضاً من الناظر ومصلعلفات تقابل تلك المعاني ومن بيان يستوفي تلك المعلومات دون زيادة ولا نقصان . أما النقصان فيأتي من العي والعسر وضعف ملحة البيان . وأما الزيادة فهي ضرب من الهدر والأكثر . وتبقي زيادة اللفظ على المعنى أقل خطراً من تقصير اللفظ عن المعنى . وانما ينشأ هذا من سوء فهم المتكلم أو الشارح . ولهذا لا بد للأستاذ من اتقان لغة قومه ولا بد له من التأليف فيها والتعليم بها أيضاً . ولا تستطيع أن تصوّر جامعة عربية اسلامية تعلم العلوم على اختلاف أنواعها بغير اللغة العربية مهما اعترضت العقبات ونشبت دون ذلك المصعوبات وتمددت في سبيله المشرّات .

ان الجامعات خزائن المعرفة ومناهل العلم وينابيع التفكير ومصادر التجديد اذا كان التعليم العالي فيها باللغة القومية . ذلك أنه يتخرج فيها رجال الفكر والأطباء والمهندسوون والمحاميون والإداريون وأهل القانون وأصحاب الاختصاص المتنوع في العلم والمعرفة . وإذا جروا على ممارسة التفكير والاعراب عن بنات أفكارهم

وثرات قرائهم بلفتهم القومية العربية أدّى ذلك إلى تطور العلم العربي . ثم ان كلاً من المفكرين والعلماء ينتمي إلى أسرة ولهم أصدقاء وزملاء يختلفون في آرائهم وجماعات ويشارك في مناقشات ويزاول التفكير والبحث أيًا كان مداهـا . فإذا جرى على التعبير والاعراب عن أفكاره في بيته ومناقشاته وتعليمه وكتاباته بلغته القومية وبشكل سليم صحيح أفضى ذلك إلى الارتفاع بلغة الجماهـر الذين يقتدون بهم أعلى منهم مكانة وثقافة ومرتبة ويلتقون تعبيراتهم ومفرداتهم التي يستعملونها ويتذثرون ببيانهم الذي يسمونه أو يقرؤونه فالتعلـيم باللغة العربية في جميع فروعه ودرجاته سببـلـيـوعـالـعـلـمـالـعـرـبـيـ وـتـطـورـهـ وـلـنـشـرـهـ وبـهـ بين الناس والارتفاع بمستواهم الفكري والبياني . يضاف إلى ذلك ما يتعلق بوسائل الاعلام من مجلـاتـ وـصـحـفـ وـإـذـاعـةـ سـمـعـيـةـ وـبـصـرـيـةـ . كذلك الناشـءـ الذي يشبـهـ وـهـوـ يـسـمـعـ لـغـةـ مـبـيـنةـ صـقـلـهـ الـعـلـمـ وـهـدـبـتهاـ الـعـرـفـ يـغـدوـ مـتـمـسـاـ بـهـاـ وـلـاقـاـ لـفـرـدـاتـهـ وـمـلـكـاتـهـ لـلـفـادـةـ مـنـ مـضـامـينـهـ الـعـلـمـيـةـ وـالـفـكـرـيـةـ وـالـفـنـيـةـ . ولـهـذاـ نـرـىـ أـنـ النـهـوـضـ بـالـفـكـرـ لـدـىـ الشـعـبـ يـتـهـيـأـ مـنـ الـأـعـلـىـ أـيـ عـلـىـ طـرـيقـ التـثـقـيفـ وـالـتـعـلـيمـ فـيـ الـجـامـعـاتـ وـاـعـدـادـ رـجـالـ الـفـكـرـ وـالـعـلـمـ مـنـ أـطـبـاءـ وـمـهـنـدـسـينـ وـمـحـامـينـ وـأـمـانـةـ وـأـدـبـاءـ وـغـيـرـهـمـ قـدـ مـلـكـواـ زـمـامـ الـبـيـانـ فـيـ لـفـتـهـ الـقـومـيـةـ .

ولقد أدركت الشعوب هذه المزية فعمدت على الأغلب إلى التعليم في جامعاتها ومعاهدها العالية بلغاتها القومية حتى لو كانت هذه اللغات ذات حظوظ ضئيلة ومتفاوتة من التقدم بالقياس إلى بعض اللغات العديدة الشائعة التي يرجع سر تقدمها إلى تقدم أبنائها لا إلى خصائصها الذاتية . ذلك أن للغات خصائص ذاتية جوهرية وخصائص عارضة سطحية . فالخصوصيات العارضة متعلقة بالمرحلة الاجتماعية والثقافية التي وصل إليها الشعب . فإذا تقدم الشعب تقدمت لغته اشتراق ونحت وقياس وتقبل وفي رأينا لا توجد لغة فوق الأرض تعدل اللغة العربية في هذه المزايا وفي غيرها أيضـاـ .

إن الفتى الذي ألمَّ الماماً كافياً بقواعد لغته وبأصول التعبير الصحيح فيها يسهل عليه في الفيالب التبرير في اتقان اللغات الأخرى وفي العالم أيضاً لأن اتقانه لغته في سن نشوئه دليل على جودة ملـكـاتـهـ الـفـكـرـيـةـ وـمـلـفـرـ بـحـسـنـ مـوـاهـبـهـ الـأـصـلـيـةـ .

ولهذا كان كل شعور بالعجز دليلاً على الوهن والأفون وعدم الكفاية المقلالية . بل نرى فوق ذلك أن المصاعب التي قد يصادفها المثقف في ميدان الإبداع والابتكار نوع من التحدي للملكات وقواه الفكرية . وكثيراً ما أفاد التحدي في ابراز القيم الشخصية وفي شعذ مواهب الأفراد والجماعات . وشد ما قيل بين الناس : إن الحاجة أم الاختراع . ونعن نقول : إن المسؤولية المترتبة والصبر دونها والتغلب عليها مفتاح النجاح .

نعن ندرك تواري اللغة العربية منذ حين عن ساحة العضارة الحديثة كما ندرك تلاؤها في مجازة المصطلحات الحديثة التي غدت كالسيل الهادر والآتي المستفحلي في مجال المعلوم والتكنولوجيا الحديثة حتى صرف الأساتذة والمشرفيين على الجامعات العربية عنها إلى لغات أجنبية أهمها اللغة الانكليزية . وربما خيل الأجنبي للعربي صلوية العلم بلنته وشدة المشقة في سبيل غير معبد ولا مندل . ولكن هذا لا يليق بالناشئ العربي أذ هو أكبر همة وأشد ذكاءً وأوسع ادراكاً من أمثاله الأجانب . وهو يستطيع أن ينهض بالأعباء الكبيرة الملقاة على جيله والمحصلة عن صروف ماضية منتهية . ولا بد من الاقبال والجرأة . وقد يدعا قال الشاعر العربي :

لا تكونن للأمور هيوبا فالى خيبة يصير الهيوب

ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تندَّر كان شأنه فيما قال القديمة كالقانص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائباً اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعاً . كذلك العلم صعب على المقصري سهل على المجد . ولا يبعد شاؤ على صاحب الهمة ولا تشحط غاية على الراغب في الوصول . لقد ذكر الجوزجاني أن شيئاً لغوياً هو أبو منصور الجبان التفت مرة إلى ابن سينا قائلاً "إنك فيلسوف حكيم ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها . فاستنكف أبو علي من هذا الكلام وتتوفر على درس كتب اللغة ثلاثة سنين ثم تحدى أبو منصور في اللغة وفاز عليه . نحن لا نطلب إلى الناشئ أن يكون لغوياً كالشيخ الرئيس ولا مبيناً في كل ميدان مثله . ولكن لا بد للعالم من اتقان لغة قومه والتعليم والبعث فيها على الرغم من المقيبات في جميع اللغات لا في اللغة العربية وحدها .

بل على العكس نجد اللغة العربية عند التمكن منها مواتية لكل مقصد ومسعفة في الوصول إلى كل هدف . منذ الذي لم يطلع على النص الذي كتبه

المبيوني في مقدمة كتابه «الصيادة» يعلّي فيه بيان اللغة العربية حين كسر النقل والترجمة إليها فازداد المنسول والترجم بها جمالاً واتساقاً : «والى لسان العرب نقلت المعلوم من أقطار العالم فازدانت وحلّت في الأفادة ، ومررت معانٍ اللغة منها في الشريين والأوردة ، وإن كانت كل أمة تستعمل لغتها التي الفتها واعتداتها واستعملتها في مأربها مسامع الآفها وأشكالها . وأقيس هذا بنفسى وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة في العراب ثم متقدلة إلى العربية والفارسية ، فانا في كل واحدة دخل ولها متلطف . والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية . »

بل نجد أبا الريحان في مستهل كتابه «تحديد نهاية الأماكن» يندد باستعمال الباحثين لبعض الألفاظ اليونانية التي دخلت أول الأمر إلى كتب المترجمين الأوائل ليهولوا بها على الناشئة دون أن يعرفوا المقابل العربي لها أو يضمموه بالضبط فهو يقول: «ونحن نراهم يستعملون في الجدل وأصول الكلام والفقه طرفاً (طرق المنطق) ولكن بالفاظهم المعتادة فلا يكرهونها . فإذا ذكر لهم إيسا غوجي وقاطيفورياس وباري أرمنياس وأنطوليقيا رأيتهم يشتمئرون عنه و (ينظرون إليك نظر المفتشي عليه من الموت) (٤٧ - ٢٠) وحق لهم . فالجناية جناية المترجمين ، إذ لو نقلت الأسماء إلى العربية فقيل كتاب المدخل والمقولات والعبارة والقياس والبرهان لوجدوا متشارعين إلى قبولها غير معرضين عنها . »

هذا وإذا تقدم الغرب في الوسائل التقنية والعلوم المادية فانا ما نزال ننعم أن الشرق متقدم على الغرب في القيم الإنسانية والمزايا الروحية والشمائل الاجتماعية من علائق التعاطف في الأسرة ومن محبة الإنسان للإنسان ومن احترام شأن العلم والمعرفة ومن غوث الملهوف وعون القمعي وهدایة العائز و مدید الموعنة للماجر والبر بالشيخوخة والوالدين والحدب على الصغار والتمسك بمكارم الأخلاق . وإذا وجدنا لنفسك شذوذًا فإنه طرأ بطريق الإذاعة والسينما والتচصص السيئة «الصادقة» . ان اثاره الرعب والتقتيل الجماعي والصمت عن الاجرام والتمييز المنكري وغض الشعوب وسرقة اراضيهما وتخریب حضارتهما وعبادة الدرهم والدينار كل هذه الأمور بعيدة من تصورات الشرق و مفاهيمه .

ان البلاد العربية غنية بممكنتها المتنوعة الفزيرة . وهي تتسع اتساعاً وافياً لمختلف الثقافات الأجنبية وهي قادرة على تمثلها مع الزمن . وكما ان الأغراض في العدائق تحتاج الى براعة للتلاويم هي والأحوال الخارجية من تربة ورطوبة وحرارة وتنفيذية ورعاية وتمهد دائم لكي تنمو وتنمو وتتفرع وتزدهر وتؤثى بالشار الركيكة تحتاج الأجيال الى فترات زمنية ذات ايقاع مناسب لكي تتفاعل ثقافاتها وتتهيأ للنهوض والتفتح وانشاء حضارة جديدة أصيلة . هكذا تم نهوض الأمم وظهورها بالتدريج على صعيد الحضارة العالمية . ولكن تم أيضاً بالدعم الفعال من قبل المسؤولين والتعهد الدائم لنسع الحضارة المتولدة وتشجيع الأكفاء في كل ميدان . وكل شعب مزايياً يستطيع أن يظهرها في تحقيق مواهبه ان لم تحل دونه حوائل داخلية أو خارجية ولم يتصلل تربية خاطئة ولا زيف ناكم ولم يضيئه استلاب لحقيقة القومية والانسانية . ولا مجال للاستلاب الثقافي اذا ارتکر النشر على المبادئ الصغيرة والتوجيه السليم وتم التعليم باللغة القومية وانتشرت الأفكار الثقافة والعلوم ونمت المواهب بين الناس وتحقق ملائتهم ومواهبهم في طريق التقدم والعلاء . وعلى العكس يقضى التعليم باللغة الأجنبية على هذه المواهب والملكات ويجعلها ذيلاً للحضارة الأجنبية وملحقة بها العاق العمال في البلاد الرأسمالية الغربية بأصحاب المصانع وأرباب رؤوس الأموال .

ومن دواعي الفخر ان جامعاتنا في قطر العربي السوري كانت أسبق الجامعات العربية وما تزال في العرص على التعليم بالعربية السليمة الصحيحة . ومع ذلك فالفرق كبير في هذه الحال بين أوائل هذا القصر والوقت الحاضر اذ غدت العربية اقرب ما تكون الى العامية والى الركاكة والى التشر في شتت المصطلحات سواء اكان ذلك في التدريس أم في كتابة الكتب . وهذا يلقي عبئاً ثقيلاً على الطالب النبيل اذ يضطر الى أن يبذل جهوداً ضخمة في تلافي هذا الغلل التعليمي الشائن ، كما لا بد من مداواة هذا السقم التعليمي العضال الذي لا يشفيه الا تلاقي جهود الأساتذة الأكفاء وادارة جامعة موفقة حازمة تنظر في حقائق التعليم و بواسطه الأمور والأساليب الناجعة ولا تتعلق بالمظاهر .

والمهم هو ارسال التفكير العلمي في أذهان الأجيال العربية المقبلة بحيث ينفو
التفكير العلمي والتبشير العربي صنويين متعددين ملتحمين حافزيين على الابداع
والابتكار الى جانب الاطلاع الدائم على ما يبعد من بحوث علمية على الصعيد
الإنساني العالمي بأي لغة كانت .

ان التعاون قوة من اكبر القوى و هو سبيل النجاح والتاييد . ونحن العرب في
هذا المصير احوج ما تكون الى التعاون والتعاضد في كل مضمون ولا سيما
ضمون البحث والعلم لتحقيق مقوماتنا الذاتية وهي اياتنا الثقافية وللحاج برحب
الحضارة العالمية المراهنة والمشاركة فيها مشاركة اليد للند لا مشاركة البلد المنفرد
بشكل الأجر المستغل في مطامع المجموعة العالمية .

ويساورنا اليقين ان الأجيال العربية الحديثة والمقبلة ستتحمل الأعباء
الضخمة في مجال العلم والتعليم وستنقل المعارف العالمية الى لفتهم وسيؤصلون
ذلك المعارف تأصيلاً عربياً اسلامياً ويتجاوزونها الى المبتكر الطريف .

★ ★ ★

مهما قيل في هذا الموضوع الرحب فاني متفائل بالنهوض القومي ، ومشغوف
بالتقدم الانساني ، ومفرم بالتراث العالمي ولا سيما العربي الاسلامي . واني
لأتمنى في الختام فأقول :

وبذلت فيه جوانحي ومحاجري
وأميّز فيه وارداً من صادر
وابث فيه مشاعري وخواطري
يعكّي البديع من التراث الباهر
أوريثت ذلك كابرا عن كابر
فاذًا شؤون العبَّ ملء دفاتري
اني كبرتُ وليس ذاك بضائري
بل قد يضم ذخائرنا الذخائر
والعلمُ والإيمان كل شعائري

أحرقت في حبي التراث حشاشتي
ولبشت طول العيش أغشى لجته
وأطالع السدر الوسيء ببعره
الشمس والقمر المنير سناهما
قلبي المحب على المدى متفائل
حسابت نفسي في السنين أهدّها
ما حالت السبعون دون صبابتي
القلب ليس يشيب ان شاب الفتى
ومعجتي هي للعروبة كلها

النحو ومصادر الأفعال

صلاح الدين الرعيلاوي

□ ما عرف به المصدر :

المصدر هو اللفظ الدال على حدث الفعل المجرد من الزمان ، متضمناً أحرف فعله ، فهو يدل علىحدث من حيث تعلقه بفاعله ولكن على وجه العموم والابهام ، غير مقيد بزمن . والفعل كذلك موضوع للحدث ولم يقُم به ذلك الحدث على وجه الابهام ، كما يقول صاحب الكليات أبوبقاء التفوي ، ولكن في زمن معين . فالحدث والزمان كلاهما يفهمان من لفظ الفعل لأن كل واحد منها جزء مدلوله يخالف المصدر فأن المفهوم من لفظه الحدث وحده .

قال ابن جني في التصانص (٢٥ / ١٩١٣ - ط) : « وهذا طريق المصدر لما كان جنساً لفعله ، إلا ترى أنه اذا قام قومة واحدة فقد كان منه قيام ، وإذا قام قوتين فقد كان منه قيام ، وإذا قام مائة قومة فقد كان منه قيام . فالكلام اذا اتنا هو جنس للجمل التوأم مفرداً ومتناها ومجموعها ، كما أن القياسم جنس للقومات مفرداً ومتناها ومجموعها . فتغير النسبة الواحدة من القيام ، الجملة الواحدة من الكلام ، وهذا جلي » .

□ المصدر واسم المصدر :

فال المصدر من حيث المعنى ، يدل على الحدث من حيث تعلقه بفاعله . قال الرضي في شرح الكافية : « الحدث ان اعتبر صدوره عن الفاعل ووقوعه على المفعول سُمي مصدرًا ، وإذا لم يعتبر من هذه العيّنة سُمي اسم مصدر » . وقال ابن القيم في بدائع الفتنون : « وأما الفرق المعنوي بين المصدر واسم المصدر فهو أن المصدر دال على الحدث وفاعله . فإذا قلت تكليم وتسليم وتعليم ونحو ذلك ، دل على الحدث ومن قام به ، فيدل التسليم على السلام

والمسائِم ، وكذلك التكليم والتعليم . وأما اسم المصدر فانما يدل على العدُّ وحده فالإسلام والكلام لا يدل لفظهما على مسلَّمٍ ومكتَمٍ بخلاف التسليم والتلکلیم ، فاسم المصدر جردوه مجرد الدلالة على العدُّ . وهكذا فإن المصدر يدل على معنى الفعل من حيث تعلقه بفاعل أو مفعول ، واسم المصدر يدل على الفعل دون النظر إلى تعلقه بفاعل أو مفعول ، قال صاحب الكليات (٨٢٢) : « وقيل المصدر موضوع للحدث من حيث اعتبار تعلقه بالنحو إليه على وجه الإبهام . ولهذا يقتضي الفاعل والمفعول ، ويحتاج إلى تعيينهما في استعماله . واسم المصدر موضوع لنفس العدُّ من حيث هو ، بلا اعتبار تعلقه بالنحو إليه في الموضوع له ، وإن كان له تعلق في الواقع ، ولذلك لا يقتضي الفاعل والمفعول ، ولا يحتاج إلى تعيينهما » .

□ خصوص اسم المصدر :

والمصدر من حيث المفهُوم ، هو الجاري على فعله متضمناً أحرف هذا الفعل . قال ابن القيم في (بناءُ الفتوح) : « إن المصادر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه كالفعال من الفعل والتقييل من فعل والانتفعال من انفعال والتتفعل من تفعل . وإنما الإسلام والكلام فليسا بجاريين على فعليهما ، ولو جريا عليه لقيل تسليم وتکلیم » . ويدل هذا على أن المصدر ما ساوت حروفه حروف فعله لفظاً كجري جرياً ، أو تقديرها كجادل جادلاً فقد خلا الجداول من التقدير للفظ لا تقديرها ، أو موضعاً مما حنف كونه عدة فقد خلا (عدة) من واو (وعد) ولكن عوض منها التاء . أو زادت حروفه كقاتل مقاتلة وأعلم أعلاها .

أما اسم المصدر من حيث لفظه فهو مانقصته أححرف عن أححرف فعله كالصلح اسم مصدر للصالحة ، وال موضوع اسم مصدر للتراضي ، فيما خاليان لفظاً وتقديرها من بعض ما في فعليهما . ويكون (المصدر الميمي) بهذا الاعتبار مصدراً ، كقال مقلاً وآخر مكرماً ، خلافاً لمن اعتقد من أسماء المصادر . قال ابن هشام في شرح شنور الذهب : « اسم المصدر وهو يطلق على ثلاثة أمور : أحدهما ما يحمل اتفاقاً ، وهو ما يبنيه بميم زائدة لغير المقابلة كالضرب والقتل وذلك لأنَّه مصدر في الحقيقة ، ويسمى المصدر الميمي ، وإنما سمه أحياناً اسم مصدر تجوزاً . والثاني ما لا يحمل اتفاقاً وهو ما كان من أسماء الأحداث على كسبحان علماً للتبسيط وفجار وحماد علماً لل مجرمة والمحمدة . والثالث ما اختلف في أعماله ، وهو ما كان اسمًا لغير العدُّ فاستعمل له كالكلام فإنه في الأصل اسم للملفوظ به من الكلمات ثم نقل إلى معنى التكليم والثواب فإنه في الأصل اسم لما يكتب به العمال ثم نقل إلى معنى الإثابة ، وهذا النوع ذهب الكوفيون والبغداديون إلى جواز اعماله » .

ولاحظ المصدر خصوص آخر ذكره ابن هشام في شرح شنور الذهب ، كما تقدم ، ذلك أنه اسم للحدث من جهة واسم للعن من جهة أخرى ، ولا يعنيها الأصل اسم

الحدث او اسم العين . فقد ذكر الرضي في شرح الكافية أن اسم المصدر هو اسم العين
المnocول الى الحدث اذ قال : « اسم المصدر هو اسم العين يستعمل بمعنى المصدر كقوله:

اَكْفِرَا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِي وَبَعْدَ عَطَائِكُمُ الْمِائَةِ الرَّتَاعِ

أي اعطائك .. والمعطاء في الأصل لما يعطى » . فذهب الرضي بهذا الى أنه ليس
ثمة اسم مصدر دال على الحدث الا واسم العين أصل له . وأكيد صاحب المصاحف أن
(الكلام) ، اسمًا للعين ، هو الأصل ، وأنه ، اسمًا للحدث ، هو الفرع ، فقال : « كلامته
تكليمًا والاسم الكلام .. والكلام في أصل اللغة عبارة عن أصوات متابعة لمعنى مفهوم .
وفي اصطلاح النحو هو اسم لما ترکب من مستند ومستند اليه ، وليس هو فعل التكلم . وربما
حصل ذلك نحو : عجبت من كلامك زيداً » . فالكلام الذي هو فعل التكليم هو الفرع .

واذا كان ما ذهب اليه صاحب المصاحف من أن (الكلام) في أصل اللغة ، هو أصوات
متتابعة لمعنى مفهوم ، يعني أن اسم المصدر الذي هو موضوع (الحدث) هو الفرع ،
والدال على (العين) هو الأصل ، فان في طبيعة نشوة اللغة وتواتد معانها ، ما يؤيد هذا
المذهب ويدعمه ، ولو ان مدار البحث لدى النحو حيناً أن اسم المصدر في الأصل هو اسم
الجنس المراد به الحدث .

اقول على ذلك جرى الأولئ من النحو . فقد أشار ابن جنی (ت ٣٩٢ هـ) في
الخصائص (١/٢٣) الى أن الكلام هو موضوع الحديث حين قال : « وذلك أن الكلام اسم من
كلم يمنزلة السلام من سلّم ، وما يمعنى التكليم والتسليم ، وما المصدران الجاريان
على كلام وسلم » . فيما دام الكلام كالتكليم من حيث معناه فإنه اسم للحدث . كما انما اشار
إلى أنه اسم عن حين قال (١/٣٠) : « ان الكلام انتاماً هو في لغة العرب عبارة عن اللفاظ
القائمة برأوسها المستثنية عن غيرها وهي التي يسميها ، أهل هذه الصناعة ، الجمل
على اختلاف تركيبها » . وهكذا فعل أبو محمد عبد الله الغناجي (ت ٤٦٦ هـ) في سر
الفصاحة . فقد نبه أن (الكلام) اسم للحدث حين قال (٢٤) : « الكلام اسم عام يقع على
القليل والكثير ، وذكر السيرافي أنه مصدر ، وال الصحيح أنه اسم مصدر ، والمصدر التكليم ،
قال الله تعالى : وكلم الله موسى تكليماً » . فمادام الكلام اسمًا للتكليم فهو اسم للحدث ، كما
نبه على أنه اسم عن حين قال (٤١) : « الكلام هو المسوت الواقع على بعض الوجوه » .

□ الأسماء المصدرية :

ويخرج عن المصدر واسمه أسماء مصدرية أشبهت المصادر بغيراتها على أحقر
ال فعل لفظاً ، وخالفت المصادر وأسماءها يغلوها من الحديث معنى . وذكروا من ذلكظهور
بفتح أوله وهو اسم لما يتضمنه بالفتح للماء يتوضأ به ، وكذلك الوقود
واللوح والقبول بالفتح ، وبالضم المصدر . وقال آخرون الطهور والوضوء بالفتح اسنان
ومصدران كالوقود واللوح والقبول بالفتح ، فإذا كانتا بالضم فهما مصدراً ثالثاً (الكامل

للعبرة - ٧٧/٢ ، وأمالي المرتضى - ١ / ٣٩٧ ، وال نهاية لابن الأثير - مادة طهر ، والصباح - مادة وضوء) .

وجاء (الفسل) بالضم لما يُنسَلُ به ، وهو بالفتح مصدر ، وقال آخرون الفسل بالضم اسم مصدر ، فإذا كان بالفتح فهو المصدر البة (الصحاح والأفعال لابن القوطيه والمصباح) .

وجاء (النقل) بالفتح مصدر ، وجاء بالفتح والكسر والضم لما ينتقل به على التراب (الصحاح ، وليس لابن خالويه ، وبحر العوام لابن العنبلي الحلبى) .

فهذه أسماء مصدرية ساوت المصادر في حروفها لفظها أو ساوتها في حروفها وقاربتها في لفظها ، وقد أريد بها اسم الذات ولم يُردِّيها الحديث . قال السيوطي في الآشباح والنظائر (١٨٥/٢) : « وقد يقولون مصدر واسم مصدر في الشيئين المقاربين لفظاً ، أحدهما لل فعل والأخر لللة التي يستعمل بها الفعل ، كالظهور بالضم والظهور بالفتح والأكل بالفتح والأكل بالضم . فالظهور بالضم المصدر والظهور بالفتح اسم لما ينطهر به . والأكل بالفتح المصدر والأكل بالضم لما يؤكل » .

وقد يراد بالاسم المصدري هذا اسم المعنى دون اسم الذات فيكون اسماً للحال التي تحصل بالمصدر . فقد جاء في الفروق لاسعيل العقي (١٣٢/١٣٢) : « الفرق بين المصدر والعامل بال مصدر أن المصدر نفس الإيقاع الذي هو امر معنوي ، والعامل بال مصدر هو الآخر الذي يحصل بالإيقاع » .

وقال صاحب الجاسوس على القاموس (١٩٥) : « والفرق بين المصدر والاسم ان المصدر يتضمن معنى الفعل فينصب مثله ، والاسم هو الحال التي حصلت من الفعل . مثال ذلك الفسل بالفتح والتفسل بالضم . تقول قد بالفت في غسلك هذا الثوب فتنصب الثوب . فإذا أردت الحال قلت : لست أرى في هذا الثوب غسلاً بالضم ، هنا ما ظهر لي » . أي أن الفسل بالفتح هو المصدر الدليل على حدث الفعل ، والفسل بالضم هو الحال أو الآخر العامل من حدث الفعل . قال ابن القوطيه في الأفعال : « غسل الشيء غسلاً بالفتح ، والتفسل بالضم ما يُنْسَلُ به ، وهو أيضاً تمام الظهور » . فقد جاء الفسل بالضم ، وهو اسم مصدرى ، بمعنى فهو ما يُنْسَلُ به أي الماء فهو اسم للذات ، وهو تمام الظهور فهو اسم للمعنى . وقد لمح ذلك صاحب المصباح حين قال : « وقيل الفسل بالضم هو الماء الذي ينطهر به ، وقال ابن القوطيه : والفسل بالضم تمام الظهور » ، لكنه أردف « وهو اسم من الاغتسال » . أقول الفسل بالضم هو اسم للفسل بالفتح أي اسم للحال العامل به ، فهو اسم للمعنى ، قوله « اسم من الاغتسال » قد يومه أنه اسم للحدث .

ومن الأسماء المصدرية المبررة عن أسماء المعاني الغالية من الحديث (الطهر) بالضم قال صاحب المصباح « طهر الشيء من بابي قتل وقتل والاسم بالضم .. ومنه قيل للحالة المناقضة للعيض طهراً بالضم والجمع أطهار ، مثل قتل وأقتل ، فالظهور بالضم

اسم معنى خال من الحديث كالفصل بالضم ، وقد جمع الفصل كذلك على أقسام كما في الصباح .

ومنها (الولاية) فالغالب أنه بالكسر لاسم دون الحديث ، وبالفتح للحدث والمصدر . ومنهم من جعل الكسر والفتح لفتين في المصدر (الصحاح والصلاح لابن السكيت ومفردات الراغب والمصباح والكليات) .

وثمة (النصرة) بالضم فقد جاءت أسماء ، والمصدر (النصر) بالفتح . قال الجوهري في صحاحه « نصره الله على عدوه ينصره نصر أو الاسم التضمر بالضم » وكذلك قال ابن سيده في معجمه والمفيومي في مصباحه ، و منهم من جعل (النصرة) مصدراً كالنصر . ففي مفردات الراغب : « ونصرة الله للبيضاء ظاهرة ونصرة العبد الله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده واعتناق حكماته واجتناب نهيه » وجاء به مصدراً . وكذلك فعل الزمخشري ، ففي أسامي البلاغة نصرة الله تعالى على عدوه ومن عدوه نصراً ونصرة » . وأكد ذلك صاحب التاج فقال (نصر المظلوم نصراً ونصرة بالضم ، وهذه عن الزمخشري » . وجاء فيه « ونصرة منه نصراً ونصرة بالضم نجاة وخلصه . وفي البصائر : ونصرة الله لنا ظاهرة ونصرتنا الله هو نصرتنا لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه » . أقول ما دام (النصرة) بالضم قد حللت في كلامهم محل (النصر) فهي اسم للحدث على كل حال ، سواء سميت مصدراً أو أسماء . وعندي أن (النصرة) مصدر لانطوانه على الحديث دون الأسماء المصيرية الخالية منها . ويؤكد مصدريته جريانه على فعله وكونه اسمـاً للحدث دون سواه ، وأسماء المصدر غير جارية على أعمالها ، وهي للحدث تارة ولغيره أخرى . و (فتحة) بالضم ليس غريباً في مصادر الثلاثي ، ومن ذلك (البغية) بالضم ، ففي القاموس « بفتحة أبنيه يُقَاء وبفتحة يضم الباء فيما وبفتحة بالكسر . والبنية بالضم والكسر ما ابتنى » . وكذلك (القدرة) بالضم ففي الأنفال لابن القوطيه وقدر الله على كل شيء قدرة ملكه وقهره ، وقدر الرزق ضئلاً ، وفيه أيضاً « وذكر الماء والشيء كدرأ وكدررة وكدرورة ، وكانت الرجل كلثما وكثنة ... » ، والنالب في (فتحة) بالضم أنه مصدر الفعل اللازم ، أو اسم بمعنى المفهول كنسبة ونكتة .

جمع المصادر

تقدـم أن المصدر جنس لفعله ، كما ذكر ابن جني ، ذلك أنه يدل على الحديث من حيث تعلقه بفاعلـه على وجه العموم والإبهام . وما دام الأمر كذلك فالـمصدر لا يـشـنى ولا يـجـمعـ لـأنـه يـتـناـولـ الجنسـ وـحـسـبـ ، والـجـنسـ يـدـلـ عـلـيـ الـقـلـيلـ وـالـكـثـيرـ ، بل لأنـه يـدـلـ عـلـيـ الحـدـثـ المـتـلـعـ بـفـاعـلـهـ منـ حـيـثـ هـوـ حـدـثـ أـيـضاـ . قال أبو البقاء في الكليات (٢٢٥) : « وـعـدـ تـشـيـتهـ وـجـمـعـهـ - أيـ المصدرـ لـلـكـونـهـ اـسـمـ جـنـسـ ، بلـ لـكـونـهـ دـالـاـ عـلـىـ الـمـاهـيـةـ منـ حـيـثـ هـيـ ، وـالـاـ كانـ اـلـأـصـلـ فـيـ اـسـمـ الـجـنـسـ الـاـ يـشـنىـ وـلـاـ يـجـمعـ ، وـلـمـ يـقـلـ بـهـ أـحـدـ » . أقول ما أظنـ الـأـمـرـ كـماـ ذـكـرـ أـبـوـ الـبـقاءـ ، ذـكـرـ أـنـ اـلـأـصـلـ فـيـ اـسـمـ الـجـنـسـ الـاـ يـجـمعـ لـأـنـهـ يـدـلـ

على القليل والكثير ، فإذا جمع فقد عدل به عن دلالته . فالتمر اسم جنس ، فإذا جمعته على (تمرور) فقد دلت بالتمر الذي هو واحد التمور ، على نوع من أنواعه ، وبهذا يكون قد جذب من الجنس دلالته العامة وشموله ، إلى النوع دلالته الجديدة وخصوصه . وانتظر إلى قول أبي البقاء نفسه ، في المثلثيات : «اسم الجنس ، وإن كان يتناول أحد مدلوله ، إلا أنه لا يدل على اختلاف فاعله ولا على تنوع مدلوله ، ولهذا جمع العمل في قوله تعالى : الآخرين أعملا ، ليدل على الأمررين» فدل بذلك على أن الذي جمع هو النوع والصنف لا الجنس الجامع . قال صاحب المصباح : لأن الجنس لا يجمع في الحقيقة ، وإنما تجمع أصنافه ، والجمع يكون في الأعيان كالزيدين ، وفي أسماء الأجناس إذا اختلفت أنواعها كالارطاب والأعناب والألبان واللحومن ، وفي المانوي الحقيقة المختلفة كالملحوم والقطنون » .

وبعد الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله بن مالك وهو ولد ابن مالك صاحب الألفية ، الأسماء الدالة على الجمع فذكر منها الجمع باسم الجنس . قال الشيخ بدر الدين شارح الألفية : «الاسم الدال على أكثر من اثنين بشهادة التأمل ، أما أن يكون موضوعاً للأحاديث المجتمعة دالاً عليها دلالة تكرار الواحد بالمعنى ، وأما أن يكون موضوعاً لمجموع الأحاديث دالاً عليها دلالة المفرد على جملة أجزاء مسمى ، وأما أن يكون موضوعاً للحقيقة ملني فيه اعتبار الفردية ، إلا أن الواحد ينتفي بباقيه ، فالموضوع للأحاديث المجتمعة هو الجميع ، سواء كان له من لفظ واحد مستعمل ك الرجال وأسود أو لم يكن كأبابيل . والموضوع لمجموع الأحاديث هو اسم الجميع سواء كان له واحد من لفظه كركب وصحب ، أو لم يكن كقوم ورمط ، والموضوع للحقيقة بالمعنى المذكور هو اسم الجنس ، وهو غالباً فيما يفرق بينه وبين واحدة بالتام تكرر وتتراء ، عكسه كثرة وجبة » أي أن الكثرة واحدتها كم على غير قياس ، وكذلك الجباء واحدتها الجباء .

وقصاري ما هناك أن المصدر إذا حذف بما ذكرنا فلا سبيل إلى جمعه سعياً أو قياساً ، فإذا عدل به عن دلالته الجنسية أو حدثه المتعلق بفاعله جاز جمعه في الأصل قياساً على الأسماء عامة . وكل ما جمده من المصادر وتألووا لجمعه بالسماع واختلاف الأنواع قد خرجوا به عن جنسه أو حدثه العام الصادر عن العامل ، فزال بذلك المانع من جعله وعاد إليه حكم الأسماء في جمعها .

فكلام الآئمة مثلاً على أن (المقول والألباب والعلوم والقطنون) مصادر قد جمعت لاختلاف أنواعها ، وهي على التتحقق مصادر عدل بها إلى الأسمية فلم يرق لها من مصدريتها إلا اللفظ ، ذلك أنها فقتلت دلالة المصدر من حيث كونه جنساً لفعلم وحدته المتعلق بالفاعل . قال صاحب المصباح « ثم أطلق المقل الذي هو مصدر على العجا واللب » فلدينا بهذا القراءة التهيئة لقبول العلم ، كما قال صاحب المفردات ، أو هو قوة للنفس الناطقة ، أو هو ما يعقل به حقائق الأشياء ، كما في التعريفات للجرجاني .

وهكذا (اللب) فهو مصدر في الأصل ، تقول : (لب بمعنى عقل) ثم سُلّغ عنه ، حين جُنِّع على الألباب ، دلالة المصيرية . قال صاحب المفردات : «اللب المقل فالخالص من الشوائب» ، وكذا (العلم) بالكسر فهو مصدر بمعنى الآلة وقد أُنْزَل منزلة العقل المجرد من مصدريته فجمع على أحلام حلوم .

أما (الظن) فقد حكى ابن منظور عن صاحب الحكم أنه يكون اسمًا ومصدراً ، وأن الذي جمع هو الاسم . وهذا (العلم) إذا قصد به المعرفة المتصلة بموضع ، كقولك (علم النحو وعلم الفقه) فهو يجمع على علوم ، وهو لا يدل على الحديث . قال أبوالبقاء في الكليات : « واستعمال العلم يعني المعلوم شائع وواقع في الأحاديث كقول ~~يحيى~~ وتلموا العلم ، فإن العلم هنا بمعنى المعلوم » . قال الشيخ مصطفى الغلايني في (جامع دروس اللغة العربية - ٤١٤ / ٢) : « فالمصدر الذي يراد به الاسم لا حدوث الفعل كما تقول : العلم نور ، فإن لم يرد به الحديث فلا يعمل » .

ولما كان الأمر على ما يبينه فليس شيء مما جمع وأصله المصدر يacula على مصدريته . فكل ما جمع فقد جذب إلى الأسمية وخرج بغير المصيرية . وإذا كان صاحب المصباح قد حكى عن الجرجاني قوله : « ولا يجمع اليهم إلا إذا أريد به الفرق بين النوع والجنس ، وأغلب ما يكون فيما ينجدب إلى الأسمية نحو العلم والظن ، ولا يطرد » ، فإن القible التي أشير إليها هي قيس لا ينكس . فإذا قال الآئمة فيما جمع أنه مصدر فقد أرادوا أن ينبعوا على أصله الذي كان له قبل الجمع . وهكذا تصرف الآئمة في جمع ما كان أصله المصدر ثم دعت حاجة التعبير إلى إنزاله منزلة الاسم فجمعاً .

□ ما جمعه الآئمة من المصادر حملًا على الأسمية :

جرى الآئمة على جمع مصادر ما فوق الثلاثي فاكثروا منه ، وترددوا في جمع مصادر الثلاثي فاقلوا منه . فهم جمعوا استعمالاً واحتراضاً واحتضاناً واعتقاداً واحتياجاً واعتقاداً وانتقالاً والزاماً و اختياراً وابتداءً على استعمالات واحتراضات واحتضانات واعتقادات . كل ذلك بالآلف والناء ، كما جمعوا تقريراً وتحديداً وتصيقاً وتصحيفاً وتنبيهاً وتزييلاً وتأويلاً وترخيصاً وتعريفاً فـ *فقالوا* تقريرات وتحديديات وتصحيفات وتصحيفات وتنبيهات . . . بالآلف والناء ، وجمعوا العاشرة واشكالاً واعراباً والزاماً على الحالات واشكالات واعرابيات والزامات بالآلف والناء أيضاً ، كما جمعوا تصرفاً على تصرفات . . . لكنهم جمعوا تركيباً وتقطيباً وتعليقياً وتكليلاً وتكبيراً وتصنيفياً وتأليفاً وتفعيلاً وتقسيماً وتعبيراً وتصريفاً وتفسيرياً أعلى تراكيب وتقاليب وتعليل وتكليم وتصاغير وتصانيف . . . جمع تكسير ، شاع ذلك في مؤلفات الآئمة شيئاً متعالماً ، كلام أم ابن جنني في خصائص والقاضي الجرجاني في وساطته والخفاجي في سر الفصاحة والمخشري في كشفه وأساسه ، بل الباحث في بعض رسائله ، فقد جاء في (التربية والتبيغ والتبيغ / ٢١٧) : « وعادته كطبيعته ، وآخره كأوله ، تعكي اختياراته التوفيق ومناهبه التسديد » .

وهكذا ابن هشام في مغنيه والمسيوطي ومن حکي عنهم في مزهره والأشباء والنظائر وفي همه ، والصبان في حاشيته على الأسموني ، والأسموني في شرح الآلنية ٠٠

وإذا كان الآئمّة قد استساغوا الجمع في مصادر ما فوق الثلاثي فجمهو جمع سلامة ، فقد ضمنوا بجمع السلامة صيغة مفردة ، كما ضمنوا في جمع متنه الجموع تعرّف واحدة ، وإذا كانوا قد ترددوا في جمع مصادر الثلاثي فذلك لاختلاف صيغ جمعه ، على وقرة ما نقل عن العرب من جمع مصادر الثلاثي . قال ابن مظفر في (مادة نزل) : « قوله ابن جنی المضاف والمضاف اليه عندهم وفي كثير من ترتيباتهم كالاسم الواحد ٠٠ إنما جمع تنزيلاً هنا لأنّه أراد للمضاف والمضاف اليه تنزيلاً في وجوه كثيرة ، منزلة الاسم الواحد ، فكتّب بالتنزيلاً عن الوجوه المختلفة . الا ترى أن المصير لاوجه له الا تشعب الأنواع وكثرةها مع أن ابن جنی تسمّح بهذا تسمّح تحضر وتتحقق ، فاما على مذهب العرب ، فلا وجه له ، الا ما قلناه » . أقول ان ما فعله ابن جنی وتسمّح به قد جرى عليه العرب أنفسهم ، ولا بد لمثل هذا التسمّح ما دام تسمّح تحضر وتتحقق ان يتسع نطاقه وتمتد آفاقه مع الزمن ما مستّ اليه حاجة التعبير . »

قال الجوهرى : « والثني واحد اثناء الشيء أي تضاعيفه ٠٠ والثني من الوادي والجبل منقطعه وثنى الجبل ما ثنتِ » فحكى عن العرب جمع (تضييف) وهو مصدر ، على (تضاعيف) وجاء هذا الجمع في خطبة (المفصل) للزمخشري فقال : « ثم انهم في تضاعيف ذلك يعدهون فضلها » قال ابن يعيش شارح المفصل : « التضاعيف جمع تضييف هو جمع ضفت اذا أردت مثله او أكثر » وأردف : « وانا جمع ، والمصدر لا يثنى ولا يجمع ، لأنّه أراد أنواعاً من التضييف مختلفة ، كما يقال العلوم والأشغال » .

□ القياس في جمع المصدر :

فالصحيح على هذا أن يؤخذ بقياس جمع المصدر كلما مسئت اليه حاجة الاستعمال بازدال المصدر منزلة الاسم ، جرياً على ما استنه العرب واقتاسوا به . وقد قال بذلك بعض الآئمّة .

قال صاحب الهمم (١٨٦/١) : « أما النوع ففيه قولان : أحدهما أنه يثنى ويجمع عليه ابن مالك قياساً على ما سمع منه كالعقل والآليات والعلوم » .
وإذا كان بعض الآئمّة قد استدركوا فقالوا : « ولا يطرد ، إلا تراهم لم يقولوا في قتل وسلب ونهب قتول وسلوب ونهب » كما جاء في المصباح (مادة قصد) حكاية من الإمام البرجاني ، وأضاف « وقال غيره لا يجمع الوعد لأنّ مصدر فدلّ كلامهم على أن جمع المصدر موقف على الساع » . أقول : اذا كان بعض الآئمّة قد قال بهذا ، فالجواب عنه أنّ العرب لو احتاجوا الى ازدال (القتل) او (النهب) او (السلب) منزلة الاسم لجمعه على قتول ونهب وسلب ، كما تجمع الأسماء . قال ابن يعيش في شرح المفصل : « فعلى هذا لو سميت بال المصدر نحو ضرب وقتل لكن القياس في جمعه ان تقول في القلة ضرب وأضرب وقتل وأقتل قياساً على أفلس وأكمب وألعب »

وقال صاحب الهمع في (جمع المصدر - ١٨٢ / ٢) : « ولم تطرد فيه قاعدة بحيث تكون مقيسة في جميع ذلك الاسم : فإنه اذا ذاك يجمع جميع ما كان أشبه به ، مثل الأول ان يسمى بضرب فإنه لم يجمع وهو مصدر فجمع سمي به على افضل في القلة فتقول اضرب كلب واكلب ، وضرروب في الكثرة ككمب وكموب » . وقد جاء نحو ذلك في شرح الكافية للدرسي (١٨٧ / ٢) فمثل له بالضرروب والقتول . وهكذا جمع (قتلا) حين انزل منزلة الاسم على (قتول) . فتبين بذلك انك اذا سميت بالمصدر جمعته على ما يجمع به نظيره من الاسماء . ونظائر ما ذكرناه ، مما جمعته المرب من المصادر حملها على الاسمية او جمع قياساً على ما جمعوه ، لا يحصيه عد .

□ ما جمعه ابن جني من مصادر الفعل الثلاثي وما جمعه الزمخشري :

فهذا ابن جني فقد جمع من المصادر (مصدر) على (قصود) حين انتوى فيه الاسمية ، ففي الخصائص (٤٢٧ / ١) : « من غير اعتقاد لطله ولا لقصد من قصوده » . وقد تكرر منه هذا الجمع . وجمع (العنف) على حذفه في قوله (٨٨ / ١) : « الا ترى ما في القرآن وفصيح الكلام من كثرة العنف ، فحذف المضاف وحذف الموصوف » . وجمع (العمل) على حمول ، فقال (٢٢٢ / ١) : « ثم قالوا كساوان تشبيهاً له بعلباوان . ثم قالوا قرأوان حملاً على كساوان ... وسبب هذه الحمول والاضافات والالعاقات كثرة هذه اللغة وسعتها وغلبة حاجة اهلها الى التصرف فيها » . وهكذا جمع (الفصل) خلاف (الوصل) على فصول (٣٤٤ / ١) ، و (الوصل) على وصول (اللسان - ووصل) و (الغلط) على أغلاط (٤٨ / ١) ، كما جمعه على (غلطة) (اللسان - غلط) . بل جمع (الوعد) وهو مصدر في الأصل ، على وعد . فقد اذكر الجوهري جمع (الوعد) لمصدريته وكذلك فعل الأزهري ، والأسمبهاني في المفردات . واستدرك ابن منظور في اللسان فقال « والوعد من المصادر المجموع ، حكا ابن جني » ، اقول لعل الأظهر انه جمعه ابن جني كما هو شأنه فيما انزله منزلة الأسماء من المصادر .

وجمع الزمخشري (الوجل) يفتحتين ، وهو الخوف ، على (أوجال) كما في أساس البلاغة .

□ جمع البيان والبلاغ والعداب :

وتعدد المجمعيون في جميع اللغة العربية بالقاهرة في جمع (البيان) فقال الأستاذ عباس حسن عضو المجمع القاهري : « المصدر من حيث هو مصدر لا يجوز جمعه الا اذا كان عددياً او نوعياً ، وهنا لا دليل على التعدد . ولو سلمنا أنه متعدد الأنواع لكان المانع من جمعه جمع المؤنث السالم أنه لا يدخل تحت نوع مما يُجمع هذا الجمع » . وهكذا اذكر الأستاذ عباس حسن جمع (بيان) على (بيانات) لسبعين ، الأول : أنه لا دليل على تعدده ، والثاني : أنه لا سند لجواز جمعه جمع مؤنث سالماً ، اذا صع جمعه .

والجواب على ذلك أن (البيان) بمعناه الذي أرادوا ليس مصدراً، وإنما هو اسم: لما يتم به بيان الأمر والكشف عن غامضه . وما دام قد عدم حدثه وجنسه فقد جنب إلى الأسمية فساغ جمه . والبيان بالمعنى المذكور متعدد كبيان التقرير والتغيير والتعديل على ما ذكره المجرجاني في تعريفاته . وتنبأ (البيان) في شرح المنار في أصول الفقه لابن ملك فقال : « فصل في بيان أقسام البيانات / ٢٣٤ » ، وجعل هذه الأقسام بيان التقرير والتفسير والتغيير . وأفتى صاحب الوساطة القاضي الجرجاني (ص/ ٢٣٢) فقال : « إن أصل الجمع الثاني .. فمن جمع اسمًا لم يجد عن العرب جمّه فأجزأه على الأصل ، أي بالألف والماء ، لم يسع الردع عليه ، ولم يجز أن ينسبه إلى الخطأ لأجلها ، وعلى هذا جرى الأئمة . فقد جمع الصحاح (البلاغ) على البلاغات ، وكذلك فعل الباحظ في كتاب (حجج النبي) ، والهمذاني في خطبة كتابه (الأنفاظ الكتابية) ، فسقط بذلك اعتراض المترض ، ويصبح عندي جمع (البيان) كذلك على (أبيته) كما جمع العذاب على (أعذبة) . قال ابن منظور : « قال أبو عبيد في قوله تعالى : يضاعف لها العذاب ضعفين - الأحزاب / ٣٠ ، معناه تجمل الواحد ثلاثة ، أي تذهب ثلاثة أعذبة . والمبيان والعذاب أسمان للمصدر الأول من المتبين والثاني من التعديل ، واسم المصدر كال مصدر في امتناعه على الجمع من حيث الأصل ، ما لم ينزل منزلة الاسم . »

□ جمع ما انتهى بالتاء من المصادر :

ومما صرّح الأئمة بجواز جمعه من المصادر باطراد ما انتهى منها بالتاء . فقد ذكر العلامة ياسين في (حاشية التصريح) : « المصدر لا يثنى ولا يجمع ما لم يكن بالتاء ». وسترى أن ما انتهى بالتاء من المصادر انما جمع حملًا على الأسمية ، ولو تأولوا له باختلاف الأنواع . قال ابن الأثير في (النهاية) : « التحيات جمع تهبة قبل أراد بها السلام . وإنما جمع التهبة لأن ملوك الأرض يبعثون بتهبات مختلفة . . . فقيل للMuslimين قولوا التحيات اللهم ما أنت بحاجة إلى السلام والملك والبقاء هي اللهم تعالي . » . وواضح أن (التهبة) التي جمعت قد خرجت عن حدثها بدل جنسها فأضحت اسمًا من الأسماء . وهكذا (النية) ففي المصبح : « والنية الأمر والوجه الذي تنويه » .

ويدخل فيما تقدم مصدر الوحدة ومصدر الهيئة فانهما يثنيان ويجمعان . وعلة ذلك على ما انتتعينا إياك اذا قلت (جلت جولة) لم يبق في قوله (جولة) دلالة على جنس الفعل الذي يدل على القليل والكثير ، بحكم قوله (جلت جولات) . وهكذا قوله (مشيت مشيّة الفزع) فقد خُصت (المشيّة) بنوع من (المشي) فخرجت به عن جنس الفعل ولو دل على حدثه .

ومما صرّح الأئمة بامتناع جمعه البة (المصدر المؤكّد) . قال صاحب الهمج (١/١٨٦) : « المصدر نوعان مبهم ، وهو ما يساوي معنى عامله من غير زيادة كقمة قياماً

وجلست جلوساً ، وهو مجرد التأكيد ، ومن ثم لا يثنى ولا يجمع ٠ فال مصدر في قوله (قمت قياماً وجلست جلوساً) قد ماثل فعله من حيث دلالته على العد وجنسي دون تحديد ، فهو باق على مصدريته ٠

اعمال المصدر

شرط اعمال المصدر عمل فعله ، تعيدياً وزوماً ، بقاوته على مصدريته بدلاته على حدثه وجنسيه ، ذلك ليستقيم نيايته عن فعله أو حلول الفعل المصحوب بان أو ما المصحوبين ، محله ٠ مثال ذلك قوله (يعجبني قيامك بما يحب عليك) وقولك (يعجبني أن تقوم بفعل الغير) أو (يعجبني ما تقوم الان بفعل الغير) ٠ فإذا دل على الوحدة لم يعمل ٠ قال الاشموني (١٠٥ / ٣) : « فالوحيد بالثاء أي بناء الوحدة لم يعمل ، فإذا قلت (ضربت ضربة الرجل) فالرجل منصوب بالفعل لا بضربة ، وكذا قوله (ضربت ضربتين الرجل) فال مصدر المبني للعدد لا يعمل لتعديده ، فإذا كانت الثاء في أصل بناء المصدر كالرحمه والرغبه والرهبة عمل المصدر . قال أبوالبقاء في الكليات « المصدر المحدد بناء الثانى لا يعمل الا في قليل من كلامهم . ولو كان مبيناً على الثاء عمل في قوله :

فلا ولا وجاء النصر منك ورهاية عقابك قد كانوا لنا بالموارد
فاعمل رهبة لكونه مبيناً على الثاء ، أي لكون الثاء في أصل بناء المصدر ٠

وال مصدر المؤكّد لا يعمل ، على اباهامه ودلاته على العد وجنسيه ، لأنّ اتي ليؤكّد عامله وهو الفعل . فإذا قلت (علّمْت التلميذ تعليمًا المسألة) فالمسألة منصوبة بالفعل لأنّه هو العامل في الأصل . فإذا قلت (ضربت فلاناً ضرب زيد أخاه) أي ضرباً مثل ضرب زيد أخاه ، كما جاء في حاشية الصبان على الاشموني (١٠٣ / ٣) فقد صرّح بال مصدر (ضرب) المضاف إلى زيد رفقاء فاعله المضاف إليه ونسبة في مفعوله ، لأنّه لم يات مؤكّداً لعامله ، وإنما أتي مبيّناً لنوعه ٠

□ اعمال المصدر المجموع :

والأئمة على خلاف في اعمال المصدر المجموع ، فمنهم من حكم بمنته واختاره أبو حيان . ذلك ان المصدر لا يجمع حتى يكون قد فقد مصدريته فعدم جنسه أو حدثه موتى افقد مصدريته امتنع عمله . ومنهم من أجازه واختاره ابن مالك اذ ذهب إلى أن المصدر يجمع حيناً فيقصد به مجرد تكرير الفعل ويبقى على حدثه وجنسيه فيعمل . قال صاحب الهمج (٩٢ / ٢) : « وجوزه قوم - أي عمل المصدر - في الجمع المكسر واختاره ابن مالك ، قال لأنّه وإن زالت معه الصيغة الأصلية فالمعنى معها باق ، ويتضاعف بالجمعيّة لأنّ جمع الشيء بمنزلة ذكره متكرراً بعطف ، وقد سُمِّع .. قال أبو حيان والمختار المنع وتأويل ما ورد من ذلك على النصب بضممر .. وهكذا أقرّ ابن مالك جمع المصدر الذي لم يعر من حدثه وجنسيه واعماله ، وهو نادر في الاستعمال ، وما جاء على ذلك قول

كم جرّبوا فما زالت تجاري بهم أبا قدامة إلا المجد والفتى

والفنع زيادة المال ، ومسك ذو فنع ذكيـ الـائـعة . وقد جاء (أبا) منصوباً بتجارب وحاول ابن جنـي أن يجعلـه مفعولاً لـ (زادـت) لكنـه قال : « والـوجه أنه انتـصبـ بـتجـارـبـهـ لأنـهاـ العـاملـ الأـقـرـبـ » . وقد حـكـيـ ذلكـ السـيـوطـيـ فيـ (الأـشـيـاءـ وـالـظـائـرـ) فـقالـ: « وـقدـ يـجـوزـ أنـ يـكـونـ أـبـاـ قـدـامـةـ مـنـصـوـبـاـ بـزـادـتـ » ، أيـ فـماـ زـادـتـ (أـبـاـ قـدـامـةـ تـجـارـبـهـ إـمـاـ إـلـاـ مـجـدـ » . وـالـوـجـهـ أـنـ تـنـصـبـ بـتجـارـبـهـ لأنـهاـ العـاملـ الأـقـرـبـ ، وـلـأـنـهـ لـوـ أـرـادـ عـامـلـ الـأـوـلـ لـكـانـ حـرـيـاـ أـنـ يـعـملـ الثـانـيـ أـيـضاـ » . علىـ أـنـ فـيـ اـعـمـالـ (التجـارـبـ) نـظـراـ عـلـىـ كـلـ حالـ . ذلكـ أـنـ العـربـ قدـ جـرـتـ عـلـىـ اـسـتـعـمـالـ (التجـربـةـ) أـسـمـاـ . فـفـيـ الصـيـاحـ : « قالـ الأـزـهـريـ جـرـبـ الشـيـءـ تـجـربـةـ اـخـتـرـتـهـ مـرـةـ بـعـدـ أـخـرـىـ وـالـاسـمـ التـجـربـةـ وـالـجـمـعـ التـجـارـبـ » . فـالـتـجـربـةـ فـيـ الأـصـلـ مـصـدـرـ كـالـتـجـربـةـ لـكـنـهـ قـدـ عـدـلـ بـهـ عـنـ مـصـدـرـيـهـ فـأـنـزلـ مـنـزـلـةـ الـأـسـامـ فـيـ جـمـعـ عـلـىـ (تـجـارـبـ) ، فـقـولـكـ (فـلـانـ ذـوـ تـجـربـةـ) كـقـولـكـ (فـلـانـ ذـوـ خـبـرـةـ) . وـفـيـ الـأـسـامـ « وـرـجـلـ مـجـرـبـ » : ذـوـ تـجـارـبـ » . وـلـاـ يـعـنـيـ هـذـاـ مـنـ اـسـتـعـمـالـ (التجـربـةـ) بـعـنـيـ (التجـربـبـ) مـصـدـرـاـ عـلـىـ الـأـصـلـ ، كـقـولـكـ (انـ تـجـربـتكـ فـلـانـاـ قـدـ كـشـفـتـ خـصـالـهـ) . فـالـتـجـربـةـ هـنـاـ مـصـدـرـ باـقـ عـلـىـ مـصـدـرـيـهـ عـامـلـ عملـ فعلـهـ . وـبـيـقـيـ الاـشـكـالـ ، عـلـىـ كـلـ حالـ ، فـيـ جـوـازـ جـمـعـهـ عـلـىـ هـذـاـ العـدـ . وـمـاـ نـعـنـفيـهـ قولـ الشـاعـرـ :

وعلتْ وكانَ الْخَلْفُ مِنْكَ سُجِّيَةً مواعِيدَ عَرْقُوبَ أَخَاهَ بِيَثْرَبَ

فقد انتصبـ فـيـ (أـخـاهـ) بـمواعـيدـ ، جـمـعـ المـصـدـرـ . فـنـوـاعـيدـ مـفـمـولـ مـطلـقـ لـوـعـدـ وـعـرـقـوبـ مـضـافـ إـلـيـهـ ، وـمـعـلـهـ الرـفـعـ بـالـفـاعـلـيـةـ لـمـواعـيدـ ، وـأـخـاهـ مـفـمـولـ مواعـيدـ .

السماع والقياس في مصادر الثلاثي

الـأـكـثـرـونـ عـلـىـ أـنـ مـصـادـرـ الـثـلـاثـيـ مـوـقـوفـةـ عـلـىـ السـمـاعـ . وـقـدـ ذـهـبـ جـمـاعـةـ الـإـمـتـنـاعـ الـقـيـاسـ فـيـهـ ، وـلـوـ لـمـ يـكـنـ سـمـاعـ . فـقـدـ حـكـيـ السـيـوطـيـ فـيـ الـهـمـعـ : « لـاـ تـنـتـركـ مـصـادـرـ الـأـفـعـالـ الـثـلـاثـيـ إـلـاـ بـالـسـمـاعـ ، فـلـاـ يـقـاسـ عـلـىـ فـلـىـ » . وـأـبـجـازـ آخـرـونـ الـقـيـاسـ حينـ يـفـتـقـدـ السـمـاعـ . فـقـدـ قـالـ الـأـشـمـوـنـيـ فـيـ شـرـحـ عـلـىـ الـأـلـفـيـةـ (١٢٢/٣) : « وـالـرـادـ بالـقـيـاسـ هـنـاـ أـنـ إـذـ وـرـدـ شـيـءـ وـلـمـ يـعـلـمـ كـيـفـ تـكـلـمـواـ بـمـصـدـرـهـ فـانـ تـقـهـسـ عـلـىـ هـذـاـ » . عـلـىـ أـنـ مـنـ الـأـلـفـيـةـ مـنـ اـخـذـ فـيـهـ بـالـقـيـاسـ وـلـوـكـانـ ثـمـةـ سـمـاعـ كـالـفـرـاءـ وـالـزـمـشـريـ . قـالـ الصـبـانـ فـيـ حـاشـيـتـهـ عـلـىـ الـأـشـمـوـنـيـ (٢٢/٣) : « وـمـلـهـبـ الـفـرـاءـ إـلـىـ أـنـ يـجـوزـ الـقـيـاسـ عـلـيـهـ وـانـ سـمـعـ غـيرـهـ » . وـجـاءـ فـيـ (الـمـطـلـوبـ شـرـحـ المـقـصـودـ / ١ - ٢١ وـ ٢٢) : « مـصـادـرـ الـثـلـاثـيـ سـمـاعـيـةـ عـنـدـ سـيـبوـيـهـ ، وـأـمـاـ الزـمـشـريـ فـيـرـيـ أـنـهـ قـيـاسـيـةـ لـكـثـرـتـهـ » . وـقـالـ أـبـوـ الـبـاتـامـ فـيـ الـكـلـيـاتـ : « الـقـولـ بـاـنـ مـصـادـرـ الـثـلـاثـيـ غـيرـمـزـيـدـ لـاـ تـنـقـاسـ لـيـسـ بـصـحـيـحـ ، بـلـ لـهـ مـصـادـرـ مـنـقـاسـةـ ذـكـرـهـ التـنـحـيـوـنـ » .

اما الـقـيـاسـ الـذـيـ ذـكـرـهـ التـنـحـيـوـنـ لـمـصـادـرـ الـثـلـاثـيـ فقدـ أـوـجـزـ مـعـمـدـ بـنـ أـبـيـ بـكـرـ الرـازـيـ فـيـ خـطـبـةـ مـعـجمـهـ (مـخـتـارـ الصـيـاحـ) فـقـالـ : « أـعـلـمـ أـنـ الـأـصـلـ وـالـقـيـاسـ الـفـالـبـ فـيـ أـوـزـانـ مـصـادـرـ الـأـفـعـالـ الـثـلـاثـيـ أـنـ فـعـلـ مـتـىـ كـانـ مـفـتوـحـ الـمـيـنـ كـانـ مـصـدـرـهـ عـلـىـ وـزـنـ فـعلـ »

بسكون العين ان كان متعدياً ، وعلى وزن فمثول بضمتين ان كان الفعل لازماً . مثاله من الباب الأول : نصرَ نصراً ، قعد قعداً . ومن الباب الثاني : ضرب ضرباً ، جلس جلوساً . ومن الباب الثالث : تطلع قطعاً ، خضع خضوعاً . ومتى كان فعل مكسود العين ويقبل مفتاح العين كان مصدره على وزن فعل بسكون الدين أيضاً ، أن كان الفعل متعدياً ، وعلى وزن فعل بفتحتين ، ان كان لازماً . مثاله . فهو فهم فهمها ، طرب طرباً . ومتى كان فعل مضموم العين كان مصدره على وزن فعالة بالفتح او فعولة بالضم او فعل بكسر الناء وفتح العين ، وفعالة بالفتح هي المثالب . مثاله ظرف ظرافه ، مهمل مهمله ، عظم عظاماً ، هذا هو القیاس في الكل .

خلاف النقاد في مصادر بعض الأفعال ومعانها

انكر كثير من النقاد أن يكون (الصمد) مصدراً لـ (صَمَدَ) لازماً ، وأن يكون (الثبات) معنى له . ومن هؤلاء الدكتور مصطفى جواد ، عضو المجمع العلمي العراقي ، رحمة الله ، اذ قال في كتابه (المباحث اللغویة في العراق) : « فهذا الصمد الذي استعمل بمعنى الثبات والمقاومة لا يزال على سوءاستعماله ، لأنّه حركة وتقدم ، لا ثبات واستقرار . ثم ان العرب لم تعرف الصمد مصدرأ ، وإنما المصدر الصمد كالقصد وزناً ومعنى .. فالصمد ان كان قد استعمل في حروب العرب للقصد والسير الى العدو ، فكيف يستعمل للثبات والقرار ، هذا استعمال للكلام في عكس معانيه ، وهو خطأ محض لا يسوّقه مرور الزمان أبداً » . وقد عاد جواد الى بحثه هنا في كتابه (قل ولا تقل) ولم يخرج في الجملة عما ذكره في كتابه الأول .

وتقصي البحث في هذا الأستاذ محمد العداني أيضاً وبسط في معجمه (الأخطاء اللغویة الشائنة) رأى جواد ، وأكثر من الأدلة واستقرغ ما انت به الماجم في (صَمَدَ) ومصدره ، وخلص الى مغالطة جواد فانك ان يكون معنى (الصمد) مقصوراً على (العركة) ، والى مشابهته فانكر ان يكون (الصمد) مصدراللفعل لانفراد المجم الوسيط بذلك ، فما صواب المسألة ؟

الرأي عندي ان (الصمد) قد انطوى على معانٍ متباذلة متداعية . فهو التوجه والطلب ، وهو الغزم والتغزل للوثوب ، وقد يخص بالمعنى في استقامة واستواء دون ميل ، والقرينة كفيلة بابراز المعنى القالب الذي أريد بالفعل ، والمسرى الذي سلكه فنزع اليه .

□ معنى (صَمَدَ) :

ففي الماجم صَمَدَ كقصد وزناً ومعنى ، يقول صَمَدَته كقصدته متعدياً ، وصَمَدَت له واليه كقصدت له واليه لازماً ، فإذا صَمَدَت فلاناً فقصديمته وطلبيته ، وإذا صَمَدَت لها واليه فقد توجه نحوه وتقصت اليه بتبنفيه ، هنا هو الأصل . فإذا كان المصود أو المصود اليه (الله تعالى) وهو ذو القوة ومحل الثقة والامتناد ، وقد طلبه الصامد ليستعين به

ويغوض أمره اليه ، ف (القصد) هو التوجه والاعتزام . ذلك أن الصادم يتوجه إلى الله بيته ويلوذ به ويعتزم تسليم الأمر إليه . يقول الجوهري في الصحاح : « صمد بضم الصاد ، صد بفتح الصاد ، والصمدَ السيد لأنَّه يُصْمِدُ إلَيْهِ في العوائق » . ويشف (القصد) هنا عنده بالصد ، كما ستراء . ويقول ابن القوطي في كتابه الأفعال : « صمدت إلَى الله صمداً وصموداً ، وأصمدت ، لجات » . وفي معنى الملموج توجه إلى المصود إليه ، واعتزم تسليم الأمر إليه . ويقول الرمخشري في الأسامي : « صمدَ قصده ، واصمدَ صمدَ هذا الأمر اعتمده ، وصمدَ ومصمود ، والله الصمدَ ، عن الحسن : أصمدت إلَيْهِ الأمور فلا يقضى فيها غيره » . ونحو ذلك في المصباح والابدال والكليات . فانت تصمد إلَى الله ب حاجتك وتنتدبه فهو السيد المصود المقصود بالحوائج .

وإذا قلت (صمدت للعنو) ، وهو مانع بسبيل الكشف عن معناه ، فليس (القصد) فيه التوجه والمضي إلى المعدو وحسب ، وإنما هو اعتزام قتاله والتعرف للوثوب عليه أيضاً . ففي حديث معاذ بن الجحوم في قتل أبي جهل ، وقد رواه ابن الأثير في النهاية : « فصمدت له حتى أمكنتني منه غرة » . قال ابن الأثير : أي ثبتَ له وقصدته وانتظرت غفلته » . وفي القصد الذي فسر به الصمد ما أشرنا إليه من معانٍ للتوجه والطلب ، ومن الفرم على القتال . والتهيؤ للوثوب كما سنبسطه لك . وإنما إذا قلت في تفسير (فصمدت له حتى أمكنتني منه غرة) : مضيت إليه حتى أمكنتني منه غفلة ، ضفت المعنى وتخلف ، وإذا قلت في تفسيره : مضيت إلى المعدو أبقيه معتزماً قاتله متغزاً للوثوب عليه ، حتى أمكنتني منه غفلة فرميته ، وضع المعنى وحسن ودق ، قال الدكتور جواد : « فكيف يثبت لم يقصد به فعل واحد ، وكيف تجمع الحركة والسكن أو الركون والحركة في فعل واحد؟ » .

أقول إن ابن الأثير قد أضاف (ثبتَ له) ليزيد في ايضاح المعنى . فان نفس الحديث « فصمدت له حتى أمكنتني منه غرة » أي استمر صمدي له حتى كان ذلك . كان تقول (وطئت الوعثاء حتى ذلت الصعب) أفكنت تخطئ لو قلت في تفسيره (استمر وطئي للوعثاء حتى ذلت الصعب) فالثبات الذي أضافه ابن الأثير تأكيد لهذا الاستمرار الذي دلت عليه القرينة .

أما قول الدكتور جواد (كيف تجتمع الحركة والسكن) فعجب حقاً ! فمن قال له ان الثبات أو الاستمرار الذي شفّت عنه العبارة هو السكون؟ وهل يعني قوله (ثبت فلان في العرب) أو (ثبت فلان قبلة خصمه) أنه سكن وجسد فلم يترجح أو يُبَدِّل حراكاً؟ فالثبات في هذا الموضع هو ثبات القلب في القتال ومداومته العزم على المواثبة . أفاليسط العرب جولات من كر وفر؟ فكيف يسكن الشجاع فيها والجولان حرقة مستمرة، أفيصبح أن يكون ثبات الشجاع مكون جسمه وجمود حركته ، أو ثبوت أصله في الأرض كرسو السفينة في سيف البحر؟

والغريب أن الأستاذ عز الدين علم الدين، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، محقق كتاب الابدال لأبي الطيب المنور قد أخذ برأي جواد في المسألة ، وذيل قول أبي الطيب (صمدت فلاناً صمداً ٠٠) ، فقال: « ومن اغلاق الكتاب استعمال صمد بمعنى ثبت والصمد حركة والثبات سكون فهما ضدان » . أقول : الصمد في المركبة حركة بلا شك والثبات الذي شف عنه تأكيد لاستمرار الصمد ومواصلة النضال ، لا دعوه لسكنون البعض وجمود المركبة .

ومكذا القول في حديث علي (رض) : « فصمدأ صمداً حتى ينجلب عمود الحق » فان معناه كما يتضح : استمرا في الصيد واثبتو عليه حتى يتبعن عمود الحق . وقد أورد الأمتاز جواد في هذا تفسير الأستاذ ابن أبي الحديد اذ قال : « صمدت لفلان قصدت له » وهو صحيح مستقيم لكنه شرح مقتضب معجمي ونحن نورد فيه شرح الأستاذ محمد معين الدين عبدالحميد اذ قال : « الصمد القصد . وتقول صمده وصمد له وصمد اليه من باب ضرب ونصر ، أي فاثبتو على قصدكم » . فقول علي (رض) (صمداً صمداً) دعوة الى استمرار الصمد والثبات عليه ، وتفسيره : اثبتوا على الصمد واستمرا فيه حتى ينجلب عمود الحق ويسطع نوره .

وقد حكى اللسان والتاج رواية أخرى لتفسير ابن الأثير في حديث معاذ . قال ابن منظور : « أي وثبت له وقصدته فانتظرت غفلته » يدلـا من « أي ثبت له » ، أفالـا يعني هذا أن في الصمد للعنوان معنى الوثوب عليه والتعزز لقتاله . وذكر التاج ماذكره اللسان، وقال في موضع آخر « الصمام بالكسر الجلاـدوـالضراب من صامدـه » . وفي التهذيب للأزهري : « ويقال ناقـة مصـمـادـه وهي البـاقـيـة عـلـى الـقـرـرـ والـجـدـبـ الدـائـنـ الرـسـلـ ، وـنـوـقـ مـصـمـادـ وـمـصـمـيدـ » . أفالـسـ في هـذـا ما يـشـيرـ إـلـى أـنـ (ـالـصـمـدـ) يـعـنيـ الـمـجـالـدـةـ وـالـمـاصـابـةـ ، فالـنـاقـةـ الصـمـمـادـ هيـ التـيـ اـمـتـحـنـتـ بـالـبـرـدـ وـالـجـدـبـ فـكـانـ بـهـاـ طـاقـةـ بـمـلـاقـاتـهـاـ ، فـهيـ تـمـضـيـ فـيـ اـعـطـاءـ لـبـنـهـاـ ، عـلـىـ مـاـ تـلـقـاـتـوـتـعـاـيـهـ مـنـ بـرـدـ وـمـحـلـ وـبـيـسـ . وـتـقـولـ (ـالـصـمـدـ) مـنـ الرـجـالـ الـذـيـ لـاـ يـعـطـشـ وـلـاـ يـبـرـوـعـ فـيـ الـعـرـبـ (ـأـيـ يـثـبـتـ وـيـصـابـرـ ، وـتـقـولـ (ـأـنـهـ مـصـمـادـ مـنـ الـمـيـامـيـنـ الصـمـمـادـ) عـلـىـ مـعـنـىـ الـمـاجـاهـدـةـ وـالـمـنـالـةـ .

ومن معاني (الصمد) الصلابة كما ذكر ابن فارس في المقاييس اذ قال : « الصاد والميم والنال أصلان أخذهما القصد والأخر الصلابة في الشيء » . والذى عنده ابن فارس بالصلابة ، في الأصل ، صلابة المكان ، اتفاقاً : « الأصل الآخر الصمد ، وهو كل مكان صلب » ، وفي التاج « الصمد : المكان المرتفع الغليظ من الأرض » ، ولا يبعد هذا من معنى المصامدة التي تعنى المجالدة .

□ مصدر (صمـدـ) :

ولكن ما القول في مصدر الفعل فهو الصمد أم الصمود ؟ أقول إنكر الدكتور جواد أن يكون (الصمود) مصدراً للفعل ، بل سخر من رأى هنا الرأي . وال الصحيح أن (الصمود)

مصدر لل فعل اللازم كالصمد . قال ابن القوطي في كتابه الأفعال ، وهو الإمام المحقق : « صمدت الى الله صمداً وصموداً ، وأصردت ، بذات» وأردف « وصللت الشيء مصدر الصلت » فمعنى (الصمود) بالفعل اللازم ، وجمل (الصمد) لللازم والمتعلّى . والغريب أن جوادا قد جعل (الصمد) هو المصدر دون الصمود ، لأمر يتصل بدلاته ، فذهب إلى أن ما كان معناه الحركة دون السكون ف مصدره (الفعل) بسكونه المبين . قال جواد : « وللظاهر أن هذا الذي ابتدع الصمود حسبه بمعنى الثبات ، فاطال مصدره كالمilos والقعود ... وفي قصر مصدر الفعل صمد ، دليل على أنه يعني الحركة لا السكون ، والتقدم لا الوقوف » .

والذي ذكره الآئمة كالرازي أن الأصل فيما جاء على (فعل) بالفتح من الأفعال إن يكون مصدره (فعلاً) بسكون العين إذا كان متعلّى ، و (فعلاً) إذا كان لازماً . وفشل الإمام الرضي فتطرق في شرح الشافية (١٥٣/١) إلى دلالة الفعل فقال : « قوله الفالب في فعل ، بفتح العين ، اللازم ، على فعل ، ليس على إطلاقه ، بل إذا لم يكن للمعنى التي تذكرها بعد ، من الأصوات والأدوات والاضطراب » ، وأردف « ثم نقول : الأغلب الأكثر في غير المعنى المذكورة أن يكون المتعلّى على فعل بسكون العين ، من أي باب كان ، نحو قتل قتلاً وضرب ضرباً وحمد حمداً ، وفعل بفتح العين اللازم على فعل نحو دخل دخولاً » . وليس (الصمد) الذي نحن في سبيله من أفعال الأصوات والأدوات والاضطراب ليفرد بوزن مصدري خاص ، فالأغلب إذاً أن يكون (الفعل) مصدرأ لللازم منه و(الفعل) مصدرأ لمتعلّى .

وهذه (نهض ودبّ ونهد) فهي من أفعال (الحركة) على حد تعبير جواد مثل (صمد) وهي لازمة ، ومصادرها النهوض والدلوف والن فهو وهكذا (ذهب) نقول : ذهب ذهاباً وذهبها . فقد جاء في التوازير (٢ / ٢٢٦) لأبي مسحل الأعرابي : « ويقال في ثلاثة من المصادر : ذهب ذهاباً وذهب ياوكسدكساداً وكسوداً وفسداً وفسوداً ، وزاد ابن خالويه : صلح صلاحاً وصلحها » ، ثبت بذلك أن لا صلة بين مصدر الفعل فعلاً أو فعلاً ، وبين دلالته على الحركة أو السكون . ولو أتي جواد المسالة من وجهها وما تأهلاً لفتح له الأمر واستبعده الطريق .

□ مصدر نسج :

وما نحن فيه قول الكتاب (النضوج) وهو مستقيم لو صح ما تصوروه من أن فعله (نسج) بالفتح ، ولم يسم ، فالذي حكمه الماجم (نسج) بالكسر . فلا سند لهذا المصححة قولهم (النضوج) قياساً ، لأن القياس هو (النسج) بالتعريف للزهوم الفعل . أما المحكي من مصادره فهو (النسج) بفتح فسكون وضم فسكون و (النسج) بفتح النون والمصاد . وفي المصباح : « نسج اللحم والفاكهه بالكسر نسجاً بفتحتين ، من باب تعب ، والاسم النسج بالضم ، والمفتح لفته » .

وعندي أن (النضج) بالضم هو الاسم، أما (النضج) بالفتح فهو المصدر، وليس الاسم . وقد رأى سيبويه وابن جني مثل هذا حين اعتدنا (العرد) بفتح فسكون مصدراً لـ (حَرَدَ) بالكسر . ذلك أن الصفة قد أتت على (ناضج) و (نفسيج) ، ومجيء ناضج من نضج بالكسر ، كما قيل حارد من حَرَدَ بالكسر ، ومصدره (العرد) بفتح فسكون . وقد جاء على التعرير فقيل (العرد) بفتحتين ، كما قيل (النضج) بفتحتين . وقد نص التهذيب واللسان والتاج على أن (النضج) بالضم ، هو الاسم .

وقد عرض الأب أنتاس ماري الكرملي لهذا ، في مجلة مجمع اللغة العربية يمشق لشهري آذار ونisan من عام ١٩٤٥، فقال : « .. ويقال أيضاً النضج بفتح فسكون والنضج بضم فسكون ، وهذا اسم مصدر » أقول إن الاسم هو (النضج) بالضم ، دون (النضج) بالفتح . وقد ذكرنا أن مجيء الصفة على (ناضج) يؤكّد اتفاق مصدر النضج بالكسر على (النضج) بفتح فسكون . وهكذا تواءم (ناضج) صفة و (نضج) مصدرًا بفتح فسكون ، فاقتضى كل منها الآخر ، و (فاعل) من (فعل) بالكسر إنما هو صفة للمتدعي في الأصل ، كما أن (الفعل) بفتح فسكون مصدر له ، وكلها قيام .

وببيان ذلك أن الأصل في (فعل) بالكسر إذا كان لا زما إلا يكون منه (فاعل) ، فإذا سمع منه (فاعل) فقد شبه بالمتدعي وحمل عليه ، وكذلك (فعل) بفتح فسكون فالالأصل أن يكون مصدرًا للمتدعي دون اللازم ، فإذا سمع مصدر الفعل لازم فقد حُمل على المتدعي وشبه به أيضًا ، فمجيء ناضج صفة من نضج اللازم قد واعم مجيء النضج بفتح فسكون مصدرًا له واقتضاه . قال ابن سيده في المخصوص (١٢٢/١٣) : « فاما سيبويه فقال : حَرَد بالكسر حَرَداً يسكن الراء ورجل حَرَد بفتح فكسر حارد ، أدخله في باب العمل وقولهم حارد دال على ذلك » وأردف : « يعني أنهم جعلوه بمنزلة المتدعي كحده بالكسر حِدًا بفتح فسكون ، والا كان حكمه حَرَد بالكسر حَرَدًا بفتحتين ، لأنه غير متعد كضباعضياً . وقوله حارد دليل على ذلك يعني أنه لو كان على باب ما لا يتعدى لكان حَرَدًا أو حِرَدان كضجر بفتح فكسر وغضبان » ، وقال أيضًا (١٣٤/١٤) : « وقوئي حملهم ذلك على ما يتعدى أنهم قالوا حارد ، وكان القياس في مثله أن يكون حَرَدًا فهو حِرَدان ، كما قالوا غضبًا فهو غضبان ، فآخرجه من باب غضبان بتخفيف العرد وبقولهم حارد . وتخفيف (العرد) بفتحتين معناه تسكين الراء فيه ، وفي المخصوص أيضًا (١٣٤/١٤) : « ومثل العارد يسكن الراء قولهم حمي الشمس تحمي حميًا بفتح فسكون ، وهي حامية » . وقد حكا عن سيبويه بلفظه (الكتاب ٢١٦/٢) .

□ المس والماس :

من الشيخ ابن اهيم البازنجي قول المائل (فلت كنا مسام الحاجة) بكسر الميم ، وقال : « والصواب ليس الحاجة أو لميسها » وأردف : « وأما المس والماس بالكسر فهو مصدر ماسه على فاعل مثل المائل من قاتل » ، وتتابعه كثيرون . قال الأستاذ محمد المعناني في معجمه (الأخطاء الشائعة) : « ويقولون مسام الحاجة بالفتح والصواب مس الحاجة و ليسها » .

ويفهم مما تقدم أن اليازجي قد قصر الصواب في (مس الحاجة) على المس والميس، ومنع قول القائل (مساس الحاجة) بالكسر، وطابقه المدعاني، وأشار كذلك إلى منع (مساس الحاجة) بالفتح.

أقول في الجواب عن ذلك : لا شك أن (المساس) بالكسر هو مصدر (مسّه) بالتشديد، تقول (مسّه ممسّةً ومساساً) كقاتلته مقاتلة وقتلا ، ولكن (مسّه) (يعني) (مسّه) ، وعلى ذلك تقول (مساس الحاجة) بالكسر لستها ومسيسها . قال الزمخشري في الأساس : « مسّه مسّ ومسيساً ، ومسّه ممسّةً ومساساً » فقرن هذا إلى ذلك ولم يفرق . وقال صاحب المصباح « مسّه ممسّةً ومساساً من باب قاتل يعني مسّه » .

وجاء في التنزيل : « قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول : لا ممساس - طه / ٩٧ ، بكسر الميم وفتح السين . قال أبو حيان الأندلسى في البحار المحيط : « وقرأ الجمهور لام مساس بفتح السين والميم المكسورة ، ومساس مصدر ماس ، كقاتل من قاتل .. أي لا تمسّنى ولا أمسّك » ففسر (لا ممساس) بالقول (لاتمسّنى ولا أمسّك) . وقال المرزوقي في شرح العماسة (١٤١٥) : « مثلي ومثلك من مساس حاجتي إليك وتناولني رغبتي في حوصلك والنيل منك ... » فجاء بما أنكره اليازجي والمدعاني وكثيرون ، وتكرر ذلك منه (من / ٣٢٠ و ٩٠٧) .

وفي قوله تعالى « لا ممساس - طه / ٩٧ » قال الإمام البيضاوي في تفسيره : « لا ممساس بكسر الميم . وقرأه لا مساس بفتح الميم كفجار ، وهو علم للمسّة » فمساس بفتح الميم اسم يدل على ما يدل عليه المصدر ويجري عليه من الأحكام ما يجري على بعض الأعلام من البناء أو النفع من الصرف تحويلة غير معروفة بمعنى البررة وفجّار مبنيا على الكسر بمعنى الفجور » . وقال الزمخشري في الأساس : « ويقال لا ممساس بكسر الميم ولا مساس بفتحها » . وفي اللسان : « ولام مساس بفتح الميم أي لا تمسّنى » . وفي شرح العماسة للمرزوقي (٢٢٢) في شرح قول يزيد بن الحكم :

مسينا من الآباء شيئاً وكانتنا إلى حسب في قومه غير واضح

« وقول مسينا يجوز أن يكون : أصينا واحتبرنا ، لأن المس باليد قد يقصد به الاختبار . ويجوز أن يكون بمعنى طلبنا . وقد قال بعض الناس في قوله تعالى : لا يمسّه إلا المطهرون ، إن المعنى : لا يطلبه فمن الأول قوله مسّه الكبير ، وأفضى الرجل إلى أمراته اضطرام : مسيس ، ومن الثاني : مساس الحاجة . فاما قوله : به من جنون فيصيغ أن يكون من الأول ومن الثاني جميعاً » فاتى بمساس بفتح الميم في قوله : (مساس الحاجة) . وجاء في خطبة شرح الشافية ، قال الإمام الرضي : « فان الشرح قد اقتصروا على شرح مقدمة الاعراب ، وهذا مع قرب التعریف من الاعراب ، في مساس الحاجة إليه » . فاتى بمساس بفتح الميم أيضاً .

المصادر واشتقاق الفعل

الأصل في الأفعال أن تنتزع من أسماء الأعيان . قال ابن مالك في التسهيل: «ويطرد صوغ فعل من أسماء الأعيان لاصبتها: نحو جَلَّهُ ورَأْسَهُ، أو اتَّالَّهُ: نحو شَعْمَوْلَمْهُ أي بَطْعَمَهُ ذَلِكَ، أو عمل بها: نَعْوَرْمَحَهُ وَسَهَمَهُ أي اصَابَهُ بِالرَّمْحِ وَالسَّهَمِ» . فقد قال العرب جَلَّهُ إذا أصاب جلدَهُ وَرَأْسَهُ إذا أصاب رأسَهُ، وكَبَدَهُ وَدَمَنَهُ وَأَنْفَهُ وَنَاهَهُ وَمَمَدَهُ، إذا أصاب ما سُنِي بهذه الأحرف من الأعضاء، ومن ذلك رأه إذا أصاب رئته، فاشتقوا بذلك من اسم العين الثلاثي . وقالوا حصاه إذا ضربه بالعصى، ودَبَرَهُ إذا تلا دبره ، وحنك النَّادِيَا إذا جعل الرسن في حنكها ، وأَسَدَ الرَّجُلَ إذا أشَبَهَ الأَسَدَ ، وَتَسَ الجَدِيَ إذا صار كالتيس .

وقالوا عَسَلَهُ إذا جعل فيه العسل فَمَلَأَهُ مَجَازًا . ففي الحديث «إذا أراد الله بعده خيراً عَسَلَهُ» ، قال صاحب النهاية «العسل يسكن العين طيب الثناء مأخوذ من العسل بفتحتين» .

ويقال بدر الفلام إذا تم واستدار تشبيهاً بالبدر في تمامه وكماله، كما في النهاية وقال الراغب في مفرداته «... والأقرب عندي أن يجعل البدر أصلًا في الباب ، ثم تعتبر معانيه التي تظهر منه ، فيقال تارة بدر كذا أي طلع طلوع البدر» . وقال الفسوسي: «سمّوهم يقولون ما أحب أن تشوّكك شوكة» وقال الكسائي: ما أحب أن تشيك شوكة ، وهما لفتان » . (النواود لأبي مسحٌل ٢-١٦٦) . وتقول عصوته بالعصا وسلطه بالسوط وهوته بالهراء ورحمته بالرمض ونبته بالنبل إذا طعنَه ورمَاه (١٧٢/٢) .

واشتقوا من الثلاثي المزید بحذف الزائد فقالوا : هنا لحيته إذا خضبها بالحناء ، لكنهم قالوا حنثها بالتشديد أيضاً . وقالوا الركك الابل تارك إذا لزمت الأبراك ، والأراك شجر من الحمض يستاك بقضبانه ، والواحدة أراكه .

واشتقوا الثلاثي المزید من اسم العين الثلاثي فقالوا : تابل إذا اتغدَ الابل وتأرض إذا لصق بالأرض وتخشب صار كالخشب ، وهكذا تعبَر من العبر . وقالوا تامَد واستآسَد ، من الأسد ، كما قالوا تليَّث اذا شبه الليث في جرأته وقادمه ، وقالوا تمزَّن على قوته اذا تفَضَّل عليهم من المزن أي السحاب .

ويقال أرض مخلة فيها خلَّة .. ومرُوَّضة كثيرة الرياحين ومُعْشبة كثيرة المشب . وعاشرية ذات عشب مثل لابن وتمَر .. وأهمله الله لهذا الأمر أي جعله له أهلاً ، وأهمله .. وفلان يمتصي على عصاه أي يتوكا ، وقالوا استفَيل واستنْتوق واستتيسَنْ واستتسر واستدَاب واستجمل ، من الفيل والنافقة والتيس والنسر والذئب .

واشتقوا من الرباعي فقلوا ثعلب الرجل إذا راغ ، وطحلب الماء إذا علاه الطحلب . واشتقوا من الرباعي المزید فقلوا قرطس الرامي إذا أصاب القرطمان أي الغرض .

وقالوا تنكب التوس اذا القاما على منكبه فاشتقوا بذلك من اسم العين المثقب ،
ومن هذا القبيل قوله : منطق وتمدعاً وتمسلماً وتمسكن ..

وكثيراً (افضل) في اشتقاقهم من اسماء الامكنته فقالوا اهضب اذا دخل الهضبة
وهكذا اصحر وأسهل وأبهر وأبهر وأغرب وأعرق وأيمن وأعنان وأحرم اذا دخل العمـر
وأضاف اذا أتى السيف بالكسر ، وهو ساحل البعـر .

وكثير (افضل) كذلك في اشتقاقهم من اسماء الأزمنة فقالوا اربع وأصفاف وأخرف
وأشتني وأفجر وأظهر وأعصر وأصل ..

واشتقوا من اسماء الأصوات فقالوا من التعـيق والخـير والـصـهـيل والـحـسـيس والـأـزـيز
والـصـرـير والـأـنـين والـزـئـير والـفـجـيج والـطـنـين والـهـزـيم والـعـوـام والـبـيـاج والـخـوار والـشـفـام ..
نقـ وـ خـ وـ صـهـل وـ حـسـ وـ اـزـ .. ولـ يـسـتـ هـذـهـ مـصـادـرـ الـأـفـعـالـ فـيـ الـأـصـلـ وـ اـنـاـ مـيـ
أـسـمـاءـ لـلـأـصـوـاتـ حـاكـواـ بـهـاـ أـصـدـاءـ الـطـبـيـعـةـ مـذـ كـانـتـ الـلـفـةـ فـيـ طـرـاعـةـ سـنـهاـ وـ حـدـاثـةـ نـشـاطـهاـ،
وـ كـانـ اـنـصـالـ الـإـنـسـانـ بـالـطـبـيـعـةـ اـتـصـالـ لـاـ اـنـفـصـامـ لـهـ، تـبـثـقـ اـدـاتـهـ فـيـ التـبـيـعـ مـنـ اـصـدـانـهـاـ
وـ اـحـدـانـهـاـ، يـرـعـيـ اـذـنـهـ فـيـسـقطـ حـرـكـاتـهـ اوـ يـذـكـيـ الـغـاطـرـ فـيـرـصدـ سـكـنـاتـهـاـ ..

ولـ كـنـ اـذـ صـ اـنـ الـأـفـعـالـ فـيـ الـأـصـلـ اـنـتـزـعـتـ مـنـ اـسـمـاءـ الـأـعـيـانـ، وـ كـانـ الـأـمـرـ عـلـىـ
هـذـاـ جـارـيـاـ، فـمـاـ تـأـوـيـلـ قـوـلـ اـبـنـ جـنـيـ فـيـ اـخـصـائـصـ (٤٢٣/٢) : « اـشـتـقـاقـ الـعـربـ
مـنـ الـجـوـاهـرـ قـلـيلـ جـداـ، وـ اـلـأـكـثـرـ مـنـ الـمـصـدـرـ »، وـ قـوـلـ السـيـوطـيـ فـيـ الـمـزـهـرـ (٢٠٣/١)ـ طـ ..
المـكـبـةـ الـأـفـزـهـرـيـةـ) : « وـ الـتـاسـعـ كـوـنـ الـأـصـلـ جـوـهـرـاـ وـ الـآـخـرـ عـرـضاـ لـ يـصـلـعـ لـ الـمـصـرـيـةـ ،
وـ لـ شـانـهـ أـنـ يـشـقـ مـنـهـ، فـانـ الرـدـ إـلـىـ الـجـوـاهـرـ حـيـنـتـ أـلـىـ لـأـنـهـ الـأـسـبـقـ ، فـانـ كـانـ كـانـ مـصـدـراـ
تـعـيـنـ الرـدـ إـلـيـهـ، لـأـنـ اـشـتـقـاقـ الـعـربـ مـنـ الـجـوـاهـرـ قـلـيلـ جـداـ وـ الـأـكـثـرـ مـنـ الـمـصـادـرـ » ..

أـقـوـلـ لـاـ شـكـ اـذـ نـظـرـ إـلـىـ اـشـتـقـاقـ الـفـعـلـ بـمـلـعـظـ (ـ نـشـوـنـيـ)ـ فـانـ اـسـمـاءـ الـمـعـسـوسـاتـ
كـالـجـوـاهـرـ اوـ اـسـمـاءـ الـأـعـيـانـ، هـيـ الـأـصـلـ فـيـ هـذـاـ اـشـتـقـاقـ فـهـيـ الـأـشـيـاءـ التـيـ تـتـنـاـوـلـهـاـ
الـعـوـاسـ قـبـلـ اـنـ تـنـتـهـيـ مـلـلـوـلـاتـهـاـ إـلـىـ اـقـافـ الـنـفـسـ. لـكـنـكـ اـذـ اـعـتـبـرـ كـلـ الـأـنـثـمـ وـ جـلـدـتـ
هـنـمـ قـدـ نـحـواـ فـيـ اـشـتـقـاقـ الـفـعـلـ مـنـعـيـ آخـرـ، ذـلـكـ اـنـهـمـ لـعـقـلـواـ اـنـ الـمـصـرـ الصـقـ بـالـفـعـلـ مـنـ
جـيـثـ بـنـاؤـهـ وـ مـاـ يـعـتـرـيـ هـذـاـ الـبـيـانـ وـ مـاـ يـعـتـرـهـ مـنـ الـأـتـيـاعـ وـ الـإـدـالـ وـ الـقـلـبـ وـ الـأـعـلـالـ ،
فـقـرـنـواـ هـذـاـ إـلـىـ ذـاكـ ، لـأـنـ كـلـاـ أـشـبـهـ بـصـاحـبـهـ مـنـ حـيـثـ كـيـانـهـ وـ مـاـ يـمـكـنـ لـهـ فـيـ
الـتـصـرـيفـ . وـ مـلـعـظـهـمـ هـذـاـ مـلـعـظـ (ـ صـرـيـ)ـ (ـ لـاـ نـشـوـنـيـ)ـ ..

وـ قـدـ ذـهـبـ الـدـكـتـورـ صـبـحـيـ الـصـالـحـ فـيـ كـتـابـهـ (ـ درـاسـاتـ فـيـ فـتـهـ الـلـنـجـ / ١٩٩ـ)ـ إـلـىـ
اـنـ الـأـنـثـمـ قـدـ بـنـواـ مـذـهـبـهـ فـيـ رـدـ الـأـفـعـالـ إـلـىـ الـمـصـادـرـ ، عـلـىـ اـعـتـقـادـ وـجـودـ اـسـمـاءـ الـمـانـيـ
قـبـلـ اـسـمـاءـ الـأـعـيـانـ ، وـ هـوـ مـحـالـ ، وـ مـنـ ثـمـ وـجـبـ رـدـ الـأـفـعـالـ فـيـ نـشـاطـهـاـ إـلـىـ اـسـمـاءـ الـأـعـيـانـ.
قـالـ الـدـكـتـورـ الـصـالـحـ «ـ اـنـ الـبـدـاهـةـ تـقـضـيـ بـوـجـودـ اـسـمـاءـ الـأـعـيـانـ الـمـاـشـاهـدـةـ الـمـرـئـةـ التـيـ
تـنـاـوـلـهـاـ الـعـوـاسـ ، قـبـلـ اـسـمـاءـ الـمـانـيـ. لـذـلـكـ كـانـتـ اـسـمـاءـ الـأـعـيـانـ ، هـيـ اـصـلـ اـشـتـقـاقـ دـوـنـ
الـمـصـادـرـ .. كـيـفـ وـقـدـ اـمـتـلـاتـ مـاـجـمـنـاـ وـكـتـبـنـاـ الـلـغـوـيـةـ بـمـاـ لـيـسـعـيـ مـنـ الـجـوـاهـرـ التـيـ
تـفـرـعـتـ عـنـهـ اـسـمـاتـ وـ الـأـحـوـالـ وـ الـمـصـادـرـ وـ الـأـفـعـالـ .. أـقـوـلـ لـمـ يـسـبـقـ اـلـ اـعـتـقـادـ الـأـنـثـمـ

أن المصادر قد وضعت قبل أسماء الجواهر البتة ، وهذا حالهم حين قللوا الاسم قبل الفعل ، فانظر الى ما قاله ابن جني في الفسانين (١/٤٢٩ - ٤٢٢ م - ١٩١٣) : « وإنما يعني القوم يقولون أن الاسم أسبق من الفعل أنه أتوى في النفس ، وأسبق في الاعتقاد من الفعل ، لا في الزمان ٠٠ فاما الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدموا الاسم قبل الفعل ، ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل في الوضع قبل الاسم ٠٠ » والردف « فإذا رأيت بعض الأسماء مشتتاً من الفعل ، فكيف يجوز أن يعتقد سبق الاسم لل فعل في الزمان ، وقد رأيت الاسم مشتتاً منه ، ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه » وانتهى من ذلك الى القول « وأيضاً فإن المصدر مشتق من الجواهر كالثبات من البت و كالاستعجار من العجر ، وكلها اسم ٠٠ » .

وهكذا ذهب ابن جني الى أن المصدر ، وهو الأصل في اشتراق الفعل عند البصريين قد انزع من الجواهر . وحين بحث الآئمة أسماء الأعيان وأسماء المعناني أيهما أسبق في النشأة وأوغل في القدم قدرروا أن الأعيان في الموارثة هي المتقدمة ، والمعناني هي المتخلفةحقيقة وأصلاً . فانظر الى ما ذهب اليه السكاكي في كتابه مفتاح العلوم ، فقد جمل الكلم المستقرة نوعين : الأول ما يشهد التأمل بتقدمه في باب الاعتبار والثاني ما جاء بهخلاف ذلك ، وهو المتخلف ، فسلك في المقدم (الجواهر) اي الجواهر ، وفي المتخلف (الأفعال وما يتصل بها من الأسماء) أسماء المعناني والصفات . بل أكد أن أكثر ما يتصل بالأفعال من الأسماء هو فرع من الأفعال ، وأردف « الا المصدر عند أصحابنا البصريين ، رحهم الله ١٤ » فانهم يعتقدون الفعل فرعاً عليه . وهو لم يشايعهم فيما انتبه وقرروه ، بل جاز مجاز الكوفيين في مخالفة البصريين ، وذهب مذهبهم وجرى مجرياً فاعتدى المصدر فرعاً على الفعل .

لم يكن كلام الآئمة أقل وضوحاً وأدلى دقة وجلاء حين يعنوا الجواهر والعرض فلم تتم عليهم معرفة في ذلك ، أو تستتر حقيقة . فانظر الى ما حکاه السيوطي في (الأشباه والنظائر / ١٦٨) عن (الايضاح في علل النحو للزجاجي) : « قد عرفناك أن الأشباه تستبعق المرتبة والتقديم والتأخير على ضرورة فتحكم لكل واحد منها بما يستحقه ، وإن كانت لم توجد إلا مجتمعة . لا ترى أنا نقول أن السواد عرض في الأسود ، والجسم أقدم من العرض بالطبع والاستحقاق . وإن العرض قد يجوز أن يتوجه زائلاً ، والجسم باق ! فنقول أن الجسم الأسود قبل السواد ، ونعنل نر الجسم خالياً من السواد الذي هو فيه ، ولا رأينا السواد قط عارياً عن الجسم ، بل لا يجوز رؤيته لأن المرئيات إنما هي الأجسام الملونة ، ولا تدرك الألوان خالية من الأجسام ولا الأشياء غير ملونة » .

المصدر والفعل

البصريون والكوفيون على خلاف في أصل الاشتراق . فقد أكد البصريون أن الفعل فرع على المصدر في الاشتراق ، على أن من هؤلامن رد المفاتح الى المصدر أيضاً ، ومنهم من ردوا الى الفعل . وحالهم الكوفيون فاكيدوا أن الفعل هو الأصل والمصدر هو الفرع . قال سيبويه في الكتاب : « وأما الفعل فامثلته أخذت من لفظ أحداث الأسماء .

والأحداث نحو الضرب والقتل والعدم . «فجمل أحداث الأسماء وهي المصادر الأصل في الاشتقاد وقال ابن جني في الخصائص (١٤٧/١) : « و اذا ثبت امر المصدر الذي هو للأصل ، لم يتخالج شك في الفعل الذي هو الفرع » فاعتد المصدر هو الأصل والفعل هو الفرع . على انه رد الصفات الى الفعل فقال (٤٣٢/١) : « .. قيل يمنع من هنا اشياء منها وجودك أسماء مشتقة من الأفعال، نحو قائم من قام ، ومنطلق من انطلق ، الا تراه يصح لصحته ويعتل لاعتلاله نحو ضرب فهو ضارب وقام فهو قائم وناوم فهو مناوم ». ولكن ما حجة البصرىين في أصلية المصدر وفرعية الفعل ٩ .

الاشتقاق عند البصرىين هو اقتطاع فرع من اصل يدور في تصرفاته الأصل . ويراد بالأصل هنا العروض الموضعية على المبني وضمنا اولياً . فالفرق لنظر فيه تلك العروض مع نوع تغير ، يتضمن اليه معنى زائد على الأصل . فالضرب يدل بلفظه على العركة المعلومة المسماة بهذا الاسم وحدها فهو الأصل، أما ضرب ويضرب وضارب ومضروب فهو الفرع ، ذلك أن فيه حروف الأصل وهي الضاد والراء والياء ، وزيادات لفظية ، وهو ينطوي بهذه العروض والزيادات على معنى الأصل وهو الضرب ومعنى آخر ، وهكذا يبني البصرىون رأيهم على أن الفرع ما كان فيه معنى الأصل مع زيادة هي غرض الاشتقاد .

وقد أيد البصرىين فيما ذهبوا اليه ، واقتاسوا بهم ، وجرى على منهاجهم كثير من الآئمه ، وفي مقمة هؤلاء ابو البركات ابن الأبيباري (ت ٥٥٧٧ م) في كتابه (الأنصاف في مسائل الغلاف بين البصرىين والковيين) وأبو البقاء عبادة بن الحسن بن عباده العكبرى (ت ٦٦٦ م) في كتابه (التبين في مسائل الغلاف بين الكوفيين والبصرىين) ولم يبق من هذا الكتاب الا نثول جاءت في بعض كتب الخلف ، ومنها كتاب (الأشباه والنظائر) للسيوطى اذ جاء فيه (١٢٨/١) : قال أبو البقاء في التبين : التدليل على أن الفعل مشتق من المصدر طرق ، منها : وجود حد الاشتقاد في الفعل ، وذلك ان الفعل يدل على حدث زمان مخصوص فكان مشتقاً فرعاً على المصدر ١٠ وتحقيق هذه الطريقة أن الاشتقاد يراد لتثثير المانى ، وهذا المعنى لا يتحقق الا في الفرع الذي هو الفعل ، وذلك أن المصدر له معنى واحد ، وهو دلالته على الحديث فقط ، ولا يدل على الزمان بلفظه ، والفعل يدل على الحديث والزمان المخصوص فهو ينزله اللفظ المركب فإنه يدل على أكثر مما يدل عليه المفرد ، ولا تركيب الا بمداد الأفراد ، كما أنه لا دلالة على الحديث والزمان المخصوص إلا بعد الدلالة على الحديث وحده ١١ ، وأردد : « وطريقة أخرى وهي أن تقول : الفعل يشتمل لفظه على حروف زائدة على حروف المصدر، تدل تلك الزيادة على معانٍ زائدة على معنى المصدر ، فكان مشتقاً من المصدر ١٢ وملعون أن ما لا زيادة فيه أصل لما فيه الزيادة ١٣ » .

وقال يقول البصرىين كثير من المحدثين ومنهم الأستاذ عبادة أمين ، كما جاء في مجلة مجمع اللغة العربية القاهرى (٣٨٢/١) ، وقد استند في ذلك الى أن الأبيباري صاحب الانصاف قد ساق في المسألة آراء كل من المجانين ووازن بينها فلم يدع مقلاً لتأثيل ، وقد خلص الى الأخذ بمقالة البصرىين . قال الأستاذ أمين : « المبحث الأول في أن أصل

الاشتقاقات المصدر ، كما قال البصريون ، لا الفعل ، كما قال الكوفيون . واد كان الامام الجليل كمال الدين أبو البركات ابن الأنباري النعوي ، رضي الله عنه ، قد ساق في المسألة الثامنة والشرين ، في الصفحة الثانية بعد المائة ، من كتابه المسمى ، الانصاف في مسائل الغلاف بين التحويرين : البصريين والكوفيين ، آراء البصريين والكوفيين في أصل المشتقات ووازنها بينها ولم يدع فيما جاء به مقالاً للثالث ، فاني اكتفي في هذا المبحث بما كتب ونقلت عنه وعولت عليه ومن مؤلام الدكتور صبحي الصالح ، اذ رأى في ذلك رأي البصريين وتزعم متزعهم واستن بستنهم . فقد استشهد بما جاء في (أصول التحو) للأستاذ سعيد الأفغاني . قال الأفغاني : «المصدر يدل على حيث وزمن ، والأساء المشتقة تدل على حدث وزمن وزيادة ثالثة كالدلالة على الفاعل والمفعول » .

أقول لم يزد الأفغاني على أن جاء بمقالة البصريين القائمة على أن الفرع ما كان فيه الأصل مع زيادة هي غرض الاشتراق . فالمصدر هو الأصل لأنه يدل على العدد مطلقاً والفعل هو الفرع فقيه ما في المصدر من العدد وزيادة هي الدلالة على الزمن المعن . و كذلك الوصف فالوصف فرع على المصدر كال فعل . وقيل بل الوصف منطلو على ما في الفعل من حدث وزمن وزيادة هي الدلالة على الموصوف ، فهو فرع على الفعل ، فال فعل فرع وأصل ، وعليه السيرافي وابو علي الفارسي وابن جني .

وقصاري ما هناك اذا جرينا مجرى البصريين في قضية الاشتراق من حيث تعريف (الفرع) المشتق منسويا الى (الأصل) المشتق منه بانه (مادر على ما دل عليه الأصل وزيادة) انتهينا الى ما انتهوا اليه ، فعلى هذا مدار الكلام ومتصرفة ، ولكن هل ثمة ما يجب اعتبار هذا التعريف الحقيقي بالضرورة ، والاقتداء به والانتصار له ، اليس هناك موقف فسحة وسعة اخلق بالايثار وآخر بالاختيار ؟

قال الأستاذ الشيخ حسين والي عضو المجمع (٢٠٢/٢) : « رجعوا ما رأى أهل البصرة من أن المصدر هو الأصل ، بعجة إن شان الفرع أن يكون فيه ما في الأصل وزيادة ، وهي أقوى ما عندم من العجب ، مع أنه لا يقوم برهان يؤيدها ، ولو قام برهان كذلك لأكره عقول أهل الكوفة على قبوله ، حتى يرجعوا عن جعلهم المصدر ، الذي لا يدل إلا على العدد فرعاً من الفعل ، الذي يدل على العدد والزمان المعن . فان في ذلك زيادة الأصل على الفرع . فالمسألة ظن واجتهاد ، وبعض الظن والاجتهاد أولى من بعض » .

و جاء في شرح الأشموني على الفية ابن مالك (٢٥١/٢) : « وكونه اي المصدر اصلاً في الاشتراق لهدين اي لل فعل والوصف هو مذهب البصريين ، وخالف بعضهم فجعل الوصف مشتقاً من الفعل فهو فرع الفرع ، وذهب الكوفيون الى أن الفعل أصل لها ، وزعم ابن طلحة أن كلما من المصدر والفعل أصل برأسه ، ليس أحدهما مشتقاً من الآخر » ، وأردف : « وال الصحيح مذهب البصريين لأن شان الفرع أن يكون فيه ما في الأصل

وزيادة ، والفعل والموصى مع المصدر بهذه المثابة ، اذ المصدر انما يدل على مجرد الحديث وكل منها يدل على العد وزيادة » .

وقد عقب على ذلك الامام الصبان فقال: « قوله لأن من شأن الفرع أن يكون فيه الأصل وزيادة .. ما هنا ليس كذلك ، أفاده الدنوشري .. وقد ناقش قولهم أن من شأن الفرع الزيادة على اصل بأنه لا يرهان يقتضي ذلك » .

فإذا نحن لم نخلد الى التعريف اللغظي للفرع والأصل ، في مقالة البصريين ، وفرعننا الى تعريف حقيقي يكون للسامية فيه تحقق وثبت ، كان يقول « الأصل ما سبق تصوره وقيامه في الذهن » ، كان التعريف اليق ب الواقع اللغوي . وإذا كان المدرك الحسي أسبق الى الذهن من المدرك المعنوي ، وأجهان الأعيان أسبق من أجسام المعنوي ومنها المصادر ، كان المصدر الدال على المسمى والجنس والمطلق مختلفاً عما يمكن تصوره من أسماء الأعيان وما انتزع منها من أفعال واشتق من هذه من صفات ، وما صح انه الأسبق هو الأصل .

قال ابن جني في الخصائص : « درجة المشتق: منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه » .

وأشار الكوفيون الى نحو من هذا فقاتلوا ان المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن فعل فاعل ، والفعل وضع له ، فعل يفعل ، فيتبين أن يكون الفعل الذي يعرف به المصدر أصلاً للمصدر . أما احتجاجهم بأن المصدر يمتد باعتلال الفعل ، والاعتلال حكم تسبقه عليه ، فإذا كان الاعتلال في الفعل أولاً ، وجب أن يكون أصلاً ، وكذا قولهم بأن الفعل يعمل في المصدر كقولك ضربته ضرباً ، والمؤشر أقوى من المؤشر فيه ، والقوة تجعل القوي أصلاً لغيره .. أقول احتجاجهم بهذا وذلك احتجاج اعتباري لا يكاد يقت فيه الجدل على وجه يخلد اليه بيقين .

وقد بحث المسالة الدكتور مصطفى جواد عضو الجمع العلمي العراقي ، رحمة الله ، في كتابه (دراسات في فلسفة اللفظ والنحو والصرف) فناقش وزان وكايل وأدى بمحاججه وانتهى من بحثه الى الأخذ بمذهب الكوفيين ، واستدل على صحة دعواه بثلاثة عشر دليلاً فقال « هذه ثلاثة عشر دليلاً تنتقض دعوى سببوبه أن الفعل صادر عن المصدر ، وهي أدلة نحن اهتمينا إليها ولم يقت عليها الكوفيون وغيرهم » .

أقول اني لأستشرف دعوى جواد هذه ، فإذا كان قد أصاب في ذهابه بمذهب الكوفيين وقياسه قياسهم فإن جل ما جاء به من الأخطاء على سداده واستقامته ، اصطلاحي اعتباري . ويكاد يكون أظهر هذه الأدلة أن الفعل تبصيده المصدر تجريدي والمعنى أسبق الى الذهن من المجرد ، وليس هذا جديداً كما أوضحته ، وكذلك قوله انك تكتب ثم تسمى فعلك الكتابة وهو ما صرخ به الكوفيون حين ذكروا أن المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن فعل فاعل . فليس صحيناً أنه قد تفرد بما ساق من الأدلة فاتى مبتكاً ، بما لم تفتح المسين على مثله ، أو نزع مقترحاً ، الى ما لم يسبق اليه سابق أو ينazuه فيه منازع .

وتتابع السكاكي أبو يعقوب (ت ٦٢٦ م) في (مفتاح العلوم) الكوفيين فاقتام بهم .

وطنيء مواقع أقدمهم واعتذر لأصالة الفعل بـأن المصدر يتبع الفعل في اعلىه وتصحيفه، وللليل السكاكي هذا اعتباري اصطلاحي .

على أن ثمة منع يوضح الأمر ويجلوه ويكشف عن مكتونه ، ذلك أن اللغات السامية قد اعتلت الفعل أصلاً للاشتغال دون المصدر، كما أوضح ذلك الدكتور إسرائيل ولفسون في كتابه (تاريخ اللغات السامية /١٤) اذ قال « تتميز اللغات السامية في بعض احوالها عن أنواع اللغات الأخرى بسميزات وخصائص تجعل من كل من هذه اللغات كتلة واحدة . وأهم تلك المميزات تنحصر : ١ - في أن هذه اللغات تعتمد على العروض الصامتة وحدها ولا تلتقت إلى العروض الصوتية كباقي الحال في اللغات الآرية ٢ - وأنأغلب الكلمات يرجع في اشتقاقه إلى أصل ذي ثلاثة أحرف ٣ - وانشقاق الكلمات من أصل هو الفعل ٠٠٠ » واردد : « وقدرائي بعض علماء اللغة العربية أن المصدر الاسمي هو الأصل الذي يشتق منه أصل الكلمات والصيغ ، لكن هذا الرأي خطأ في رأينا لأنه يجعل أصل الاشتغال مخالفًا لأصله في جميع أخواتها السامية » .

عزا ولفسون مذهب الأئمة في اعتقاد المصدر أصلًا في الاشتغال ، إلى مجاراهم الفرس فقال : « وقد تسرب هذا الرأي إلى هؤلاء العلماء من الفرس الذين يعيشوا في اللغة العربية بمقلتهم الآرية ، والأصل في الاشتغال عند الآريين أن يكون من مصدر اسمي . أما في اللغات السامية فال فعل هو كل شيء فمهن تكون الجملة ، ولم يخضع الفعل للاسم والضمير بل تجد الضمير مستنداً إلى الفعل ومرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً » .

وقد عالج الأستاذ الأفغاني هذا الرأي فقال : « ثم ذكر هذا المستشرق اليهودي أن هذه نظريته الخاصة ، اذ لم يشر إليها أحد من علماء الأفروننج . ومع رغبته في أن يتم بنظريته هذه اللغة العربية ولغتها العبرية ، يجد بالتأمل الوقوف وعدم القطع ، ما لم يتم عليه البرهان الساطع ، فما أكثر الظواهر التي خالفت فيها العربية أخواتها الساميات »

أقول لا بد للغات عامة أن تتغاير فيعنى ما تقارب منها في أصوله إلى فصيلة واحدة، فالذى يقع فيه التغاير بين فصيلة وأخرى إنما هو القواعد والأصول الأخرى كالبنية اللغوية والاشتقاق ، دون الأشكال والmorphemes . فالذى ذكره أن العربية خالفت بعض أخواتها في أداة التعريف وعلامة الجمع ، كما أورده الدكتور علي عبد الواحد وافق في كتابه (فقه اللغة) والأستاذ محمد عطيه الإبراشي في كتابه (الأداب السامية) ، ولكنها لم تخالفها في البنية اللغوية وطريقة الاشتغال ، كما عتمادها على العروض الصامتة دون الصوتية ، ورد الكلم إلى أصل ثلاثي ، ووحدة الأصل في بنيتها وعدم تعدده كما يعتقد في اللغات الآرية . قال الدكتور علي عبد الواحد وافق في كتابه (علم اللغة / ١٣٢) : « وقد اعتمدنا في التفرقة بين مائتين الفصيلتين - أي السامية والآرية - على أمور تتصل بالقواعد لا بالmorphemes ، وذلك لأن ناحية القواعد هي أممًا متباينة في الفصائل بعضها عن بعض ، فمنها تكون شخصية اللغات ولها ترجع مقوماتها، وهي التي تمثل المظهر الشابت المستقر في

اللغات ، فهي لا تكاد تتغير .. فتشابه لغتين في القواعد يدل ادنى على انتماهما الى فصيلة واحدة ، واختلافهما فيها يدل على اختلاف فصيلتيهما ..

فإذا استقر الأمر على ما بناء ، صح منه أن معايرة العربية لأخواتها السامية إنما كانت في الأشكال والفرع ، لا في القواعد والأصول ، واعتراض اللغات السامية في اشتتقاقها على الفعل ، إنما هو من هذه القواعد والأصول ..

هذا ما رأينا أن تعرض له من مذاهب النعجة وآرائهم في مصادر الأفعال والكشف عن دلالاتها وطرائق جمعها وصيغها وقياسها واشتقاقها واعمالها ، فيما صدقت نيات الأوائل في تعري صوابه وابتلاء حقائقه بالفصح لسان وأبلغ بيان ..

وقد استعننا في البحث بما استقر في هذا الباب من ضوابط وقواعد ، ليقطع في الأمر برأي لا يجوزه تدبر ، ويقين لا خفاء به ولا ارتياه ، هذا وجه مطلبه والوقوع عليه ..

ونحن نعتقد ما بسطنا القول فيه ليفتف القارئ في كل مسألة على ما استبهم من وجوهها واستغلق من احتانها ، فتحتفظ الكلفة عليه في تحصيلها ، ويكون على ثقة من اسماه الرأي فيما تشتبه مذاهب القول في قبوله وردّه ، واشتدت الحاجة اليه في التعبير والاصطلاح ومست في تحقيق المعاني وضبط معاناتها ..

ولا بد في مسائلك البحث هذه من انعام الفكر وانعام الروية ليخلص الرأي من كل شائبة ويفضو من كدر أو معابة ، فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقاتل بظنه وتقليله لا يخالف في رأي أو ينزع في حكم وأرجو أن أكون قد أدرك من بحثي ما أردت فلم أخطئ القصد ..



الساحل السوري بين البر والبحر

أو

من الأسطورة إلى التاريخ

د. محمد حرب فرزات

ونفذ إلى المقر الملكي لأبي السنين ، (القديم)
على أقدام إل انعنى وخر ساجدا ..

* * *

ومضى كوش - حسيس ليبني مقرأ ليم ،
لينشيء قصرا للقاضي نهر ،
وكوش حسيس يبني مقرأ للأمير يم ،
يبني قصرا للقاضي نهر ،

* * *

للم يرد ذكر يم في أي نص آخر من
نقوش أجاريت . ورغم الاختلاف بين
الباحثين في تفسير معنى الاسم ، فالارجح أن
المعنى يرتبط بما ورد في اللغات القديمة
(السامية) حول معنى الكلمة فمعنى اليم
= البحر في العربية هو نفسه في الكلامية ،
وفي المصرية ترد كلمة يم بمعنى البحر أيضاً .
ويُدعى اليم الأجراري يم في الأسطورة
باسم (شوقط نهر) أي القاضي النهر ، وهو
الماء المحيط . أما في الأكادية فاتنا نجد كلمة

١ - مبدأ أساطير الأولين :

تروي أسطورة أجاريته^(١) أن الربَّ
(بعد) إله الأرض والبر توجه إلى (إل) رأس
مجمع الأرباب ليحاول أن يثنيه عن عزمه على
الموافقة على بناء (بيت) قصر يكرس ملكية
(يم) ، يملئه البحر . وربما كان (إثمار) هو
الذي توجه إلى (إل) ليعلن استنكاره الموافقة
على بناء هذا القصر . وكان إل قد أعلن
ارادته ودعا (كوش) إلى القوم إليه وكلنه
بناء قصر ليم .

نُقلت الأسطورة الأجرارية تطورات هذه
المرحلة المرجة من مراحل النزاع على السيادة
في أجاريت بين قوتى البر = بعل ، والبحر
= يم . وفيما يلي نقدم ترجمة لبعض
مقاطع هذه الأسطورة :

بعل والبحر ١
يمضي بعل (أو إثمار) إلى إل ،
إلى منبع الأنهار ،
إلى وسط مجرى المحيط ،
بلغ أجنحة إل ،

تَسْتَوِ ، وَتَيْمَتْ هِيَ الْمِيَاهُ الْمَالَعَةُ ، مِيَاهُ
الْبَحْرِ] .

وَتَتَابِعُ الْأَسْطُورَةُ :

بِمَلِ الْبَحْرِ ٢

بِمَلِ شَدِيدِ الْقَدِيرَةِ يَخَاطِبُ يَمَّ :
لَتَنْتَرِدُ مِنْ عَرْشِكَ الْمَلْكِيِّ ، مِنْ مَقْرَبِ سُلْطَانِكَ ،
[إِلَّا أَنْ يَمَّ يَتَجَاهِلُ (بِمَلِ) يَمِيَّضِي إِلَى هَذِهِهِ ،
وَيَرْسِلُ يَمَّ سَفَارَةً إِلَى مَجْمَعِ الْأَرْبَابِ وَيَأْمُرُ
أَعْصَامَهَا أَنْ يَنْتَلِقُوا إِلَى إِلَّا رَسَالَتِهِ] :

هُمْ امْضَوْا وَلَا تَتَبَاطَلُوا ،
إِلَى الْمَجْلِسِ الْمَجْتَمِعِ تَجْهِيزُوا ، إِلَى وَسْطِ
جَبَلِ لَوْلِي (جَبَلِ الْأَقْرَبِ)
لَا تَخْرُّوا عَلَى أَقْنَادِ إِلَّا !
وَلَا تَسْجُنُوا أَمَامَ مَجْمَعِ الْأَرْبَابِ !
انْتَلِقُوا إِلَى إِلَّا وَإِلَى مَجْمَعِ الْأَرْبَابِ رَسَالَتِيِّ :

مِنْ سَيِّدِكَ الْقَاضِيِّ نَهَرَ :
مِلْمِ يَا إِلَّا مِنْ تَعْبِيهِ !

مِلْمِ مِنْ يَنْتَظِرُهُ الْمَلَأُ ،
مِلْمِ (بِمَلِ) وَأَبْعَامُهُ !

ابْنِ دَجَنِ الَّذِي اسْتَولَتْ عَلَى دَهْبِهِ !
[ثُمَّ عَرَضَ مَيْعُوشُ يَمَّ عَلَى مَجْمَعِ الْأَرْبَابِ
مَطَلَّبَ يَمَّ] :

هُمْ مَيْعُوشُ يَمَّ دُونِ ابْطَاءِ ،
تَجْهِيزُوا إِلَى وَسْطِ جَبَلِ لَوْلِي ،
إِلَى الْمَجْلِسِ الْمَلْتَشِ :

كَانَ الْأَبْنَاءُ الْمَقْسُونُونَ جَالِسِينَ إِلَى مَائِدَةِ الطَّعَامِ ،
بِمَلِ يَقْفَ يَمْوَاجِهَةِ إِلَّا .

مَا أَنْ تَتَبَهَّهُ الْأَرْبَابُ إِلَى قَبْوِ مَيْعُوشِ يَمَّ ،
سَفَارَةُ الْقَاضِيِّ نَهَرَ ،

حَتَّى تَرْكُوا رُؤُوسَهُمْ تَحْنِيَ عَلَى دَكْبِهِمْ ،
وَعَلَى عَرْوَهُمُ الْأَمْدِيرِيَّةِ .

وَنَهَضَ بِمَلِ يَعْثَمُ قَائِلاً :

لَمَذَا ، إِلَيْهَا الْأَرْبَابُ تَرْكُوكُمْ رُؤُوسَكُمْ تَنْخَفِضُ
حَتَّى دَكْبِكُمْ ؟

وَعَلَى عَرْوَشِكَ الْأَمْدِيرِيَّةِ ؟
كَانَ عَلَى أَحَدِ الْأَرْبَابِ أَنْ يَرِدَ عَلَى الْوَاحِدِ
(رَسَالَة) مَيْعُوشِ يَمَّ ،
عَلَى رَسَالَةِ الْقَاضِيِّ نَهَرَ .

قَالَ :

هُمْ ارْغَفُوا إِلَيْهَا الْأَرْبَابُ رُؤُوسَكُمْ فَوْقَ دَكْبِكُمْ ،
فَوْقَ عَرْوَشِكَ الْأَمْدِيرِيَّةِ ،
وَأَنَا سَارِدٌ عَلَى مَيْعُوشِ يَمَّ ،
عَلَى سَفَارَةِ الْقَاضِيِّ نَهَرَ .

وَبَدَأَ أَنْ تَقْدِيمَ مَوْفُدِهِ يَمَّ بِعَطَالِبِ
سَيِّدِهِمْ بِتَسْلِيمِ بِمَلِ ، رَفِضَ بِعْلُ الرَّضُوخِ ،
رَغْمَ رَضُوخِ إِلَّا وَتَنَازَلَهُ ،
[وَتَكَلَّمَ إِلَى مَسْتَجِيبِهِ لِلْمَطَالِبِ الَّتِي حَلَّمُهَا
مَيْعُوشُ يَمَّ قَائِلاً] :

هُمْ سَيْكُونُ بِعَلِ عَبْدِ الْكَمِ !
ابْنِ دَجَنِ سَيْكُونُ أَسِيرُكُمْ !

سَيَعْمَلُ بِنَفْسِهِ إِلَيْكُمُ الْجَزِيَّةُ كَمَا يَحْصُلُهَا سَائِرُ
الْأَرْبَابِ .

سَيَحْصُلُ إِلَيْكُمُ الْهَنْدِيَّا كَالْأَبْنَاءِ الْمَقْسُونِ .
لَكِنْ (بِمَلِ) يَشُورُ غَاضِبًا ،
يَحْصُلُ سَلَاحَهُ الْقَاتِلِ بِيَدِهِ ،
وَسَلَاحَهُ الْمُتَمَرِّ بِيَدِهِ الْيَمِنِيِّ ،
لِيَقْتُلَ الْمَيْوَشِيَّنِ .

وَلَكِنْ عَنَاتٍ تَمْسِكُهُ بِيَدِهِ الْيَمِنِيِّ ،
وَعَشَّتَارَتٍ تَمْسِكُهُ بِيَدِهِ الْيَسِيرِيِّ قَائِلَتَيْنِ :
هُمْ كَيْفَ تَجْرُّوْ عَلَى ضَرْبِ مَيْعُوشِ يَمَّ ؟
سَفَارَةُ الْقَاضِيِّ نَهَرَ .

* * *

[ثُمَّ فِي الْجُزْءِ الْثَالِثِ مِنَ الْأَسْطُورَةِ يَظْهُرُ
بِمَلِ أَسِيرًا وَهُوَ يَفْكُرُ بِالانتِقامِ ، وَيَقْدِيمُ
كُوْشَر - حَسِيسَ الْكَعْكَنِ الَّذِي يَحْتَلُ فِي مَجْمَعِ
أَرْبَابِهِ جَارِيَتِ مَكَانَةً تَعْدِلُ مَكَانَةَ هِيفَا يَسْتَوِنُونَ

في الميثولوجيا الاغريقية ، يوصي إله الفتنون
والصناعة والخر .. يشجع كوثر - حسيس
(بعل) على الثأر ويقدم له السلاح قائلًا :
وكوثر - حسيس يجيب :

« أقول لك أبا الأمير بعل ، أيها الفارس فوق
السحب ،

هذا عنوك يا بعل ،
هذا عنوك فاضربه !
هذا خصمك فاذببه !
مستعد ملكوتك الغالد !
سيادتك الدائمة » .

وأخيرا ينبع كوثر في صنع السلاح الذي
يقدمه إلى بعل ،
لكي يحارب به يم ،
ليطرد يم عن عرشه !
وليسقط نهر عن كرميه !

ـ [ويأمر كوثر السلاح الجديد أن يكون
فعلاً بين يدي بعل ، ومنها تصف القصيدة
الأجارية هذه المعركة العاسفة بين الخصمين
قبل إلقاءه هو عمرو بن بهذه الكلمات] :

ـ لتنطلق من يدي بعل !
ـ كالعصفور المنفلت من بين أصابعه .
ـ أضرب الأمير يم على رأسه !
ـ أضرب الأمير يم على جبهته ،
ـ ينهار يم ،
ـ يسقط على الأرض ،
ـ تضعف مقامله ،
ـ وتختفي صورة وجهه ،

ـ ويجر بعل خصمه الصريع ويقطع أوصاله ،
ـ هكذا يجهز بعل على القاضي نهر .
ـ [بعد هذا الاتصال العاسم تعلن ملكية
ـ بعل وتنادي مشتارات (بعل) باسمه] :

ـ أجعله ببدأ يا بعل القوى ،
ـ أجعله ببدأ يفارس السعب ! ، الأمير يم أسيرنا !
ـ مات يم وعاش بعل ،
ـ أقول حقا !

ـ هذه مقاطع من بعض ما رواه كثاب
ـ أجاري قبل حربالي أربعة وثلاثين قرنا ، مما
ـ كان عندهم من الحق وهو عندي في أيامنا من
ـ الأساطير . فما الحق ؟ وأين الحقيقة ؟ أنها
ـ حقيقتهم الصارخة ، فلين منها حقيقتنا نعم ؟
ـ الحقيقة التي ينبغي أن تتوصل إليها بالبحث
ـ الدقيق والتحقق العلمي المسجل المكتوب .
ـ كيف يمكن أن تعرف ماذا حدث بالفعل وهي
ـ وأين ؟ في أيام طرفة وفي أيام مرحلة من تاريخ
ـ أجاري ؟ كيف يمكن أن تستقرىء هذه
ـ القصيدة الميثولوجية ، وكيف يمكن لنا
ـ الاهتمام إلى معناها الحقيقي بين التفسيرات
ـ المديدة المطروحة على يساط البحث
ـ والدراسة ؟ هذه سلسلة من التساؤلات التي
ـ يمكن أن تجر إلى سلسلة من التساؤلات
ـ الأخرى . . .

ـ هل كان (يم) رمزاً للقوة معتدية خارجية
ـ يحررية واجهت مقاومة (بعل) ، ودفعاه
ـ الباسل عن البر ، عن الأرض حتى استرد
ـ ملكوه بعد فترة عصيبة مرت بها البلاد . . .

ـ أم هل نجد في انتصار بعل على يم
ـ طقساً سحيرياً معبراً عن النعيم بانتصار الملائكة
ـ الجسوريين في مغامراتهم البحرية ، وهم
ـ يقتلون عباب البحر المتوسط ، البحر الكبير ،
ـ عندما كانوا من أوائل من مغر لعجبه وملوّع
ـ آوابجه . . .

ـ هنا مثال على ما خلفته الأجيال الماضية
ـ البعيدة من آثار مكتوبة هي بعض أساطير
ـ الأولين . فكيف السبيل إلى الانتقال من
ـ الأسطورة إلى التاريخ ؟

٢ - رصد الماضي واعادة تكوينه :

بعد أن اتسع نطاق التنقيبات الأثرية في سوريا وبخاصة في المقدود الأخيرة من السنين، بات من الضروري محاولة البحث عن محصلة جديدة للمعلومات التي يمكن استخلاصها من نتائج حملات التنقيب التي تقوم بها كل عام للبعثات الأجنبية والوطنية في عدد كبير من المراکز التاريخية والواقع الأثري في البلاد ، ومن الدراسات اللغوية للوثائق والنصوص المكتشفة منذ أكثر من نصف قرن و حتى اليوم .

اده لا تاريخ بلا وثائق ، والتاريخ بين على الوثيقة؛ فلا يمكن البحث في تاريخ سوريا ولا تفسير هذا المقايرخ دون اتباع النهج العلمي أي بالرجوع الى المصادر والوثائق الفزيرة المحلية والخارجية المتصلة بتاريخ المنطقة وبالمرحلة الزمنية المنية منه .

وأن الكشف الأثري الشخصية التي تمت على أرض سوريا خلال خمسين السنة الماضية لم تؤد الى تغيير الفكرة التقليدية عن دور سوريا في التاريخ بوصفها التقليدي ، أي يكتونها جسراً بين مهد العصارات الرئيسية في بلاد المشرق القديم وحسب ، جزيرة الراذدين ووادي النيل والأناضول ، وواجهة آسية على أوروبا عبر المتوسط وجزيرة قبرص وكريت وغيرها ! .. بل ان هذه الكشف ، وضحت للباحثين المختصين حجم هذا الدور الهام في تلاقى الحضارات وحوالها وتفاعلها وتطورها ... وقدت سوريا بين أقطار المشرق العربي موطنها لأقدم مراكز الاستيطان والاستقرار الحضري منذ العصر الحجري القديم وفي المصود التالية (النهر الكبير الشمالي) ، وأرضاً لاتصال جهود المجتمعات الإنسانية وتجارتها في سبيل التقدم التقني المادي والفكري ، في كل ما يتصل بعمليات مجتمعاتها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً . ولذا فإن سوريا القديمة

تحتل من هنا المنظور في تاريخ الحضارة العام مكاناً يتجاوز حدود منطقة الشرق القديم ليصبح حلقة أساسية في تاريخ الإنسانية كلها . ولذا فإنه ليس من المستغرب أن يعني بتاريخ سوريا القديم في كل بلاد الشرق والغرب ، كما يعني بدوره تاريخ اليونان والروماني وحضارتهم .

منذ أكثر من قرن خرجت إلى النور وثائق فنية وأثرية وشواهد مادية ومكتوبة عن حياة تلك الأجيال القديمة من سكان هذه البلاد . وقد قام في بلاد المغرب عدد كبير من العلماء والباحثين في ميدان الآثار والخلفات والأداب والقانون والتاريخ بتطبيق مناهج البحث المتلورة الخاصة بكل علم من العلوم : شاهدوا ولاحظوا ووصفو ونظموا وصنعوا وفكروا وفسروا وقدموا تقديرات عن جهودهم ومحصلات لأعمالهم العلمية . وقد قلبت هذه الدراسات والبعوث الصورة المتدوالة عن تاريخ المتعلقة من قبل . وملئت ثفرات وفجوات كبيرة . الا أن ما تم انجازه حتى اليوم ما يزال قليلاً ، وأنه من الصعب التصور أن كل شيء أضحى واضحاً الآن ، وأنه من الممكن إعادة مسياحة الماضي كله بالاستاد إلى ما تم كشفه أو المثور عليه .

فالماضي ، التاريخ ، عميق ، عريق تتعمق بداياته بالكشف والبحث كل يوم وتباعد حدوده وتتسع ميادينه دون أن يكون بامتناع الباحثين المختصين في المؤسسات العلمية ومراسيم الباحثين الجامعية في داخل البلاد وخارجها الاحاطة بكل شيء . لأن الأقitemين الدين نبحث عنهم ونريد أن نتعرف عليهم ونحصل بهم لم يتمكنوا لنا كل شيء ، تركوا الكثير الجليل ، ولكن هذا الذي تركوه وما وصل ألينا منه حتى اليوم لا يسعه أن يكون كمحاجزة بمعشرة ملوثة وجميلة من آثار لوجة مظينة رائعة من

القسيسات تبدو ملائج منها في بعض زواياها وجوانبها . ان اعادة تكوينها ورصفها وآخرتها من جديد الى الوجود تحتاج الى عبرية العديد من الدارسين والباحثين التقنيين القديرين الصناع .

ان عملية التاريخ ليست هواية وليس ادبا وحسب ، انها علم وصنعة ، صنعة لها فنونها كما اراد ابن خلدون أن يقول ، وهو لو كان في مصرنا هذا لقال بطريقة تعبيرنا : ان التاريخ علم يل جملة من العلوم ، له منهجه وطريقه المميزة ، وبكلمة قديمة حديثة له تقنياته التي يتحدد دورها العلمي في تصنيف كل ما خلفه الماضي من بقايا مادية وأثار مكتوبة وتحليل هذه الآثار للنفاذ الى الشواهد اي الى الوثائق ، لكنه يكتشف فيها ، ومن خلالها وحسب ، الزمن الذي اندحرت منه وكيف وصلت اليانا .. وبعد هذا التعريف للقيق الطويل للشواهد واستنطاقها لفهم عنها ، يمكن حينئذ استخلاص النتائج في ضوء المعلومات ، وهي الحقائق المتوفرة في حينه ، عندها ، وعندها وحسب يمكن صياغة محصلة البحث ، دون ان يغيب من المؤرخ العصيف تماماً عصر الزمان . اتنا نقترب من الماضي الذي نفهمه ، ونتابع بداياتنا عنه لكنه نصوغه في حدود الموضوعية التي لا يقوم تاريخ بدعونها .

بهذه الطريقة يمكن أن نعرف أكثر عن حياة أولئك الناس ، عن أشخاصهم ومشكلاتهم الصغيرة والكبيرة وأفكارهم وطريقتهم وتقديراتهم الى الحياة فنعرف عندئذ صلة الأجيال بالاجيال لتحمل بجدارة ووعي عبء حفظ التراث القديم ومسؤولية حمايته ونقله ونشره .

هذا هو ميدان هذا التاريخ الذي نود بالتحدث عنه ، ويمكننا أن يكون ، فمن

يكتب للتاريخ ، والتاريخ شهادة رصيدها الصدق ، دون أن يمتلك أدوات الصنعة ومتطلبات الطريقة قد يرتكب دون أن يدرى من الأخطاء المفاجحة ما لا يمكن التعويض عنه أو تصحيحة ، شأنه في عمله وفي رسالته كشان القاضي أمام الحق ، والطبيب أمام قضية الحياة والموت ، وكالمهندس أمام ضميه ، والمصيلاني أمام ميزانه الدقيق .

وبدون وضع هذه الاعتبارات كلها في الحسبان ستجد تاريخينا بعد صياغته في قوالب الغریام من بعض المستشرقين ووفق نظرائهم ومتطلبات ثقافتهم هم ، وقد أعيدت كتابته مرة أخرى بلغة أقرب الى لغة الاساطير منها الى لغة العلم وقواعده المعروفة .

٣ - مشكلات منهجية :

لنر الان الى بعض المشكلات المنهجية التي اسامت الى المبحث في تاريخ بلادنا ، والمنطقة الساحلية هي جزء منها بطبيعة الحال ولا يمكن البحث في تاريخها دون الخوض في تاريخ البلد كلها .

لقد درس تاريخ المنطقة على أيدي المستشرقين في الغرب كما هو معروف وأدى بعض هذه الدراسات على أيدي بعضهم الى تنازع مذهبة ورأيعة ، وهذه حقيقة يجب أن تذكر جهاراً . ولكن البعض الآخر من هذه الدراسات أضاف الى مهمة البحث في تاريخينا مشكلات جديدة لا بد من اخذها بالحسبان ، اعمها ما يتعلق بمصادر هذه الدراسات وتوجهاتها .

١ - يربط معظم الباحثين الغربيين دراسة تاريخ بلادنا بالمصادر التوراتية .

٢ - أدى استخدام بعض المصادر الاغريقية - الرومانية غير الموثوقة في تاريخ

ببلادنا الى مقارنات تعسفية عند تفسير الوثائق
والنصوص القديمة .

وتتمثل المسألة الأولى في ثقل الدراسات
التوراتية التي تشكل عيناً ببالنا فيه على
توجه الدراسات المتعلقة بتاريخ سوريا كلها
وبخاصة المنطقة الغربية الساحلية في الشمال
وفي فلسطين . وقد نشأت هذه الدراسات
وتطورت في إطار المؤسسات الدينية التوراتية
واللغوية العبرية في الفرب . فمعظم الذين
يدأوا بهذه الدراسات هم بالأساس توراتيون
لاهوتيون يعتبرون هذه الدراسات التاريخية
مساعدة للدراسات التوراتية موضوع بعوثهم
واعتقالهم . هذه هي ثقافتهم ، وهذا هو
موضوع دراستهم ، هم يبحثون في موضوع
يهمهم هم في إطار البحث في تاريخهم وفي تاريخ
الحضارات المطلقة به ، وليس ما يكتبهون
تاريخاً لنا فليس منوطاً بالقراءات كتابة هذا
التاريخ . هذه هي الاشكالية الكبيرة في موقف
بعض الباحثين العرب من أعمال بعض
المشترين المتعين ب بتاريخ سوريا وحضارتها .

القد أوجد أولئك ايت مثلاً ، مدرسة
لدراسة تاريخ الشرق القديم من وجهة نظر
توراتية دينية . فلاديان القديمة في هذه
المدرسة تدرس بالمقارنة مع التوحيد اليهودي ،
ولتفسير الظروف التاريخية التي ظهر فيها .
حتى الأساطير تدرس من هنا المنظور ، كما
نجد في أعمال كرووس Cross ، تلميذ
أولبرايت الذي درس الأساطير الكتانية
بالمقارنة مع الملائكة العبرية (٢) .

ومن الأمثلة الصارخة على هذا الربط
واحد من أهم المراجع المتقدمة في تاريخ الشرق
المقديم هو مؤلف بريتشارد الذي ضم دراسات
للتخيّبات هامة من النصوص والشوادر التاريخية
قدمت في إطار دراسة المعهد القديم (٣) .

وعلى هذا النهج نجد أعمال أيسفلد
وييركوف ونوفو ونوت . انه لم المؤسف حقاً
أن هذه الدراسات لم تهتم بدراسة العضارات
بعد ذاتها ، وانما شغلت بشرح وتفسير
مواضيعات لهم الباحثين في التوراة يكونه
الموضوع المركزي . فقد ادى هذا التوجه في
البحث الى طبع الدراسات المتعلقة بتاريخ
سوريا وفلسطين بهذا الطابع المقصود ،
ووظفت نتائجه فيما بعد لتحقيق مأرب
الصهيونية السياسية .

لا أن بباحثين آخرين مرموقين يقفون
اليوم موقف علمية مقايرة ومنصفة ويعلمون
باصرار على بلورة تصور جديد للبحث في
تاريخ سوريا وفلسطين وحضارة هذه البلاد
في كل وجوهها :

قال الأستاذ ا. كاكو في محاضرته
الاقتصادية في الكلية تو فرنس في الخامس
من كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٢ : « التوراة
ينبغي لا تبهرا وتصدنا عن مهمتنا ، انها
ليست الا ادب شعب واحد من شعوب المنطقة ،
تجده بفضل هذا الادب معروفاً بشكل اقل
سوءاً وتشويفها من آداب جيرانه ، وبالتالي
فهذا لا يعطي احداً اي حق يسوغ الادعاء
بالتفوق او التفضيل . جميع هذه الشعوب ،
هي على قدم المساواة أمام البحث العلمي » .
ويتابع الأستاذ كاكو :

« ان الساميين ، (يعني سكان سوريا) ،
من عمر البروتز الذين تركوا لنا نصوص
رأس شمرة / اجاريتس ليسوا في نظرنا اسلاف
بني اسرائيل ؛ ان تاريخهم ، تاريخ ثقافتهم
ينبغي ان يدرس وينظر اليه بعد ذاته لا بما
يمكن أن يقتضيه لفهم التوراة . »

ان فضل هذه الشعوب علينا كبير ، ندين
لهم بالايجادية ، وقد كان اشعاعهم عظيماً ،

على الرغم من أنه لم يصل إلينا منه إلا قيس فنتيل . لقد حمل الفينيقيون حضارتهم إلى إسبانيا ، أما الإرمائية فقد فرضت نفسها في الشرق لغة إمبراطورية ، (الإمبراطورية الفارسية) ، في الوقت الذي يقيس فيه العبرية لغة كاتسون صغير ،^(٤)

ويقول الاستاذ جان بوتيرو ، أستاذ الآشوريات والأدب البابلي في باريس بلا بيس ولا جمجمة عند حدشه عن تاريخ فلسطين في الألف الأول ق.م : أن الامرياثيليين ، ويعني بهم أسطول بني اسرائيل التي استقرت في أرض كنعان ، حلو محل الكعنانيين في إطار الحياة الذي لم يتغير عند هؤلاء في ميادين التقدم المادي والفكري . لقد تلقوا من الكعنانيين كل شيء وتعلموا منهم كل شيء حتى لغتهم ..^(٥)

أما هذه المطبيات المسلمة بها ، يقرر بوتيرو هذه الحقيقة : « في ٣ كانون الأول / ديسمبر ١٨٧٢ فقدت التوراة إلى الأبد ميزتها الخالدة بكونها أقدم كتاب معروف ، كتاباً لا غيره من الكتب . في ذلك اليوم وقف جورج سميث ، وهو واحد من أوائل علماء المساريات ليعلن أمام جمعية الآثار التوراتية في لندن ، بعد خمسين سنة من البحث والدراسة لقراء النصوص المسارية أنه وجد في نصوص منقوشة بالمسارية نصاً لقصة الطوفان قريراً جداً حتى في التفاصيل من النص التوراتي ، وهو أسبق منه ، وأشر فيه ..^(٦)

والنص المعني هو اللوح العادي عشر من ملحمة جلجامش ويعود هذا النص إلى أواخر الألف الثاني ، وهو منسوخ عن نص أقدم يعود إلى ما يمرف بقصة العنكبوت اتراحسيس التي قد تعود إلى القرن السابع عشر ق.م ،

لقد أخذت التوجهات العلمية الموضوعية تفرض نفسها في المقود الأخيرة في الأوساط العلمية الغربية المعنية بدراسة آثار المنطقة وتاريخها ، فبعد توجهات بارو الدينية في ماري ، يهتم العجيل الجديد من الباحثين الكوربيين وفي طليعته مار جرون ودوران وشاريان بالآثار المادية واللغويات للكشف عن الحقائق ولجمع المعلومات من النصوص لتقديم المادة العلمية المجردة بموضوعية دون التقيد بأفكار مرسومة ومسبقة ويمثل هذا الموقف موقف الباحثين من المدرسة الإيطالية وفي طليعتهم ماريوليفرانى وأركى بعد التوجة المتسرع والتقليدي لقارئه نصوص إبلا الأول جيونفاني بقناتو .

ألا نرى ، إذن ، أن القافية قد أخذت تسود إلى طريقها الصحيح ، وأن من العبث الخوض في جدال حول الاستشراق ومواصف المستشرقين من التاريخ العربي القديم ، بعد أن أغلقت أبوابه في المديد من الأوساط العلمية منذ سنين .

اما المسألة الثانية ، فتدور حول ربط دراسة تاريخ الشرق القديم عامة بالدراسات الكلاسيكية . ويؤكد ليو أوبنهايم أن حضارة بلاد الرافدين درست لتخدم موضوعات تخص الحضارة الغربية من خلال النظرة إلى التاريخ القديم الكلاسيكي ، مثل: الطبيعة ، النبات ، الفكر قبل المنطقى ، القرابة ، العائلة ، التابو^(٧) ..

لقد أدى استخدام مصادر أفريقية لاتينية للدراسة الفينيقية (الكتعنانيين) واليونيين (التراتاجين) وتاريخ طرق معاشرهم وحياتهم وتفكيرهم إلى تشويه الحقائق وتعميقها ، لأن هذا التاريخ كتب على الأغلب بأيدي مؤلفين نظروا إليه آنذاك ، على أنه تاريخ برابرة ، حسب المفهوم الكلاسيكي ، اعتبروا

بانظارهم أعداء، وأحياناً أعداء خطرين ينبغي تجاههم العذر ومجاهمتهم .

وتتبرأ مشكلة مطابقة أسماء الأرباب في اللغات المشرقية القديمة مع الأرباب في البابتيون الأغريقي والرومني ، نتيجة ل موقف يمثل رفض المؤلفين الكلاسيكين الاعتراف للحضارة المشرقية القديمة بالأصلية والمخصوصية .

ولكن اكتشاف نصوص أجارييت فرض واقعاً جديداً في ميدان البحث العلمي . وقبل أجارييت ثم إيلا كان من الصعب التعرف على خصوصية تاريخ هذه المنطقة القديم وثقافتها وميشولوجيتها .

فأجارييت هي الشاهد الأمين الصادق ، الذي أعلن كما رأينا في أسطورة بعل و يرم أنه يقول الحق ؛ يملن هزيمة العدو المتدخل القاسم من البحر وانتصار بعل بن دجن رمز أرض البلاد وسمانها .

ولكن لكي تسجل شهادة هذا الشاهد الصادقليس علينا أن نفهمه ؟ أن نفهم ما أراد أن يقول ، لا أن نحمل أقواله ما تريده نحن أن نقول . كما أنه لا يجوز أن نحمل الوثائق التوراتية فوق مضمونها . « فند دراسة الميشولوجية وتاريخ الأديان عدا المديةة الاسرائيلية - اليهودية لا يمكن ، كما يقول الاستاذ موريس منتسر ، اعتبار النصوص التوراتية إلا كالنصوص الخارجية وليس أكثر من ذلك ١ ٠ »

فالنصوص - الوثائق هي الأسماء ، وهنا تكون النصوص الأجرافية هي الأسماء في أي بحث علمي في تاريخ الساحل السوري . فلما مام هذه الشواهد البيئية لا يتضمن لنا أن الواجب المثلث على عاتق دارسي تاريخ هذه المنطقة وحضارتها هو الابتعاد عن التركيز التوراتي ،

والتوجه إلى دراسة حضارة المنطقة لهذاها ونشر نصوصها ووثائقها وملفاتها وكشف مفاصل الاتصال فيما بينها وبين تاريخ الوطن في عصوره المتباينة ؟ فمثلاً ابراز وجه التاريخ الحق يتضاعر أمامه كل باطل .

فلننظر الآن في أثر الأرض والموقع على تاريخ الساحل السوري :

٤ - الموقع والتاريخ :

يشكل الساحل السوري جبهة عريضة للشرق العربي على البحر المتوسط ، وأنه على الرغم من المواجه الجبلية التي قد يغسل لأول وملة أنها تجزي بين الداخل والساحل فإن الطرق الطبيعية التي تخترق سلسلة الجبال الممتدة من الشمال إلى الجنوب بموازاة الشريط الساحلي كانت خلال مراحل التاريخ تصل ما بين مناطق الحضارة والانتاج في أقطار جنوب غربي آسيا والمشرق القديم وخاصة من جهة وبين أقطار حوض البحر المتوسط وحضاراته من جهة أخرى ، لي penetرون الشريط الساحلي العربي السوري على هذا الشكل محل تجاذب متنابع ومتبدل ما بين البر والبحر .

إننا نستطيع ملاحظة هذين العاملين في دراسة حركات الشعوب وتوجهها نحو الساحل ، سواء عن طريق القوافل الإسلامية: الكتمانيون والأموريون ، أو عن طريق الجيوش المغاربة: الأكديون والأشوريون من الشرق ، والعربون والخشيون من الشمال ، والمصريون من الجنوب ، والإيجيون والأخانيون والمقدونيون والرومانيون من الغرب .

على أنه وراء هذا الجسر الحضاري الساحلي ، جسر آخر استراتيجي يري . هو الشريط الساحلي الممتد على خليج أيسوس إلى مصب نهر العاصي على خليج الإسكندرية .

وان أقرب منطقة ساحلية الى الفرات تبعد عنه أقل من مائة كيلو متر ، وهي تشكل الجسر الذي يصل ما بين العرض الشمالي للبحر المتوسط من جهة والعالم الاكدي - البابلي ، عالم الثقافة المكتوب والسجلة بالمسمارية وهو العالم الذي ينفتح عبر الخليج وجنوب الجزيرة العربية (ديلمون وماجان وملوخا) على حضارة الشرق ، بلاد الالهاء والجواهر والتوابيل والمحاجرة الكريمة والقصبة الجميلة الملوثة والسموغ والملطور واللبان من جهة أخرى . ويشكل هذا الجسر البري السوري أهم من اجل الاتصال بين مصب العاصي على التوسيط (البحر الأعلى) ومصب مجلة والفرات في الخليج العربي الشرقي (البحر الادنى) وبالتالي بين حضارات البر والبحر .

كانت المرات الطبيعية التي اكتشفها أهل البلاد منذ أيام جلجماش ، معاير للاتصال بين عالم البحر من جهة وعالم البر من جهة أخرى . ففي الشمال تقع المرات الكيليكية في وادي نهر براموس (نهر سينجون) ، وهي مرات (حمان) = (امانوس) المؤدية الى سهل حلب عبر المدينة العثية - الكتمانية - الأرامية شمال ، الواقعة في أقصى الشمال ، وهي موقع زنجرلي اليوم . وما يزال هذا الموضع يحتفظ بأهميته الاستراتيجية حتى أيامنا هذه ، قيسر في الخط العددي لقطار الشرق . وفي هذا المكان الذي كان يخترق الانسان سيراً على الاقدام ليؤكد بعركته وجوده اتصال الأرض ووحدتها حفر ثقق بطول خمسة كيلو مترات في جوف الجبال لخدمة المواصلات في عالمنا المعاصر(٢) .

اما المر الثاني عبر جبال الأمانوس فهو مر بيلان ، ويعرف تاريخيا باسم المرات السورية وهو يؤدي كذلك الى السهول السورية

الشمالية ، سهل حلب . كان هذا المر نفسه هو الطريق الذي سار فيه الاسكندر المقدوني بقواته المنتصرة بعد معركة ايسوس عام ٣٢٢ ق.م وهو الطريق المباشر الرئيسي بين البحر المتوسط والمنطقة الشمالية الداخلية كلها . والى الجنوب نجد ممراً ثالثاً في هذه المنطقة الجبلية الشمالية هو مجرى العاصي الأسفل ، وهو أهلل هذه الطرق حيث لا يبعد السهل عن الساحل اكثر من خمسة وعشرين كيلو متر من حوض المعمق الى البحر .

في هذه المنطقة قامت مجموعة من المستوطنات الأولى السابقة للعصر الكتوماني وقد عرفت هذه المستوطنات قبل اكتشاف مستوطنات حوض النهر الكبير الشمالي . وربما كانت هذه التجمعات الأولى معاصرة للتجمعات البشرية ومحاولات الاستقرار الأولى في المنطقة الساحلية السورية .

على أن الارتباط بين البر والبحر عبر ممرات هذه المنطقة تتجلّى في عصور لاحقة بانشاء الآلاخ والاجاريت ، ثم في عصور أحدث بتاسيس أنطاكية وسلوقية واللانقية ...

والى الجنوب من جبال الأمانوس تقع سلسلة الجبال الساحلية التي عرفت في المصادر الكلاسيكية باسم برجيلوس . وربما يكون اسم القرنلقي تعريراً لهذه التسمية . كما عرفت هذه الجبال في المصادر العربية باسم جبال البهزاء نسبة الى قبائل عربية يمنية الأصل استقرت على هذه الجبال في مطلع العصر الاموي وتصدت لهجمات البيزنطيين على المنطقة(١) .

ويقع المتقى الطبيعي من الساحل الى الداخل جنوب هذه الجبال عند مجرى النهر الكبير الجنوبي الفاصل بين الجبال الساحلية السورية الشمالية وجبال لبنان . وهو يصل

ما بين مدن آروداد وعمرية وسييرا وعرقة / طرابلس بقادش / حمص وهي المدن الهامة في سوريا في الألف الثاني ق.م في فترة الصراع المصري - العثني . وقد أثبتت هذا المر أهميته الاستراتيجية عندما شقت فيه الطريق البرية ومدت السكك الحديدية .

وقد تعاقبت في السيطرة على هذه المسورة الوالصلة بين العالمين العضاريين ، عالم الحضارة الداخلية ، البر وعالم الحضاريات الخارجية ، عالم البحر المتوسط ، خلال ما يزيد عن الفي عام . اقتحمت هذه القوى المنطقة في أدوار مختلفة بقوة وعنف وحملت إليها في كثير من الأحيان التراب والدمار واعطلت فيها سير الحضارة والتقدم . وشكل كل من هذه القوى في حينه عامل تغيير جذري لخارطة المنطقة ولصورتها وطابعها السياسي والاقتصادي والثقافي باحتواها في إطار الدول الشاملة الكبرى أحياناً كما في أمبراطوريات حوض الرافدين وأسية الصفراء ومصر أو في إطار حضارة واسعة كالحضارة الهلنستية ثم الإمبراطورية الرومانية .

وقبل الفسي في استعراض نتائج هذه التطورات التاريخية الكبيرة نتوقف عند أسماء بعض الشعوب البارزة التي ارتبطت بتاريخ المنطقة الساحلية لكي نحاول التعرف عليها وعلى دورها في تاريخ المنطقة الساحلية القديم : الكتومانيون والفينيقيون .

٥ - الكتومانيون والحضارة الكنعانية :

ما يزال أصل السكان الذين كانوا يتكلمون في سوريا القديمة لغات تنتهي إلى مجموعة اللغات التي جرى التعارف على تسميتها باللغات السامية ما يزال حتى الآن محل نقاش وكذلك تاريخ قيومهم ومدى امتداد الأرض التي شغلوها . أما اسم

(كتمان) فقد ورد في أسفار التوراة التي تتحدث عن التطورات السكانية والجغرافية البشرية ، اي توزع عناصر السكان في مصر الذي دخل فيه الموريون من بني اسرائيل الى ارض كتمان ، وهو الاسم الذي كان يطلق على فلسطين القديمة .

هذه الرقعة من الأرض التي دعيت في أسفار التوراة نفسها كما كانت تدعى في حينه ليست هي ارض كتمان كلها ، ولكن الأرض المعنية هي الواقعية على يمين نهر الأردن من ينابيع الأردن شمالاً الى التلub في جنوباً . في هذه المنطقة اقطعت قبائل بني اسرائيل التي كانت تتكلم اللغة العبرية القريبة من اللغة الكنعانية التي كان يتكلّمها الكتومانيون المنتشرون آنذاك على الساحل السوري – الفلسطيني القديم ، ارضاً لها في كتمان على حساب السكان الأصليين في الأرض التي عرفت بعدها باسم فلسطين ، وذلك في ظروف تاريخية سياسية ادت الى تشكيل فراغ شعّج على تحرّك السكان وانتقالهم في ذلك العصر .

انه على الرغم من اعلان الأسفار الأخبارية من التوراة (سفر يوشع مثلاً) عن ابادة السكان والاحيام (الحرب) على أيدي الفزارة كما هو الشأن في اريحا او في عسقلان ، فإن العديد من الكنعانيين تجاوزوا المعنة وبقوا على قيد الحياة بعد الغزو ولكنهم دون شك اندمجوا بالنظام الاجتماعي – الثقافي للدولة الجديدة التي أقامها الفزارة .

والواقع أن ارض الكنعانيين في مصر البرونز المتوسط ، وفي بداية البرونز الحديث امتدت إلى اجرات في شمال سوريا وامتدت قبل وصول الآراميين شرقاً حتى الفرات . ان اللغة تل مرديخ = إبلا التي تدعى الابلانية ،

موجدين في المنطقة منذ بدايات الآلف الثالث
كما توضح لنا شواهد تل مرديخ/إيلا . ولكن
علماء الآثار والمورخون لا يملكون أي شاهد
مادي على حركة مجرة لشعب ما تكلم آية لغة
سامية في مرحلة ما قبل الكتابة في سوريا
وفلسطين اي قبل إيلا (الآلف الثالث ق.م.)

ويميل بعض الباحثين الى تأييد الرأي
القاتل يان الكتمنانيين هم بالأسيل من السكان
المحلين في سوريا تطورت أجيالهم فيها عبر
المصور . ومن جهة أخرى فإنه من الصعب
البت بالأصل اللغوي لكلمة (كتاخو) التي
نقرأها في نصوص توبي، وهي كلمة تدل على
الصياغ الأرجوانى ، ولذا قربت الكلمة من
كلمة (فينيقى) ووجد أن للكلمتين (كتمان)
و(فينيقية)، معنى واحدا وهو بلاد الأرجوان .
واقترح كذلك تفسير آخر الكلمة كتمان هو
بلاد التجار ، فقد وصف الكتمناني بال旅اجر في
المهد القديم ، لكننا لا نجد لكلمة كتمان أي
أصل في اللغات المشرقية (السامية) القديمة ،
الا اننا نجد في العربية الجذر (كعن) بمعنى
الاتخان ، وربما يتصل هذا المعنى بانخاء
مسار الشمس وغروبها فيكون معنى كتمان
بلاد الغرب بالقياس الى بلاد الرافدين ، كما
اضحى فيما بعد اسم أمورو دالا على الغرب
وببلاد الغرب . فاما هذا التشتت في الآراء
وتعددهاليس من الأفضل الانصراف ، كما
كنا قد دعونا سابقا ، الى دراسة الحضارة
نفسها بمؤسساتها ونظمها وتاريخها وعلاقتها
وآثارها ؟

اما الحضارة الكنعانية :

لقد انشأ الكتمنانيون حضارة الساحل
السوري كلها ، وفي فلسطين (التي وصفت أسفار
التوراة حياتهم فيها قبل دخول العبريين) أقاموا
قواعد وأسس حضارة فنية ومتفتحة على

ترتبط بفرع اللغات السامية الشمالية الفريبية ،
التي ربما يمكن ان ندعوها لاعتبارات جغرافية
وحسب المرجح الاموري اي الغربي ، مقابل
الفرع الاحدى اي البابلي-الاشوري اي الشرقي .
والى الفرع الغربي من اللغات (السامية)
تنتمي اللغة الاجاريتية التي ينبغي ان يبعث
عن العلاقة فيما بينها وبين الابيات ، واللغتان
الفينيقية والعبرية ، اللتان ليستا بالواقع الا
لهجتين من الكنعانية . وهكذا كان دراسة
الواقع الاجتماعي اللغوي هو الذي يساعدنا
على التعرف على الانتشار الكنعاني والعلاقات
بين المجتمعات التي كانت تتحدث بهجات
كنعانية .

ظهر اسم الكتمنانيين في نصوص اكادية من
النصف الثاني من الآلف الثاني ق.م . ونجد
لأول مرة بصيغة بلاد كتساني في نص ملك
ال الاخ ادريعي (في بداية القرن الخامس عشر)
وفي منتصف القرن الثاني (الرابع عشر) يرد
هذا الاسم في نصوص تل العمارنة بصيغة
كتاخني ، كتاخى ، ونجد بهذه الصيغة
الأخيرة في أجاريته .

اما في النصوص المصرية (اووسط القرن
الخامس عشر) فنجد الاسم بصيغة كتانا كما
في نص يعود الى زمن منحوتب الثاني
(١٤٥٠-١٤٢٥)

فيالاستناد الى هذه المعطيات جعل بعض
المؤلفين ظهر الكتمنانيين في منطقة الشرق
العربي القديم يكرنهم شيئا له اسم في مطلع
الآلف الثاني ق.م . وهو ما يقابل أثريا عمر
البرونز الأوسط . وقد ربطهم بعضهم
بالهكسوس الذين اختعلوا بالكتمنانيين
وتأثروا بحضارتهم وبنوا عباداتهم وحملوا
أسماء كنعانية ولكن يبدو ان السكان الذين
اطلق عليهم بعدئذ اسم الكتمنانيين كانوا

٦ - من هم الفينيقيون ؟

الفينيقيون اسم اصطلاحى أطلقه الاغريق في الالف الاول ق.م. على سكان الساحل السوري القديم الذين كانوا يدعون أنفسهم كتّانيين . وكان يعني بهذا الاصطلاح شريط من الأرض بين جبال لبنان والبحر ويمتد من منطقة أرداد شمالاً إلى الكرمل جنوباً . وأهم المدن على هذا الشريط جبيل وبيروت وصيفاً وصور وعكا ودور .

= Pheniké ويرتبط أصل الكلمة فينيقي بكلمة Phoinix = أحمر ، فالكلمة ترتبط بما اشتهرت به من مدن الساحل القديم وبخاصة صيفاً وصور من مناعة للقاش الآرجواني الأحمر والتجارة به . وترت كلمة Ponikiija (بونيقيا) في كنوسوس (كريت) للدلالة على اللون الأحمر .

الا ان الكلمة فينيقية وردت لأول مرة بصورة ما عند هوميروس ثم عند هيكتيروس من ميليتوس للدلالة على مكان سور وصيفاً الذين كانوا يدعون أنفسهم كتّانيين كما ذكرنا من قبل رغم أن المصادر اللغوية تذكر أن الكلمة غير اغريقية، وهي مشتقة من أصل أجنبى فان الشائع هو أن الأغريق هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان مدن الساحل القديمة .

ان الواحـاـ من كريـت/ـكنوسـوسـ (ما بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر) تشير الى وجود هذا الاسم الذي ربما انتقل عن هذا الطريق الى اليونان .

ويـردـ اـسـمـ نـفـخـوـ/ـفـنـخـ فيـ الـمـصـرـيـ لـيدـلـ علىـ الـذـيـنـ يـقـطـعـونـ الـأـخـشـابـ فيـ جـبـالـ لـبـنـانـ ،ـ ثـمـ فيـ قـصـةـ سـنـوحـىـ منـ عـصـرـ الـسـوـلـةـ الـفـرـعـونـيـ الـوـسـطـىـ لـيدـلـ عـلـىـ شـعـبـ تـقـعـ بـلـادـهـ جـبـيلـ وـبـيـرـوـتـ لـبـنـانـ .

العلاقات مع الشعوب والحضارات المجاورة . زرعوا الأرض مسلحين بخبرة قرون عديدة ترقى إلى مصر العجمي الحديث ، وعالجوها قلة المحصول بالتبادل والتجارة ، حتى أصبحت الطرانق التي اعتمدوها فيها من تقاليد البلاد وتراثها الموروث .

عرفوا أنظمة اقتصادية – اجتماعية – سياسية بلفت درجات مختلفة من التشابك والتعميق بتنامي الحياة المدنية في عشرات المدن التي بنيت وأحيطت بالأسوار : اريحا ومجدو ويبوس اوريشلم وعيّن وغيرها . وشيّدت فيها المعابد والدور وانقصور التي برع في هندستها المهندسون وزينتها بعمالهم فنانون مبدعون .

وعلى غرار ما كان قائماً في أقطار المشرق القديم ت Sheldon حول الملوك والأمراء جهاز إداري من الموظفين والكتاب كان من ابرز أعمالهم تنظيم السجلات الرسمية والمراسلات الدبلوماسية التي تجد في مراسلات تل العمارنة أختـ - آتون نماذج بيـنةـ عنها .

لقد عرف الكنعانيون على اختلاف مواطنهم الكتابة تعلمواها وعلموها ونشروها . فاستخدموا النظام المساري في شمال البلاد المتصل بوادي الفرات ، وكتبوا في جنوبي البلاد ، أي من جبيل حتى سيناء وهي المناطق التي كانت أكثر اتصالاً بمصر ، بنظام الكتابة فيه ملامح تأثيرات المصرية والغربية الجنوبية . وعلى أيديهم أوجدت ، على كل حال ، هذه الطريقة البدئية البارعة للكتابة المروفة بالأبيجدية التي انتقلت بالفكرة والتطبيق إلى أنحاء العالم في الشرق والغرب من حوض السندي إلى حوض المتوسط ، فأحدثت هنا الاختراع أكبر تأثير في نشر الثقافة وتميمها في أنحاء العالم كله

تدور العثين وانهيارهم وترابع المصريين
وأنكمافهم في وادي النيل .

لقد ترافق لبعض المؤلفين أن فينيقية
والفينيقيين اصطلاحان يتصالبان بالاتزانية ،
والحقيقة أن الفينيقيين هم من الكنعانيين ،
كانوا عامل اتصال بين المشرق القديم والمغرب
القديم منذ نشأتهم على سواحل البحر الأحمر
او سواحل الجزيرة العربية الموريتانية الى انتشارهم
على الواجهة البحرية للشرق والمغرب على
البحر المتوسط فانتشرت قوافلهم براً الى أشور
وبابل بينما تحركت أساطيلهم بحراً الى
المتوسط والطلسي وسيطروا على معظم جزر
حوض المتوسط وسواحل إفريقيا الغربية
وجاء دورهم في نقل ونشر حضارة الشرق
العربي مكملاً لدور الآراميين عندما تغلبوا
وامتدوا على كل الأرض من الفرات الى
النيل .

اننا لا نجد في التاريخ مثلاً واحداً على
نزاع حربي بين الآراميين والفينيقيين /
الكنعانيين ولكننا نجد تناقضاً حاداً وصراعاً
مريراً بين الكنعانيين عامه وبين أسباطبني
إسرائيل الذين انشأوا مملكة طارئة في تاريخ
فلسطين القديم . فقد كان على الدول
الفينيقية أن تتبع التصدى للتوصير العبراني
نحو الشمال كما تصدت ممالك آرام وبخاصة
وينجاح أحياناً ويتفوق أحياناً كثيرة لهذا
التوصير منذ مراحله الأولى (أيام برهام
وحزانيل) ، وك موقف مؤاب في شرق الأردن
(أيام الملك ميسع) .

على أن الفينيقيين دوراً تاريخياً مشهوراً
ومتميزاً ، فلم يكونوا مغاربيين فاتحين في البر
لكنهم كانوا مفاريقين مستكشفين وملحchin عظاماً
على سطون البحر . فقد أنشأوا المخططات
وشيدوا الموارئ والمدن في أنحاء حوض
المتوسط وعلى طول سواحله العربية وفي جزءه :

وهنا يمكن أن يطرح السؤال عما إذا
كان الاسم (فنغو) اسم محلياً تسجان المنطقة ،
وتهنئ هو الاسم العام ؟ . قد يتراوى لنا أن
العلاقة بين الاسمين دنهن وفنغو غالباً بين
الخلمو وارامو ، فالخلمو اسم عام لقبائل
عديدة يزد منها الaramيون حتى طفى اسمهم
على الآخرين . كما طنى اسم (عيرو) على
(غبورو) . فالميريون ليسوا وحدتهم الغيرية
بل هم جماعات منهم .

اما أصل الفينيقيين فهو الأصل الذي
ينحدر منه الكنعانيون ما دام الفينيقيون فرعاً
من الكنعانيين ينحدرون منهم ويندمجون بهم .
ويبدل اسمهم على منتبجي وصناع الارجوان
من صفة الموريكس وقد انتقل هذا الاسم الى
الميكانيين في « البحر المتوسط » بصيغة بونيقى
= Phoinix = Po-ni-ki كـ Kinnaku . وربما
كان هذا الأزدواج بالتسمية المشتقة من
مصادرین، البحر والبر، أصل هذا الالتباس
في العلاقة بين التسميتين ودلالة كل منها ،
فهما بالواقع اسمان على مسمى واحد .

كان للفينيقيين / الكنعانيين دور كبير في
النشاط الملحي في البحر المتوسط خلال ألفي
الثاني ، لكن هذه المفالية العينية لم تبدأ
فعلاً الا في أواخر الآلف الثاني وفي بدايات
الآلف الأول ق.م . كان ذلك نتيجة لتغيرات
وقدت خلال هذه الفترة : فانهيار الحضارة
الكريتية والميكانية في حوض بحر إيجه وسقوط
دور الآخرين الإيجابي عند قبوم النورين
الذين لم يستطيعوا أن يحلوا محلهم أنسح
المجال أيام تعاظم دور المدن المفينة التي
استطاعت تجاوز الأزمة التي مرت بها المنطقة
عند الانتقال من عصر البرونز الأخير الى
عصر الحديد . وو ما حصل للأراميين الذين
تعركوا في داخل البلاد لسد الفراغ الذي خلفه

في قبرص وفي سوريا ولبنان وفلسطين وعلى سواحل ليبية وتونس والجزائر وفي مالطة وقليلية وسردية والباليار وعلى شواطئ المغرب وأفريقيا وأسبانيا ومنها شققاً طرفاً تجارية إلى شواطئ فرنسة وإنكلترة عبر خطوط الأطلسي . لقد مضى التجار الفينيقيون ليبحثوا في الأراضي القصبة عن الفضة والنحاس والقصدير ، وهي المادتان التي كانت تشكل عباد ثروة قرطاجة ، بعد أن تمكنا من بناء وتجهيز مناكنهم التي أضحت مشهورة والمعروفة باسم ترشيش والتي كانت قادرة على مخر أعلى البحار خلال الألف الأول ق.م.

لقد كان تاريخ المدن الفينيقية على الساحل السوري – الفلسطيني ملحمة رائعة من ملاحم التاريخ الإنساني . فبينما كان الصراع محتملاً على أرض المشرق غرق قت فيه المدن المدافعة عن استقلالها وانقسمت فيه شعوب فلسطين وأرارات وأشور في القرن التاسع ق.م وكانت مراكب من صور تتجه إلى المغرب لتبث عن موطن قدم عند مغيب الشمس . هناك بنيت القرية / المدينة العديدة = قرث حديث وهي قرطاجة وقدمن = المتقدمة وغيرهما .

– المطاعم الصهيونية وجذورها القديمة :

تعكس الأسفار الأخبارية في التوراة بعض ملامع من ذلك الصراع الذي دار على أرض فلسطين بين السكان الأصليين للبلاد والقادمين الوافدين بشكل نكاد نرى بعض أشكاله في عمرنا الراهن .

لقد فرض الواقع الجغرافي – التاريخي الكثامي نفسه كما فرضت المصادر الكثامية نفسها على كاتب سفر التكوين (الاصحاح العاشر ١٨-١٥) فبالاستناد إلى هذا النص

يميز الأستاذ رينيه دوسو (في الطبوغرافية التاريخية لسوريا القديمة ٢٠٠) ثلاث مناطق يدعوها فينيقية وفيها المجموعات التالية : ١ - الفينيقيون الجنوبيون ويضمون صور وصيدا .

٢ - فينيقيو الوسط ، في منطقة جبيل التي كانت تدعى في مصادر مصرية نيجو Negau / نيعا ويرد ذكرها في المصدر التوراتي العرقي والسيني .

٣ - الفينيقيون الشماليون ويشار اليهم باسم الأزوابيين والمحاواريين أي أرواب وسيميما (١) .

ويستخلص دوسو من مقطع هام في سفر يشوع ، ٦:١٣-١٤ . جذور المطاعم الصهيونية المستندة إلى مصادر توراتية باراض فينيقية، هي الأرضي الواقعية جنوبى الجرى لأدنى للبطانى (نهر المقاسمية) . ويلقى العالم الفرنسي على ذلك في كتابه المنصور عام ١٩٢٧ بعبارات نقاشة بقوله :

« إن المفاوضات التي جرت مؤخراً (في العشرينات)، والتي انتهت إلى تحديد الحدود بين منطقة الانتداب الفرنسي ومنطقة الانتداب البريطاني منحت الادعاءات الصهيونية صفة الماصرة » .

وفي الاصحاح التاسع عشر من سفر يشوع وهو السفر الذي يتحدث عن توسيعبني إسرائيل في أراضي كنعان / فلسطين ، قائمة باسم الواقع التي أضحت موضوع مفاوضات بين لجان تحديد الحدود آنذاك من سلطات الانتداب الفرنسي وسلطات الانتداب البريطاني وفيها ما يلى :

كانت هذه القرى والمواقع المزدحمة بين الواقع الجغرافي التي جرى التفاوض عليها بين لجان تابعة لسلطتي الانتداب البريطاني والفرنسي وبمتابعة متذوبين من الوكالة اليهودية والتي كانت تراقب المفاوضات عن كثب للتوصيل إلى تحديد حدود بين سورية ولبنان من جهة وفلسطين من جهة أخرى بالاستناد إلى ادعاءات ومقولات قديمة .

كان ذلك ضمن مطامعبني إسرائيل باراض كنعانية في مطلع الالاف الاول ق.م. وقد انعكست هذه المطامع في سفر يشوع مثلاً ، وقد ورد فيه تفصيل برنامج التوسيع التوراتي في المنطقة الشمالية ، وهو البرنامج الذي طلب متابعته تنفيذه بمدع يشوع :

يقول النص (١٠) :

« بقيت أرض كبيرة جداً للامتلاك ، هذه هي الأرض الباقيّة : كل أرض الكنعانيين ومقاربة التي للصيونيين إلى أفق إلى تخم الأموريين وأرض العجلين وكل لبنان نحو شرقي الشمس (يعني لبنان الشرقي) من سفوح حرمون إلى مدخل حماة » (سفر يشوع، الأصحاح (١٢) فكما برزت هذه المطامع في السابق تبرز اليوم وفي المناطق نفسها في جنوب لبنان وسفوح حرمون دون لجلجة أو موارة .

والحقيقة أن الانتداب البريطاني ، الذي كان أقوى نفوذاً في حلبة المؤامرات والمناورات بين القوى المتصارعة على المنطقة، استطاع بالتحالف مع الصهيونية النشطة منذ ذلك العين أن يوسع دائرة سيطرته ونفوذه لصلحة الوعيد البريطاني باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين في مناطق هي تاريخياً كنعانية فينية ولا ارتباط لها أبداً بادعاءات تاريخية صهيونية قديمة .

- ١ - حلقة : يرقه ، وتقع شمال عكا .
- ٢ - حلبي : عالية أو حولي شمال قادش الواقعه شرقى تبنين .
- ٣ - ياطن : بيت بطن ، شرقى عكا .
- ٤ - اكساف : جنوب نهر القاسمية ، ورد ذكرها في تصوّص العمارنة في مصر ، اكسابو . وستتحدث عنها بتفصيل فيما بعد . وهي قرية الذيب العربي .
- ٥ - التسلك : او إيليك ، هي الملكية .
- ٦ - عمداد :
- ٧ - مشال: هي مشاركة Meshaara في الوثائق المصرية
- ٨ - بيت جدين : بيت دجن ، بيت دجون .
- ٩ - بيت هعمق : بيت الممق ، عمقة ، شمال شرقى عكا .
- ١٠ - نيميشيل ، بثانياً : شرقى قيسارية .
- ١١ - كابول : يشير دوسو عند ذكرها إلى أن الكاتب التوراتي يقلل من أهميتها ، ويشير إلى تنازع الملك سليمان عنها إلى حiram ملك سور بين عشرین مدينة في أرض الجليل (الملوك ١، ١٣:٩) أما العبراني العربي المقدس فيتحدث عن أهميتها الزراعية في أيامه .
- ١٢ - عبدون : خربة عبده شمال عكا .
- ١٣ - رحوب .
- ١٤ - حامون/حمون : عين حامول ، ويقع وادي حامول ما بين رأس الناقورة والرأس الأبيض .
- ١٥ - قانة : قرية قانة ، خربة قانة .
- ١٦ - رامة :
- ١٧ - عكا ، مكة على الساحل .
- ١٨ - أفاق ، أفاق .

لناخذ مثلاً على ذلك أحد المواقع
الأثرية المذكورة آنفًا لنرى ماذا مال الادعاءات
الصهيونية :

النساف : وهي قرية المذيبة العربية ،
تقع على مسافة خمسة عشر كيلو متراً إلى
الشمال من عدا على ساحل المتصدع المحتلة
من فلسطين .

تقول المصادر العلمية (انظر :
المربيه التي كانت قائمة على مقربة من التل
تدعي الذيب . اما التل الأثري فيدعى باللغط
المعلني (اشدبي) وهو تحريف للاسم القديم
اكساف . وبعد استطلاعات اولية جرت
تنقيبات منتظمة ما بين ١٩٥٩ و ١٩٦٤ ،
أدت إلى النتائج التالية :

فخاريات من عصر البرونز القديم
(الالف الثالث ق.م) ،

مساكن كتمانية من البرونز المتوسط
(النصف الأول من الألف الثاني) ،

مقابر فينية (بين القرنين ٧-١٠) ،

احتلها الآشوريون حوالي ٧٠٠ ق.م ،
ثم البابليون .

آثار من المصر الفارسي .

ثم ضمت إلى المملكة السورية السلوقيّة ،
وكانت محطة هامة على الطريق إلى أنطاكيّة .
واحتفظت بهذه الدور حتى المصر الروماني .
وقد عثر على آثار فخارية وبرونزية من
ذلك المصر .

مكذا يتضح أن الأدوار الأثرية التاريخية
التي مررت على الواقع تؤكد أنه كان موقعاً
كتمانياً على الساحل السوري – الفلسطيني
القديم وتاريخه هو تاريخ الأرض كلها .

٧ - الساحل السوري أيام الإمبراطوريات الشاملة :

في واخر الآلف الثاني ومطلع الآلف
الأول ق.م دخل تاريخ البلاد في منعطف خطير .
فقد بدأت تتشكل قوة سياسية – بشرية
منعت كل المنطقة الواقعه على نهر الفرات وهي
بلاد أمورو هوية جنراونية – تاريخية خاصة
خلال الآلف الأول ق.م فصارت تعرف
باسم آرام .

ان التبسيط الشديد للجيروات الاحداث
قد يقود الى تكوين رؤى بجهة عن التطورات
التاريخية التي وقعت فعلاً كما حدث في
الفترة الانتقالية الفاقضة عند انهيار الممالك
الخشية في شمال سوريا وتأسيس بيوتات آرامية
حاكمه في الجزيرة وببلاد الشام ، وعند تدهور
المالك الكتمانية وسقوطها أيام الانتصارات
التي حققها التحالف القبلي الذي قاده الملك
داود . لقد استفرقت هذه الفترة الانتقالية
المخطورة ما لا يقل عن قرنين ، أي إلى القرن
الماضي . ومن المأثور أن يجري الحديث عنها
باجمال وبصورة عابرة على الرغم من الأهمية
البالغة للأحداث التي مرت آنذاك وطبعتا تاريخ
المنطقة بعدئذ بطابعها مدة طويلة .

كيف كان صير الدول الكتمانية في تلك
الفترة المتازمة ما بين القرنين الثالث عشر
والماضي . وهي فترة انهيار فيها النظام الدولي
بسقوط اركانه السياسية والاقتصادية :
انهيار الإمبراطورية الخشية ، وتراجع مصر
الفرعونية عن فلسطين ودمار المدن الكتمانية
التجارية : اجاريت وجبيل وصور وعسقلان .

ولكن كيف تبلور الوضع الدولي في
المنطقة بعد دخول القوى الفاعلة الجديدة :
«شعوب البحر» من الغرب ، والتعزuki العيلامي
نحو بابل من الشرق ، والانتشار الآرامي من

البادية العربية - المسوية على امتداد جبهة من الجبال التدمرية الى جبل بيري نحو كل آناء الهلال الخصيب .

ما هو وضع الدول الساحلية الكنعانية - الفينيقية بعد استقرار الدول الآرامية في الداخل وانطلاق حركة التوسيع الآشوري بعد أن برزت مملكة آشور ينبع منها العسكرية وباستراتيجيتها التوسيعية الموروثة من عصر المفاطعين الأكديين شروكين ونرام مين قبل ذلك بأكثر من ألف عام ؟ كيف كان بالواقع وضع الدول التي كانت قائمة في ما كان يدعى بسوريا على سفح طوروس والأمانوس عند انتشار القبائل الآرامية التي تحركت لشقق الفراغ في منطقة الجسر السوري الاستراتيجي بين الفرات والبحر وهو الفراغ الذي أوجده حرکات الشعوب وتبدل مواقع الدول وأدوارها في المنطقة ؟

ان وثائق المخطوطات الآشورية التي تتضمن سجلات العواليات الرسمية من أيام تكلات بلاسر الأول (توکولتي اپیل ایسّار) = (۱۱۱۵ - ۱۰۷۷) ق.م تعرف بالواقع السياسي للتحالف السوري الشامي بزعامة ما دعي ببلاد حاتي الكبرى (۱) .

لقد أوضح الأستاذ بول جاريللي أن هذا التحالف بزعامة ملك كركميش الواقع في شمال سوريا والذي امتد إلى حماه في وسط البلاد لم يكن مجرد بقية الإمبراطورية العشيقة المنهارة بل كان قوة دولية حقيقة استطاعت ان تثبت وجودها أمام التوسيع الآرامي من جهة ثم أمام التوسيع الآشوري في شمال سوريا ونحو المدن الساحلية على المتوسط .

لقد رافق هذا التغير حضاري يطغى ان حضارة سوريا تغير نوعي حضاري يطغى

عصر البرونز هي الحضارة التي بدأت بالانهيار منذ القرن الثاني عشر عند اصطدامها بحضارة عصر الحديد في ظروف لما يتم جلاًها بعد (دمار اجاري ومدن ساحلية أخرى) . وفي هذا التفجير كان مصير الدول الفينيقية شبيهاً بمصير الدول والممالك الآرامية بمواجهة زحف الدول الإمبراطورية الشاملة المعاقة : آشور ثم بابل ثم فارس .

لقد أوجدت وحدة المشرق القديم تحت زعامة ملوك آشور وبابل سوقاً تجارية مترامية واسعة ، ودفع التجار السوريون الفينيقيون وخاصة التجار اليونانيين أمامهم في شرقى البحر المتوسط ، فاضطرب هؤلاء إلى الابتعاد عن الساحل السوري ليتخذوا مراكز لهم في جزر رودس وديلوس وارخبيل السيكلايد بينما تقدم التجار اليابليون والأشوريون والكنعانيون والآراميون نحو كيليكية وسواحل آسية الصغرى الجنوبيّة ، واستمر هذا التفوق المشرقي عدة قرون إلى العصر الكلاسيكي الهليني في القرنين الخامس والرابع ق.م إلى أن تصاعد التنافس التجاري إلى المصراع العربي ، وبلغ هنا المصراع ذروته في العروب الفارسية - الهلينية ثم في الاجتياح الذي قاده الاسكندر المقدوني نحو بلاد الشرق .

وفي خضم الظروف الدولية التي تعرضت لها دول الساحل الكنعاني في العصور الفارسية والهellenisti ضفت الاتصال بين صور وقرطاجة والملائكة الفينيقية الأخرى في الموضع الغربي للمتوسط . ولكن مصير الساحل السوري يبقى مرتبطاً بمصير المنطقة كلها وبما من عليها من تغيرات وتطورات . فيبعد حلول الإمبراطورية الفارسية الشاملة محل عروش الملك القديمة ثم توحيد الادارة ولفتها رسمياً وادارياً لأول مرة في مناطق واسعة من العالم القديم . وبين

اللغات العديدة التي كانت متداولة آنذاك فرضت اللغة الأرامية ، وهي لغة سورية ومعظم المشرق القديم في ذلك العصر ، نفسها لغة عامة ومشتركة لتلك الامبراطورية الكبرى المتعددة الآلسن واللغات ، وأحتل التجار السوريون الأراميون والفينيقيون في البر والبحر في بنية الدولة الاقتصادية فعملوا معهم المطرور والخمور والزيوت والمعاقير والشمار المعرفة والأخشاب والأخور وتحركت أسراط وجاليات التوابيل والبخار وتحركت بين بلدان الدولة وأقطارها حاملة متقداتها وثقافتها وعاداتها فتشاروا بالبيئات الاجتماعية والأوساط الثقافية التي انتقلوا إليها كما أثرواهم فيها وتركوا بصماتهم عليها .

وفي حين اقتصر نجاح امبراطورية الفرس الأخمينيين على ضم الملك والدول في المشرق القديم من برقة إلى الهند ومن البحر الأسود وبعراية وحوض المتوسط إلى بحر العرب في دولة واحدة شاملة فإن العصارة بقيت متعددة الألوان . فلم تكن الجيوش المظفرة قادرة على محو الثقافات المريقة في مقاومتها وأساطيرها وتقاليدها وتراثها الثقافي ، المفروي والأدبي والفنى . ففي أدوار سابقة كانت مجتمعات الساحل السوري قادرة على التصدي لمحاولات سيطرة الفاتحين بما تملكه من قدرات على تحريك المؤسسات الاقتصادية وخاصة التجارة والنقل وتسخير القوافل وتأسيس الوكالات والمحطات في نقاط ومساكن بعيدة ، مما أدى إلى خلق شبكات منتجة ومتعركة وفعالة فرضت وجودها في إطار الدولة الشاملة نفسها .

هكذا كان للكتمانين ولبنول المدن الساحلية ، مثلاً ، الدور الأول في التصدى والاقتحام والدفاع في مراحيل العروبة الميدية - الهلينية . وكان من هذه المدن قادة الأساطيل وبعاراتها كما كان منها التجار والكتاب والصناعة . لكن انتصارات الاسكتندر المقدوني الصاعقة قلبـت هذا الوضع رأساً على عقب . لقد نجم عن الانتصار المقدوني الهليني في الشرق هزيمة عسكرية وسياسية حاسمة للامبراطورية الفارسية الأخمينية ، وهزيمة اقتصادية حضارية ماحقة للعالم الأرامي - الكتمانى (الفينيقي) كان من مؤشراته البارزة : أولاً ، سقوط المدن التجارية الكبرى وتهديمها صيدا وصور وغزة وغيرها . ثانياً ، الفزو الاستعماري الإستيطاني الهليني الذي تمثل بانشاء وعمارة المدن الهلنستية مثل : أنطاكية واسكدرونة وسلوقية وأقامية واللاذقية .. وأضحت هذه المدن على شواطئ المتوسط الميدان الذي تلاقت فيه الحضارات والثقافات وتفاughtت وانتسبت من تفاعلها فيها وفي الشرق الأدنى القديم كلـه الحضارة الهلنستية التي طبعت البلاد بطبعها حتى العصر الروماني .

★ ★

هذه بعض ملامح هذا التاريخ القديم الفتني العاـقل في الساحل السوري الذي يقى على مرّ الزمن بين البر والبحر جسراً للحضارة الإنسانية المتعددة ومنارة مشعة لا ينكـارـتها ومنجزاتها .

الحواشى : □

- ١ - اسطورة بعل ويل ، عن كاكر وستنر ، نصوص آماريتية (بالفرنسية) . نقلنا الى العربية بعض مقطاطع الاسطورة .
- ٢ — F. M. Cross, Canaanite Myth. and Hebrew Epic. Harvard - Cambridge, 1973.
- ٣ — J. B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts relating to the O. T. Princeton, 3rd ed.
- ٤ - ٥ - كاكر ، الكوليج دوفرانس ، الحاضرة الاقتاحية ص ١٣ .
- ٥ — J. Bottéro, La naissance du Dieu, Paris, p. 53.
- ٦ — L. Oppenheim, La Mésopotamie, Portrait d'une civilisation, Paris. p 1970, p. 193.
(الطبيعة الفرنسية)
- ٧ — E. G. Simple, The Geography of The Mediter. Region, its relation to the Ancient History, London, 1932.
٨ - انظر موسوعة الاسلام (بالفرنسية) الجزء الاول ص ٩٦٧ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب .
٩ - انظر : Cham et Canaan dans Revue de l'Histoire des Religions 1909, 1, p. 226; Syria p. 314;
R. Dussaud, La Top. Hist., p. 5.
- ١٠ - انظر دوسو ، المرجع المذكور ص ٦ - ١٤ .
- ١١ - انظر : P. Garelli, Le Proche-Orient Asiatique II, p. 62

★ ★ ★

أهم المراجع : □

- ١ — A. Caquot et M. Seznycer, Textes Ugaritiques, Paris.
- ٢ — J. B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts relating to the O. T. Princeton, 3rd ed.
- ٣ — J. Bottéro, la naissance du Dieu, Paris.
- ٤ — L. Oppenheim, La Mésopotamie, Portrait d'une civilisation, Paris (traduit de l'Anglais), 1970.
- ٥ — E. G. Simple, The Geography of the Mediter. Region, its relation to the Ancient History, London 1932.
- ٦ — Encyclopedie de l'Islam.
- ٧ — R. Dussaud, la Topographie historique de la Syrie antique et medievale. Paris, 1927.
- ٨ — P. Garelli, le Proche-Orient Asiatiques II, Paris.
- ٩ — S. Moscati et M. Chehab, les phéniciens, Paris.

أضواء

على أوغاريت والكتغانيين

من خلال مكتشفات رأس ابن هاين

د. عَدْنَانُ الْبَّتِي

التنقيب الأثري ترقى علمياً ولا هوادة للتبرويح عن النفس . وليس **لنس** هو ، كما يزعم البعض ، نبش تراب ونقل حجارة . إن التنقيب الأثري الحديث ، المغير عن هوس الكثوز وتأويل الرموز ، هو قبل كل شيء عملية حضارية منهجية بالغة الأهمية ، همها الأساسي بناء التاريخ وترميم أحداثه وجلاء فعالية الإنسان والجماهير ، عبر التاريخ ، في خلق التركيبة الحضارية التي وصلتنا ناضجة دانية القطوف .

إن هذه التركيبة العظيمة التقييد الكثيرة الوجوه هي موروثة وموروثة ، ومهمة الأثاري ، المنقب أن يفك عناصرها ويضعها في مواضعها المصوّحة من الزمان والمكان . وبقدر ما هي مهمة الأثاري المنقب انسانية كونية بقدر ما هي قوية ووطنية . ففن جلام الأحداث والكتونات يمرّف الأثاري عملية الأخذ والعطاء بين الأمم والشعوب . ويعرف وبالتالي نصيّب أمته ووطنه في تكوين الحضارة ، ويعرف المدخرات الوفيرة التي تركها السلف في صرح البنية الحضارية الشاملة .

إذا نبش الأرض وثير الفبار حقاً ونتحقق به . ولكن لهيف جليل وأمر نبيل ويسمّد الأثاري بأن يكون أول من يرى وأول من يسمع أحاديث الأرض العجيبة ومنذ قرابة خمسة عشر عاماً نتحادث مع الأرض الطيبة في رأس ابن هاني الجميل ، وقد ملأنا من ذلك الحديث حتى الان صفحات وصفحات بلغة أثرية أكثر الأحيان ، وطال البعض أن يصفني . وأأسف البعض الآخر فاستقلق الحديث عليه . ونحن ثود هنا أن نحاول ، أقول نحاول ، أن نلقي أضواء جديدة على عظام رأس ابن هاني في جلاء التاريخ الأوغاريتي خاصة والكتمعاني هامة وما وراء هذا وذاك أحياناً .

رأس ابن هاني بقعة من ارض هذا الوطن تبدا قصتها في الزمن الجيولوجي الميوسيني او الايوسيني قبل الدور الرابع المطوري . غاصت هذه البقعة تحت الماء وقطعت عن اليابسة ثم اصلت مرة اثرة وتحولت مراراً من جزيرة لشبه جزيرة . ان الاحداث الجيولوجية والجيومورفولوجية قد لا تعيينا كثيراً في هذا المقام ، الا انتا تقول ان مسح الاحداث هنا قد تركت فيه عصور ما قبل التاريخ ما جرف بعيداً او غاص تحت المروبيات ، وآخره ما جاء في مختلفات المعرى العربي الحديث مع مخلوقات الانسان من بيئته نهرية قرية . وقد حدث هذا في ازمنة لاحقة لا يمكن تحديدها بدقة .

ومما جلبه الانسان الى هذا الرأس من جهات الشاطئ فخاريات من النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد ، قادت بعثتنا الى تتبع آثارها حول خليج القبان ، بعدة اسياط في جهات الشاطئ ، الازرق نفذت اعمها الاستاذ ميشيل مقتسي في ١٩٨٧ ، حيث ظهرت معالم مكن على خط الشاطئ الاقدم ، معاصرة لأوغاريت الثالثة وبلا . وتدل هذه المعالم على اعمار هذا الساحل في ذلك العصر ، الامر المؤيد للعلاقات المبكرة ، ليس مع الرافدين فحسب ، بل مع بحر إيجه ومصر ، فسكان الساحل الكنمانيون كانوا رواداً في ركوب البحر وماراثهم كانت ناشطة منذ ذلك الدين في التصدير والاستيراد . وذلك يعزز التفكير بيريموتا مرفاً في موقع اللاذقية وورود اسمها في أيام سرجون الاكادي(١) . وفي هذه الفترة التي تقع في النصف الثاني من الالف الثالث ق.م (اي القسم الآخر من عصر البرونز القديم) نشأت العلاقات بين الساحل السوري وبحر إيجه . ويرى البعض ان المبادرة أتت من كريت الناشئة(٢) ، لاعاجتها لبعض المستورادات من بلاد الهلال الخصيب . وقد كانت المبادرات مع بحر إيجه ومع كريت بالذات تتم عن طريق الساحل الشمالي . ثم ان تجارة مصر الخارجية ايضاً كانت متركزة على سوريا لتنفي ارضها وأهميتها دورها كنقطة تلاق(٣) . وفي اعتقادنا ان التجارة المصرية الایجية بدورها كانت تتم عن طريق الموانئ الكنمائية الشمالية لصعوبة اجتياز البحر مباشرة ، ولضرورة الاقتراب اكثر ما يمكن من بحر إيجه مع عدم المغاطرة بالابعد عن الشاطئ كثيراً وفي هنا المعن يقول البعض : « ان المر الشرقي الغربي من سوريا الى قبرص وكريت وصقلية هو على الرابع قد يجد(٤) » . ان هذا الزمن المعاصر لا بلا وأكاد فترة هامة في تطور سوريا وامتداد علاقاتها مع الرافدين والأناضول وبحر إيجه وازدهار التعدين فيها وصناعة النحاس والبرونز والمادن الشديدة وصناعة الأسلحة وآلات الادوات وعناصر الزينة(٥) .

ولكن المرء يتساءل لم تأخر النشاط الاستيطاني في رأس ابن هاني نفسه حتى اواخر عصر سلالة اوغاريت ، اي حتى القرن الثالث عشر ق.م بالتحديد . والجواب مرتبط بمعرفة مورفولوجية الشاطئ في تلك الارجاء . فمن المرجح ان خليج القبان كان يتصل بخليج الخضر في قوس واسعة ، وان الرأس كان خلال عصر البرونز الوسيط ، جزيرة منقطلة عن اليابسة او حتى أنها غائصة كلياً تحت الماء .

وفيما نعلم ، لم يشهد رأس ابن هاني شيئاً من احداث الشطر الاكبر من الالف الثاني ق.م ، فكانت مراكز أخرى في مملكة اوغاريت شواهد على علاقات مملكة اوغاريت بمصر تارة ، وبالعشرين تارة أخرى ، وبسورية الامورية وبالمورين الميتانين بين هذا وذاك ،

الى أن يبدأ الاستقرار النسبي الذي عرفته سوريا وشرقى المتوسط بسبب التوازن الذى حصل بين القوتين المصرية والعثمانية إثر انتهاء حصر الاصلاح الدينى فى مصر ، خلال فترة الاصلاح الدينى (القرن الرابع عشر ق.م) وقع قسم هام من سوريا في يد العثمانيين . ثم حصلت بعد ذلك معركة قادش غير الخامسة بين العثمانيين والمصريين . وتوطيد السلم بتقاسم النفوذ فرف الساحل الكثيعانى فترة ازدهار وقامت المبادرات التجارية مع مصر ومع الدولة العبرية المسيحية ، حيث نجد الأثر المصرى واليسوعي في الفن الأوغاريتى وفي عمارة المدافن والتحصين ، كما أن السوريين والمنتجبات السورية قد غزت مصر مع المعتقدات السورية والمسلطات الفنية ، خاصة في الحرف المشغولة ، وكان من العرفيين السوريين « صناع العربات والاثاث ، والتجارون »^(٦) .

وفجأة . وفي بعـر القرن الثالث عشر قبل الميلاد (أواخر عصر البرونز الحديث) تنهض في رأس ابن هاني على مرمى البصرمن وأغاريت ، مدينة أوغاريتية الريادة والتحصين والتقاليد الدفنية، كثعانية اللسان، تتمدد على اليابس الأكبر من القسم الصخري العالى من الرأس تحمل في الأرجح اسم أوغاريتيم (أوغاريت البحر)^(٧) أو اسم الثو (وتعنى الأنف) ، ولربما اسم بيروقى (وتعنى الآبار)^(٨) ينشئها أحد ملوك أوغاريت أمشترو الثاني وتقيم فيها ، أو في أحد قصورها ، أمـهـةـ الـلـكـةـ الـأـمـرـيـةـ الأـصـلـ أـعـتـ ملكـيـ . انهـ والـحـقـ لـشـرـوـعـ ضـخمـ اـسـتـهـدـفـ اـقـاـمـةـ مـدـيـنـةـ مـلـكـيـةـ فـسـيـعـ الـأـرـجـاءـ مـنـيـمـةـ الجـانـبـ ، بـعـدـ آـنـ صـاقـتـ أـوغـارـيتـ بـمـاـ رـحـبـتـ وـتـكـاـكـتـ بـيـوـتـهاـ وـتـرـاكـبـ .

وإذا كان قد حصل في الرأس . طبيعياً ، ما يسهل السكن فيه ، فإن ثمة أسباباً كثيرة أخرى ، غير ضيق المساحة ، اقتضت الابتعاد عن المعاشرة . وهي قد تكون من طبيعة سياسية (نزاع بين مختلف الولايات) واجتماعية (تعلق بالتشكيلية الطبقية والطابع الكوزموبوليتى للالمعاصرة) واقتصادية (اعقبت فترة العد الأقصى من الجهد الاقتصادي والسياسي فترة أزمة لها أسباب داخلية ودولية) وذلك كلـه ، فضلاً عن الزراع العاد داخل البلـاطـ وـنـزـاعـ الـأـخـوـةـ^(٩) . ومـهـماـ كـانـ مـنـ أـمـرـ السـبـبـ أوـ الأـسـبـابـ لـانتـقالـ الـبـلـاطـ أوـ جـزـءـ مـنـ إـلـىـ الرـأـسـ أوـ جـزـيرـةـ عـلـىـ الـبـرـ ، فـانـ الـمـوـجـودـ عـلـىـ تـعـاـشـ مـيـاـنـ بـيـانـهـ بـهـ ، فـيـ مـلـكـةـ تـعـمـدـ أـسـاسـاـ عـلـىـ التـجـارـةـ الـبـعـرـيـةـ ، لـأـمـرـ مـنـطـقـيـ وـمـعـقـولـ .

ان القصرين اللذين عرفناهما حتى الآن في ابن هاني مشيدان بأسلوب السطوح المتدرجة نحو البحر والقامة على الجدران المرتكزة على البروف المغربية . وهم موجهان بالزوايا إلى الجهات الأربع وفق الأسلوب البابلي . وفيما عدا ذلك لها كل تفاصيل العمارة الأوغاريتية في الجدران والbalconies والفتحات والفتحات والأبواب والأعمدة والتدعيم بالغش وتحصين باليول وبإنشاء شبكات المياه أخذوا مسراً .

القصر الأول : (الجنوبى) :

ذو العمارة الأضخم مفرغ من أثاثه أو مهجور أو غير مكتمل وله سور شرقى ويقابل سور أوغاريتى الغربى ويحاط به تماماً وهو يمتد حتى يشمل الحد الشرضى للبلدة الأوغاريتية ، كلـهاـ .

القصر الثاني :

بدلالة المعرفات التي عثرنا عليها فيه ، وبدلالات أثرية أخرى كان يخص ، كما ذكرنا من قبل ، الملكة أحنت ملكي أم الملك أشتمرو والثانية وما كانت تقيم فيه فحسب بل وتشرف فيه أيضاً على صناعات شئ عرفنا منها معالجة النحاس وصهره وصبه وحك وتهيئة العجارة الكريمة ونقش المعاج والمعلم . ولربما استغراج الأرجوان .

كان لهذه الملكة الصناع التاجرة جمجم صناعي يستخدم تقنيات ما كان تبرتها في أوغاريت مما قبل منها استخدام الكورن دون المسموق (إيمري) في حك العجارة الكريمة وثقبها ، ففي العجرة رقم (٤٥) وحدها وجدنا كمية من هذه العجارة المصلبة الثقيلة تقترب من ثلاثة كيلوغرام . وهناك صدى لاستخدام هذا العجر في قضيدة من بلاد الافدين تعود للالف الثالث ق.م . وكان يسمى شامو^(٩) . ومن هذه التقنيات استخدام الرصاص في تخلص النحاس من الشوائب . وكانت هذه الطريقة تعتمد على مزج النحاس بالرصاص على نار هادئة ليذوب الرصاص أولاً ويتسرّب حاملاً معه كل الشوائب . وكان الظن من قبل أن هذه الطريقة لم تعرف قبل المصر الروماني^(١٠) .

كان النحاس بعد التصفية يصب سبائك على شكل جلد ثور لتكون وسيلة للدفع في المبادرات التجارية الدولية ، ولقد عثرنا في الجناح (رقم ١٧) على أحد القوالب العجارية المخصصة لصناعة سبائك النحاس (طول العجرة ١٥٤ سم عرض ٧٩,٥ × ٦٧,٢ × ٣٥,٩ سم ويمكن أن يصنع سبيكة تزن بين ٢٠ - ٣٠ كغم) وهذا القالب هو الوحيد المعروف في العالم حتى الآن . كما عثرنا في الفرف المجاورة (رقم ١٨ ورقم ٢٦) على أجزاء من كير الأنفع والبوقنة ومن نفاثيات تصفية النحاس . وفي أيام أوغاريت ، بدهاء ، لم يكن هذا القالب هو الوحيد في رأس ابن هاني وأوغاريت نفسها وملكتها وفيه على أيام حال دلالة قاطمة على دور أوغاريت في تجارة المعادن وانتها لنعرف مثل هذه السبائك بين هدايا الكتالينيين لفرعونة^(١١) مصر الذين كانوا يعتمدون على قبرص وعلى منطقتنا في الحصول عليه حين كان النحاس آثناً بعد مزجه مع القصدير وغيره المادة الأساسية لاستصنان السلاح وكل اللوازم المدنية للعمل والعيش فضلاً عن قيمته كنوع من النقد . ونظراً لأهمية النحاس فإن معالجته وصبه كانت منه نبيلة على جانب كبير من الأهمية حتى أنها في قبرص كانت تتم في الماء وبعمادة رب خاص^(١٢) .

ان قبرص جزيرة النحاس ومناجمه ، ومنها اشتقت اسمه Kyprus . ولكن في القرن الثالث عشر ق.م كانت صناعة صب قوالب النحاس فيها تعاني من أزمة تعطل تام ، وتتجدد ملك مصر رعمسيس الثاني (١٢٩٠-١٢٤٦) يطلب كمية غير محدودة من النحاس من ملك قبرص ، الذي يجيبه ولا تستأْ من قلة النحاس فمتند قضى الطاعون في بلادي على الناس لم يعد هناك من يصب النحاس^(١٣) .

كانت مملكة أوغاريت وقتئذ ، وبخاصة مدینتها البحريّة الجديدة ، في طليعة مزودي النحاس في شرق البحر الأبيض المتوسط وانتها نرى الملك الأوغاريتى أشتمرو الثاني يذكر

مودة أحد مراكبه من بلاد لا يمكن أن تكون إلا كابيتوري أو كفتور (كريت)^(١٤) . وإن المرء ليستنتاج أن مثل هذه المراكب كانت تعمل ، فيما تحمل ، النحاس . وكانت العلاقات متينة مع قبرص في هذا الوقت بالذات . وذلك يعكس صالح أساسية تتعلق بتأمين الفوازن الخام للنحاس منها بالإضافة للأمانوس^(١٥) ثم إن قبرص كانت من ناحية ثانية تقوم بدور مركز تبادل فيها تفريغ أحياناً المحمولات القادمة من مرفأه كعنان في مراكب قبرصية أو إيجية وبالعكس . على أن المركبين الغارقين المكتشفين في السواحل التركية (رأى جيليدونيا وروان كاش) اللذين كانوا يحملان سبائك النحاس كانت سبائكهما كنوعية (فينيقية) إذ أن كلها يختلف عن المعروف في قبرص واليونان وكريت .

إن المركب الغارق في جيليدونيا على الشاطئ الجنوبي لتركيا فيه ٣٩ سبيكة نحاس على شكل جلد ثور و ٣٠ على شكل عدسي و ١٩ بشكل مستطيل فضلاً عن سبائك القصدير ومحتويات معترف كامل وب المختلفة الأدوات والوزنات . وهذا المركب هو مركب كعناني غرق حوالي ١٢٠٠ ق.م ، وانتشر محظوياته جـ . باس و بـ . ثروـ كمورتون^(١٦) في الستينيات ، وقد بين المفحص الجديد لنحاس سبائك في هذا المركب الغارق أن النحاس المستخدم مستورد من مناجم شتى فالسبائك عرفت في كل المتوسط الشرقي ، من اليونان بل حتى من صقلية ومردينيا حتى فلسطين . ومن المعتدل أن هذا المركب الكنعاني كان يحمل سبائك من مصادر مختلفة . والبعض يرى أن ثمة متهددين كانوا يشترون النحاس ويبعدونه في مواقيع البحار المتوسط الشرقي^(١٧) .

والمركب الغارق في أولوبورون (قرى برام كاش على شواطئ تركيا الجنوبيه) هو من القرن الرابع عشر ق.م ويحمل أكثر من مائة سبيكة نحاس وسبائك من القصدير وعشرين قرصاً زجاجياً وستة وثلاثين جرة كنوعية فضلاً عن أشياء أوغاريتية كثيرة منها حاملة مراج ويرجع أن المركب كان ذاهباً من أوغاريت بالذات أو من مرافق مائل^(١٨) .

وطالما نحن بصدد المراكب تذكر أن مملكة أوغاريت كانت من أقوى الدول البحرينية وأسطولها البحري كان يضم حوالي ١٥٠ مركباً (ينقل بعضها ٥٠٠ طن^(١٩)) هذا وقد عثروا في حجرة المحفوظات (رقم ٢٩) في القصر الشمالي برأس اiben هاني على الرقم ١٩٨٣/٢٢ الذي يدور موضوعه حول صرف مبلغ من المال لتحرير مركب أوغاريتية محتجز في كركميش (جيابلس على الفرات) . كان لأغاريت اذن علاوة عن المراكب البحرينية مراكب على القيرات . والقيرات طريق الرافدين وسورية الداخلية وفي هذه الطريق يُنقل اللازورد والأختام (الكافشية) والماج المنقوش والعلوي وتتجمع في مستودعات أوغاريت وتسرى مع سبائك النحاس باتجاه بلاد اليونان فتعمد محملة بالغرفيات الميسينية والقبرصية الفارقة والملاي لتباع في أوغاريت والرافدين الكنعانية الأخرى والتلوج داخل البلاد عن طريق الفرات أو الطريق البرية^(٢٠) .

هذا هو حدديث أحد الرقم في محفوظات القصر الشمالي بين هاني ولكن لدينا حتى الآن مائة رقم ورقيم مسماري أوغاريتية من مدرسة الكتاب الأوغاريتين نفسها وعدد آخر من الرقم المحررة بالأكادية – البابلية أحدث ثورة في علم الأوغاريتيات . وبعضها في رأي

حجة الاوغاريتيات الأستاذ كاكو جدير بأن يبقى دوماً تحت وسادة الاختصاصين .
وهذه الرقم على فئات :

الفئة الأولى :

من اسلات بين سكان القصر وسلامة اوغاريت ومن ذلك رسالة امشتمرو الثاني الى امه احت ملكي زوجة تقميا الثاني^(٢١) . وهنا ذكر توادر اسم الملكة ثثة ذكر لكاتب الملكة وقرايبين الملكة وأرباب الملكة . وفي هذا السياق نشير للشودر على طبعة ختم للملك امشتمرو الثاني تعرفه من قبل اوغاريت نفسها^(٢٢) .

الفئة الثانية :

مراسلات مع حكام بلاد خارج مملكة اوغاريت (ملك مصر وملك المثيين مثلًا)^(٢٣) .

الفئة الثالثة :

نصوص دينية فيها معلومات جديدة عن عالم الارباب الكنعانية القديمة ، أسماء ارباب جدد^(٢٤) . وطقون جديدة وشيء من الأساطير التي كانت من مصادر الفكر الديني في المنطقة وفي العالم . وتعرف في هذا المجال ان الرفافيم هم الملوك المقدامى المؤلهون^(٢٥) .

الفئة الرابعة :

نصوص معجمية سومرية بابلية فيها قروائم موقع جغرافية وأسماء كواكب .
وثمة نصوص اوغاريتية فيها أسماء أسر وقرى وخصص السخرة الملكية وقوائم صناع
بيتهم ملتوح التغيل وحراس الرجال الرسميين .

الفئة الخامسة :

وهي أكثر ما في حجرتي المحفوظات (رقم ٣٥) و (رقم ٢٩) وهي محفوظات
الديوان التجاري في القصر ويستشف منه اسلوب العقود . وكان هذا الديوان فيما
يظهر بادارة موظف كبير يسمى ماتينتو ولعله الشخص المعروف في اوغاريت باسم كبير خدم
الملكة . وكان البيع يشهد عليه الماتينتو وهو شاهد البائع اي المؤسسة التجارية والصوري
وهو شاهد المشترين يمثل بعلي ملشع اي سيد السفع (التسليم) وثمة عربون يدفع
عربون في الاوغاريتية^(٢٦) .

وعند هذا العدد من المعلومات والاستنتاجات التي وقعن عليها مبدئياً نقف لنقول
وكيف كانت خاتمة هذه المدينة الاوغاريتية الجديدة ؟ ان الخاتمة هنا واضحة بشكل
لا يدع مجالاً للأخذ والمطام فلا زلزال ولا احداث طبيعية . والقصر الجنوبي أفرغ من
محطوياته او توقف إكماله او تدميره . وليس فيما تبقى منه ما يدل على انهيار او
بورار ولا نظن شخصياً أنه أحرق . ولعلم هجره تم بنصيحة ملك قبرص (الاشيا) الذي حذر
ملك اوغاريت من غزو شعوب البحر^(٢٧) . وإذا كان القصر الجنوبي قد انفرد فإن القصر
الشمالي وقع فريستهم فهاجموه ونهبوه وأحرقوه ، وحرقوا أراضيات غرفه بعثاً عن

الطمائر . وأثار الحريق وانسحنة في كسوة الجدران والأرضيات وفي العشب المتفعم والرقصاص النداب (٢٧) . فمن هم شعوب البحر؟

إن اسم «شعوب البحر» أطلقه المصريون على جماعات تعركت من جهات بحرية (هي دولة ميكيني وما جاورها) وكانت تضم مغاربة آشداء منظرين تسبباً استطعوا مسلكة العثيين ومملكة كركميش ومملكة أوغاريت ومداشر الساحل السوري ووصلوا مصر في عهد رمسيس الثالث فباهى هنا الفرعون بردهم إلى فلسطين ، وملأوا بغارتهم ، نقشاً وكتابة ، معبده المعروف في مدينة حابو قرب طيبة وترك عنهم كذلك كتابة في معبد الكرنك . وقد ذكر من جماعاتهم البيليست ، أي الفلسطينيين ، والتيسير والشبيكيليش والدنبين واللوبيوش . وتتوسط أشكالهم من نقوش معبد مدينة حابو مع أسرهم وجماعات منهم قائمة برأ في عريات تجدها الثيران . وثمة تفاصيل عن كل جماعة ، من حيث ازياؤها وسلحها وعرباتها وقطعنها الخ .. لقد شكلت جماعات شعوب البحر في فلسطين اتحاداً له عواصم خمس وصنوا العبرانيين عن الساحل ، وكانوا مهرة في التدريب وفي ركوب البحر والقرصنة . ويصنفون نماذج متاخرة من الفخار المسيحي .

إن جماعة شعوب البحر هاجمت أوغاريتاً ودمّرتها جزئياً أو كلياً . كما هاجمت عاصمتها البديدة في ابن هاني . ولكن المهاجمين رحلوا عن أوغاريت فيما يظهر واستقروا في رأس ابن هاني في بيوت تختلف من حيث القياس والمخطط عن المأثور في مملكة أوغاريت ، ولا مشيل لها على الساحل السوري ، بينما طرق تعماد بزوايا قائمة ويفصلون أو يصنع لهم فخار بخاصة من النوع المعروف باسم ما تحت المسيحي (III C 1) مما يشير على اثناله في السونان وقبوس (أنكمي وكيتيون) وطرسوس (في الأنضول) وأشدوود وعسقلان في فلسطين . هذا الفخار من مطلع القرن الثاني عشر ق.م (قد يكون الفخار غير مستورد ولكن الفخاريين مستوردون) كما أن لدى السكان الجدد في ابن هاني نوعاً من الفخار ذي اللوتين يشبه الفخار الفلسطيني المعاصر له وخاصة المزينة باتفاق الدوائر المشتركة في المركز .

أصبح من المؤكد أن بعض أنواع «شعوب البحر» القادمة برأ وبرأ والتي تركت في أوغاريت سبع الدخان استقرت بعد النهب والحرق في بعض أطلال المدينة الاوغاريتية في رأس ابن هاني ثم ابنت فوqua بيتوها الخاصة . وهناك صنعت «خراوفهم» أو كلعوا صناع الفخار الكثمانين المحليين صنع فخار على ذوقهم من النوع المعروف باليسيني (LH III C 1) .. إن منطقة سوريا الشمالية الساحلية وقبرص وفلسطين تأثرت بشكل متزايد تدريجياً وتولدت فيها فئران جديدة من الفخار أن لم تكونا متماثلين فانهما متشابهتان جداً ومتاثر كل منها بالوسط الكثمانى الموجود فيه . أن هنا الوسط الكثمانى آثار شعوب البحر تاماً واستمر في سيره العضاري وازدهر من جديد في أرواد وصيادة وصور وفي قرطاج وعالم المتوسط حتى أسبانيا وعلم كل البحر المتوسط الأمس الرئيسة لحضارة اليوم ، وظل يحمل اسم كثمان حتى العصر الرومانى .

واخيراً ان رأس ابن هاني ، كما يبدو لنا هو في المكان الاول من حيث الأهمية لعمق المعرفة باوغراريت ودولتها ولتصور أثري وتاريخي صريح للساحل الكنعاني ولمنطقة البحر المتوسط .

ومن النادر ان نصادف في آسيا الغربية موقعاً يمكن أن يتبع الآثاري فيه شريحة متماسكة وكاملة وموثقة تبدا من النصف الثاني للالف الثاني ق.م على الاقل) وتستمر حتى القرن السادس الميلادي ويضم بعض السويات المجهولة تماماً في أكثر الواقع المعروفة حتى الآن في بلادنا .

★ ★ ★

العواشي :

- ١ - رابع : G. SAADE, *Histoire de Lattaquieh, Ramitha, Damas* (1964)
- ٢ - H. KLENGET, *Near Eastern Trade and the Emergence of Interaction with Crete in the Third Millennium*, In "Studi Misenini Egeo-Anatolici", Fasc. XXIV, Roma (1984), p. 17.
- ٣ - المراجع السابق من ١١ - ١٢ .
- ٤ - N. K. SANDARS, *Les Peuples de la Mer*, Paris (1981), p. 21.

وهو مترجم عن الانكليزية وقد صدر في لندن ١٩٧٨

- ٥ - J. C. COURTOIS, *Ugarit dans Supplément du Dictionnaire de la Bible*, pp. 1147-1148.
- ٦ - P. MONTEL, *Les Reliques de l'Art Syrien, dans l'Egypte du Nouvel Empire*, Paris (1931), pp. 163-164.
- ٧ - D. ARNAUD, *La Lettre Hani 1814 et l'identification du site de Ras Ibn Hani (Syrie)*, Syria, LXI (1984), p. 15-23.
- ٨ - صفية سعادة ، اوغاريت ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨٨ - ٩٠ والمراجع التي استضافتها في العواشي .
- ٩ - P. BORDREUIL, J. & E. LAGARCE, A. BOUNNI, N. SALIBY, *SRAI*, avril-juin (1984), pp. 413-414.
- ١٠ - المراجع السابق .

- ١١ - في القبور المصرية مشاهد لسورين وابعين يعملون سباتك شكلها مثل جلد الثور ومن ذلك مشهد من قبر الوزير (دح من درع) من عهد تحتمس الثالث (القرن الخامس عشر ق.م) .
- ١٢ - فقد وجد في تلك المقابر كثير من البوائق ومن الغيش والرماد المختلف من صهور للزلازل الرصاص راجع المرجع المذكور من قبل N. K. SANDARS, p. 40 .

وعن رب السباتك يرجى :

H. G. BUCHHOLZ & V. KARAGEORGHIS *Altgais und Altkypros*, Leipzig (1972), able. 1741

13— N. K. SANDARS, p. 45.

14— N. K. SANDARS, p. 38.

١٥ - ان التعاليل التي اجرتها لنا غال من جامعة اكسفوردوسفicker من جامعة اولتن في المانيا الاتجادية تدفع للاعتقاد بأن
فيبرس كانت المورد الاول للمواد الخام على ان البرمن ليست سوى امتداد لجبال الامانوس .

16— M. A. EDEY and the Editors of Time and Life Books, *The Sea Traders*. (بدون تاريخ)

17— R. MADDIN, J. D. MUHLY & T. STECH-WHEELER, Research at the Center for
Ancient Metallurgy, "Palaeorient" 6, (1980) 1981, p. 111.

١٩ - . N. K. SANDARS, p. 38 . على انتها قرئي التعلق في قبول هذا الرقم .

٢٠ - يقول كلنفلد : ان العلاقات بين الشرق الادنى وبعر ايجي بلغت ذروتها في عصر البرونز العتيق ، عندما تسللت ميكيني
الدور القيادي الذي كان لكريت ، وعندما أصبح المتوسط الشرقي مركز الاختناك السياسي والنمو الاقتصادي
والتبادل الثنائي . H. KLENGEL, *The Eastern Trade*, p. 17.

٢١ - سنتوية الكوليبيج بوفارنس (١٩٧٤) من ٤٨٤ الرقم رقم ١٢/١٩٨٧ وآخر شيء في هذا الصدد هو قيد الطبع في مجلة
سوريا .

22— P. BORDREUIL, *Le Sceau nominatif de AMMIYIDTAMROU roi d'Ougarit Syria LXI*
(1984) 1-2, pp. 11-14.

٢٢ - الرقم ٣/١٩٧٨ وفيه ذكر لاوغاريت البحر .

٢٤ - الرب شنديتش (الرقم ٢١ ١٩٧٧) والرب الاب (الرقم ٦/١٩٧٧) .

٢٥ - الرقم ٨ ١٩٧٧ .

٢٦ - جان توغايزيول ، اوغاريتيكا ، ١٩٦٨ (مراسلات ملك البرمن و ص ١٩٥ . ومن أجل مزيد من المعلومات عن غزو
شعوب البحر يرجى تقريرنا عن التنقيب في اين هاني ، سوريا ، ص ٥٦ (١٩٧٤) ص ٢١٧ - ٢٩١ .

٢٧ - ونجد ملك اوغاريت يقول ان المراكب المنورة وصلت واشتعلت النار في مدنى والحقت اضرارا كثيرة بالبلاد . اما
كنت تعلم يا ابي ان كل قواتي مصكرة في بلاد الحشين وان كل مراكب في كيليكيا .. لقد تركت البلاد تلائى مصيرها :
تأمل يا ابي سمعة مراكب عدوة رست وسببت اضرارا ماحشة وهناك اذن مزيد من المراكب العلوة .. اعلمني ماذا
اصنع او على الاقل لا تدعش اذا حصل المزيد (لم تتم الرسالة ، وبالتالي حصل الهجوم العام وقضى الذي قضى) .



المحات .. من أدب أواخر العهد العثماني في مدينة حمص

عبدالله نبهان

هذه بقاة من الحديث عن بعض شعراء حمص في نهاية العهد العثماني، لم أشا أن تتخذ طبيعة البحث في اتجاه واحد، ولكنني أردت لها أن تكون حسوساً طائراً ولغة عابر، أنها المأمة السانح العجلان يلاحقه نفير القطار والعاج المسايرين . . فالى بعض المعالم لا كلها . . ولعل المأمة أخرى وأخرى تتبع لنا الولوج الى الغابيا والزوايا . . .

الحديث عن أدب القرن التاسع عشر في حمص خاصة وبلاد الشام عامة حيث ذو خصوصية ، فليس موضوعه ذاك الموضوع الممتع المشوق ، ولا أفقه ذلك الأفق الرحيب المترامي الآفاق الذي يجذب اليه المتشوق الظاهري ، وليس فيه تلك الومضات الذكية الرائعة التي تعجب بها العقول ، ولا تلك الموطن الدافئة التي تستكين اليها النفوس .

هذه الأحكام السلبية التي بدأت بها كلامي قد تكون صادقة على العموم ، ولكن أيضاً قد لا تكون شاملة على الرغم من صدقها، فالباحث لا يمكن أن يفقد في خضم ذلك الأدب بصيص نور هنا وقبساً من النار هناك، وإن من الصغر لما يتغير منه الأنهار . . وإذا كنا لا ننتظر أنهاراً ولا سواعي تتغير من شعراء ذلك القرن ، ولا نتوقع بزوغ شموس منهم في سماءات الشجر وأفاقه . . فانتنا لا نندم لديهم بعض الدفع والأخلاق نلمسه ونحسه في مقطوعات من شعرهم وخاصة في شعر التوسليات والمداائح النبوية والقصائد ذات المتن الصوفي .

ونعود الى مدينة حمص والى تاريخ الأدب فيها : يخبرنا الأستاذ المرحوم رفيق فاخوري(١) في مقالة له أن النشاط الأدبي بدأ يدب في حمص منذ عام ١٩٣٠ أو قبله بقليل ، أما الزمن الذي سبق هذا التاريخ فقد وجد فيه أدب لا يسمى على مستوى الأدب

العشاني ! لا بقدر ٠٠٠ فالقلم والكلفة يسودانه ، وربما فضله أدب عمر الانحطاط من حيث الشكل وسلامة التعبير^(٢) . ويمكن أن نضيف إلى قول الأستاذ الفاخوري قوله : إن تفاحة الموضوعات هي غالباً ما يتسم به شعر تلك المرحلة وأدبها إلا ما نجا لسبب أو آخر .

ومن الجدير بالذكر هنا أن شعر شعراً حصرياً في تلك المرحلة من الصعب جمه ، فباستثناء ديوان الشيخ أمين الجندي وديوان مصطفى زين الدين لا يوجد بين أيدينا أثر آخر مطبوع إلا ما قام بنشره ميخائيل بطرس معماري من شعر بطرس كrama (٣) وابراهيم العوراني^(٤) . ولم أقف عليهما ، أما الآثار الأخرى فهناك ديوان تام حصلت على مصورة له من الظاهرية بدمشق وهو ديوان محمد درويش عجم^(٥) ، وهناك ديوان عمر نبهان الموجود لدى مخطوطاً . وأخبرني الأستاذ عبد المعين الملوي أن لديه مخطوطاً يشتمل على شعر الشيخ ذكرييا الملوي ولم اره . . . أما صائر القصائد لسائر الشعراء فهي موزعة في كتابات لدى الأسر ، وبعض الأسر ضئيل بها حريص عليها . . . ولكن ذلك العرص لا يستمر في الأجيال الجديدة ولا ينتقل إليها . وقد يكون الحق إلى جانبها - مما يؤدي إلى ضياع كثير من آثار شعراء المدينة في ذلك العصر واندثار أخبارهم .

ومن الملاحظ التي يجب تقديمها أن أولئك الشعراء كان جمهورهم من فئة العلماء ، علماء الدين ، الذين لهم مشاركة في عدد من فنون العلم ذات الفقه والأصول والمنطق والقراءات . . . وكان الشعر لديهم مظهراً من مظاهر البراعة والتميز من الآخرين . . . فالشيخ العلامة خالد الأتاسي^(٦) معروف في تاريخ الفقه والقانون بشرحه المظيم للملحق^(٧) ، ولكنه كان يقول الشعر ، والشهيد عبد الحميد الزهراني معروف بعمق ثقافته العميقة والفلسفية والفقهية والسياسية وكان يقتول الشعر وقد يرتجله ، وعلمت من الشيخ ان له ديواناً اتلف برميه في البئر لدى مدامعه الأتراء لبيته . . . وقل مثل ذلك في سائر الشعراء في تلك المرحلة ، فقد كان معظمهم من حملة العلم ونقائه وملقبه إلى الأجيال التالية ، ولم يكونوا من الشعراء أصحاب الرواية النقادية الخلاقة ولا من أصحاب الريادة والإبداع . . . وأرى أن مثل هذا الحكم لا ينطبق على حمصن وحدها وإنما يمكن تعبيمه على بلاد الشام ، فقد كان الشعر العربي التلائقي مقدماً إلا من بعض الومضات ، وكانت سوريا كما يقول الأستاذ أحمد الجندي^(٨) : عالية الثقافة الأدبية والإنتاج الفني على مصر ، ومرتبطة بها ارتباطاً أدبياً وثيقاً ، ولم يكن لدينا شاعر يحسب حسابه ، وشعراؤنا آنذاك لم يتأثروا بأحد ولم يؤثروا في أحد ، بل كانوا ينضجون من ذاكرتهم ما وعت من المغزولات ينظموها مجدداً . . . أو في قالب آخر دون أن يتکلفوا ايراد معنى تقني أو خيال طريف . . . لأن الهمامون الشعري كانوا مقصوصون الجناح مهيباً لا يستطيع الارتفاع والرسو إلى الأجراء العالمية ، فكلهم قد تعلموا النظم ، ولكنهم لم يلهموا الشعر ، لذلك يمكننا أن نجد عشرين واحداً منهم من يجيد النظم ، ومع ذلك قد لا نتعطى بقصد واحدة لهم جميعاً تستحق تسميتها بالشعر . ولكن إذا كانت هذه الأحكام صحيحة أو على قدر

محدود من الصحة فـا فائدة تتبع أخبارهؤلاء الشعراء وما الغاية من الاهتمام بـشعرهم
أو الكتابة عنـهم ؟

والجواب : ان ذلك الجيل يمثل حلقة من حلقات تاريخنا الأدبي قد تعجبنا او لا
تعجبنا ولكنها كانت حقيقة واقعة فهي تستحق التسجيل والحفظ والبحث والدرس ولها ما
لها وعليها ما عليها ، وهي على ذلـكـ حـالـ كـانـتـ مـرـأـةـ لـعـصـرـهاـ ،ـ وـاـذـ كـانـ ذـلـكـ المـصـرـ
يتصف بالخـودـ وـالـخـسـولـ فـمـنـ اـيـنـ التـالـقـ وـالـصـفـاءـ ؟

ويجب أن نذكر أن شعراءنا في تلك المرحلة كانوا علماءـ شـعـراءـ فيـ عـصـرـ يـعـزـ فـيـهـ
وـجـوـدـ الـقـارـئـ الـكـاتـبـ رـبـماـ فـيـ حـيـ باـكـمـلـهـ أـوـ فـيـ أـمـرـةـ يـقـضـيـهـ وـقـضـيـهـ .ـ فـاثـارـهـمـ اـذـنـ
هـيـ مـنـ أـمـمـ مـاـ تـبـقـىـ لـنـاـ مـنـ اـثـارـ عـقـلـيـ لـجـيلـ كـاملـ .ـ زـدـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـ كـثـيرـاـ مـنـ الـاحـدـاتـ
الـمـحـلـيـةـ كـاـقـامـةـ بـنـاءـ مـاـ أـوـ مـجـيـعـ وـاـنـ أـوـ رـحـيـلـ بـاشـاـ أـوـ حـدـوـثـ شـفـبـ .ـ ذـلـكـ كـانـ
يـسـجـلـ فـيـ الشـرـ .ـ فـشـعـرـهـ بـغـضـنـ النـظـرـ عـنـ قـيـمـتـهـ الـأـدـبـيـ يـتـضـمـنـ فـوـائدـ تـارـيـخـيـةـ وـاجـتمـاعـيـةـ
وـأـثـرـيـةـ .ـ هـذـاـ وـلـلـلـمـنـ وـلـجـنـاـ حـرـمـ اـوـلـنـكـ الشـعـراءـ وـمـخـالـطـتـنـاـ لـشـعـرـهـ سـيـعـدـلـ مـنـ اـحـكـامـناـ
بـاـيـجاـزـ عـنـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـ ،ـ وـسـأـبـدـاـ بـاعـرـفـهـمـ وـأـكـثـرـهـمـ شـهـرـةـ وـشـيـوـعـ ذـكـرـ ،ـ أـعـنـيـ بـالـشـيـخـ
أـمـينـ الـجـنـدـيـ .ـ

□ الشيخ أمين الجندي :

ولد في حمص عام ١٧٦٦ م وبها تلقى علومه الأولى على الشيخ محمد الطيبى والشيخ
يوسف الشمسي ، وتابع تعصيله في دمشق على يد عدد من علمائها كالشيخ أحمد
العطار وعبد الرحمن الكزبرى وغيرهم ، ولهـمـ قـصـائـدـ مدـيـعـ رـنـانـةـ .ـ وـعـرـفـ الشـيـخـ
بتـعلـمـهـ بـالـكـيلـانـيـ وـمـدـيـعـهـ لـهـمـ .ـ وـلـمـ جـاءـ اـبـراـهـيمـ بـاشـاـ سـنـةـ ١٢٤٧ هـ قـرـبـ الشـيـخـ
أـمـيـنـ إـلـيـهـ وـجـعـلـهـ نـديـمـ ،ـ وـكـانـ اـنـشـيـعـ يـنـظـمـ القـصـائـدـ مـصـورـاـ اـنـتـصـارـاتـ اـبـراـهـيمـ بـاشـاـ
وهـزـانـ الـأـتـرـاكـ (١٠)

هـذـاـ وـلـاـ فـاضـ جـورـ التـرـكـ فـيـ
ظـلـمـ الـعـبـادـ وـصـارـ اـمـرـاـ مشـكـلاـ
وـتـقـاهـرـ اـعـمـالـهـمـ بـمـقـاصـدـ
وـمـظـالـمـ وـحـوـادـثـ لـنـ تـقـبـلاـ
لـنـ تـقـبـلاـ فـيـ حـكـمـهـمـ ذـاـ نـعـمـةـ مـتـمـوـلاـ
سـلـبـواـ الـبـلـادـ مـنـ الـعـبـادـ فـلـاـ تـرـىـ
وـالـمـلـكـ مـلـكـ اللهـ يـؤـتـيـهـ الـذـيـ
قـدـ شـاءـ لـاـ هـوـ بـالـوـرـاثـةـ وـالـوـلـاـ
مـنـ يـغـيـرـ الـأـتـرـاكـ أـنـ جـيـوشـهـمـ هـنـزـمـتـ وـاـنـ «ـ حـسـيـنـهـمـ »ـ وـلـئـيـ الـىـ

وـقـدـ لـاـ تـكـونـ لـهـاـ الشـعـرـ أـهـمـيـةـ فـتـيـةـ ،ـ لـكـنـ الـخـطـورـةـ فـيـ آنـذـاكـ وـالـأـمـمـيـةـ الـكـبـرـىـ
أـنـ انـكـرـ حـقـ الـأـتـرـاتـ فـيـ الـحـكـمـ وـجـعـلـهـمـ مـنـ الـمـقـصـيـنـ لـهـ وـمـنـ الـمـرـفـيـنـ لـكـتابـ اللهـ ،ـ وـقـرـدـ
أـنـ الـحـكـمـ اـنـمـاـ هوـ لـلـعـربـ ،ـ لـذـلـكـ شـنـ حـمـلـةـ شـمـوـاءـ فـيـ هـذـهـ الـقـيـمـيـةـ عـلـىـ اـنـصـارـ الـأـتـرـاكـ

من العلماء السائرين في ركابهم ، والذين يزبون أعمالهم على أنها هي الحق
ويشاركونهم في ارتكاب المظالم :

عَلَمَا فِلْمَ تَرْقَطْ مِنْهُمْ أَجْهَلَا
وَقَضَاتِهِمْ لِلسُّبْتِ قَدْ أَكْلُوا فَهْلَا
فِي الْأَيَّةِ الْأَصْفَالِ مَنْ قَدْ أَوْلَاهَا
نَعَمْ الْغَلَافَةِ فِي قَرِيشٍ أَصْلَهَا

ولا شك أن هنا صوت نادر أنداد ، لم يقيمه القومية وإن كان فجأا من الناحية
الفنية . وقد سافر الشيخ أسين الجندي إلى القاهرة صحبة إبراهيم باشا الذي قدمه إلى
والده محمد علي باشا بقوله : اتيت لك باعهز هدية من البلاد الشامية . وانشد الشيخ
الجندي بين يدي محمد علي قصيدة امتنح بها ، ابتدأها بقوله : إنما ينزل جمع فيه ما استطاع من
السابقين :

وَغَنَتْ بِلْبِلَا وَرَنَتْ ظَبِيبَا
عَلَى الْعَشَاقِ عَضْبَا مَشْرِيفَا
تَمْنَى أَنْ تَكُونْ لَهُ مَعِيبَا
وَعَرَفَ الْمَسْكَ يَصْعَبُهَا مَلِيبَا
بِلَثْمَى نَعْلَهَا الرَّطْبُ الذَّكِيرَا
بَلَدَتْ شَمْسَا وَمَاتَ سَمَهِيرَا
وَسَلَّتْ مَنْ لَوَاحَظَهَا جَهَارَا
مَهَّا مَا وَأَهَا الْبَلْدُ الْأَ
سَرَّتْ وَالْتُورُ يَغْشَاهَا سُجَيْرَا
وَسَرَّتْ وَرَاءَهَا وَأَنَا سَعِيدَا

وبعد أن ثم نعلها وصل الشيخ إلى ما يسميه علماء البديع بحسن التخلص فانتقل
من النزل إلى المديح :

لَهُنَّ قَصْرُ حَوَى رُوضَّا يَهِيَا
بَعْنَ لَابِي الْعَسْيَنِ غَلَّا سَمِيَا
خَفَاجِيَا كَرِيمَا اَرِيَعِيَا
إِلَى أَنْ أَجْلَسْتَنِي فَوْقَ عَرْشِ
ذَكَرَتْ لَهَا الْأَفَاضِلَ فَاسْتَهَلتْ
إِمَامًا عَارِفًا بِرَا تَقِيَا

ويستمر بإثارة معاني المديح مستعرضاً ما وعنته ذاكرته . . . ولا أريد أن أطيل في
الحديث عن الشيخ الجندي لأن حياة الرجل وشعره وموافقه يمكن أن تقصـر حديثـنا عليه
وما إلى هذا قدمنا ، لذلك ساختـر حديثـي باشارـات سريـعة إلى ما أراه هاماً في شـعرـه .

لا شك في أنـ الشيخـ كانـ مشـفوفـاـ بالـجمـالـ ، ذـا قـبـرةـ رـائـعةـ عـلـىـ النـظـمـ ، ولـكـ سـلاـسلـ
التـقـليـدـ الشـعـرـيـةـ كـانـتـ أـقـوىـ مـنـ وـمـاـ وـقـعـتـ فـيـ أـغـلـالـهـ ، فـامـتـلـاـ دـيـوانـهـ بـالـتـخيـسـ
وـالـتـنـطـيرـ وـاستـخدـامـ مـصـطـلـحـاتـ الـلـوـمـ التـيـ كـثـيرـاـ مـاـ أـسـمـتـ إـلـىـ الشـعـرـ وـسـلـبـتـ تـيقـنـهـ

وحيويته .. ومع ذلك ففي ديوانه ومضات ولموسيقاه نفثات ومن هنا لا يطرأ لقول الشاعر
ترتله حناجر المنشدين :

يا غزالى كيف عنى أبعلوك شتوا شملي وهجري عودوك

* * *

قلت : رفقا يا حبيبي قال : لا فلت : داع الود، يا ديم الفلا
قال : من يهوى فلا يشكو البلى قلت : حسبي مدعى لي قال : لا

* * *

ذاب قلبي في هوبي بيض اللئمِ واستهل النعم من عيني بما
ثم ودعت حياتي اعتدسا فارقوني . يا ترى كيف السلوكِ
ومن لا يترنح مع ضربات الایقاع على قوله :

هيَمْتَسِي تَيَمْتَسِي عَنْ سُواهَا اشْغَلْتَنِي
عَاتِبِي مَاذَا عَلَيْهَا بِاللَّقَالِسِو اتَعْفَتَنِي

ولا يزال شعره يغنى حتى أيامنا ، وسمعت أن أصحاب هذا الفن في حلب يعنون
بادوار الشاعر الجندي عنابة فائقة .

وأترك الشاعر الجندي وأنتقل إلى الحديث عن شعراء لم تطبع دواوينهم ، وقد عاش
أكثرهم وتوفى في القرن التاسع عشر ، وأحد هؤلاء كان مخضراً بين التاسع عشر والعشرين ،
ولكنه في أشعاره لم يكن سوى امتداد لما كان عليه الشعر قبله على الرغم من معاصرته
لشوقى وحافظ ولذيرهم من مبدعى الشعر . وآذكراهم حسب تسلسل وفياتهم الأقدم
فالأقدم وسيكون المقدم ذكره الشاعر زكريا الملوحي .

□ ذكري الملوحي :

هو زكريا بن ابراهيم بن علي الملوحي ، ولد وتوفي في حمص ، ورجع المرحوم ادهم
الجندي ان وفاته ربما كانت بين عامي ١٨٤٣ - ١٨٤٨ م . وذكر الجندي أنه لم
يعش لهذا الشاعر الا على أبيات قليلة رواها في كتابه .

وقد ساقت إلى المصادفة كثائشاً اشتغل فيما اشتغل عليه ، على عدة قصائد للشاعر زكريا
ما جعل ... في المكان التعرج على شعره هنا الشاعر في حدود ما عثرنا عليه .

القصائد التي حفظها الكثائش معظمها من معنى صوفي ، وهي على قلتها تدل على
علو كعب الشاعر وعلى مقدرته على نظم القريض ، كما تشير إلى التأثير العريق الذي
أخذته ثقافته الدينية والصوفية في شعره .

والحق أن الشيخ كان ينهر في شعره منهاجاً مطروقاً ويسير في طريق لاحبة عبدها من سبقه من شعراء التصوف . وأتي هو ينسج على متواهم ، ويشترط أشعارهم أو يخصها ، ويستخدم أساليبهم الرمزية في التعبير عن جبه للذات الالهية وذلك بالغزل العسلي في الظاهر ، وانهاء هذا الغزل بالرماز التي تصرف الماني عن ظواهرها وتشير الى المقصود منها ، وتبعد عن الخاطر تلك المانيا ظاهرة الطافية على السطح ، ولناخذ مثلاً على ذلك بعض أبيات له من قصيدة « مد المديد » :

وجهها تعنو له الصور	ذات حسن ذكرها سكر
تعجلني حارت بها الفكر	مذ تبدلت في معاستها
يقطة يا من له نظر	ان هذا الكون مظهرها
ظاهرا ، فالمبتدأ الغبر	نسبة هذا العمال لها

فالبداية كما نرى غزليه وعادية جداً ، ثم انت التلميغات والمبارات التي تعرفنا عن الدلالات العسليه الى فهم ما يرنو اليه الشاعر وهو التقني بجمال الذات الالهية المتجلية ظاهراً في جمال هذا الكون .

ويغيل الشيخ الملوجي في معظم ما وجدناه من شعره الى استخدام مصطلحات المعلوم التي يعرفها ، ويفسح المجال لولمه الشديد بالمحسنات البديعية ، ويتقن في ايرادها ، ولنقت لنن هذه الأبيات : [من الطويل] .

وقولي له : مضناك اودت به الاها	اربع الصبا مُرْكَى على حِيّ من اهوى
معنعته عنها حديث الهوى يروى	وحييء عنی یا دیراح تعیة
وكيف عنانی عنه في العب لا يتلوی	وبثیه اشجانی ووجلی ولوعتی
وروض هجومنی کله یا پس اھوی	ایبت الیالی ساهر الطرف ساجیا
كمجنون لیلی نقارقا لا اری الصحووا	وأصبح مسلوب الجنان مولتها
غراماً بمن اضحي فؤادي له ماوى	وطور اصطباری دکه عاصف الجوى

وائز السنمة أبرز من أن يخفي ، وكان الشاعر يصوغ شعره صياغة عقلية ، فهو يمد يده الى معارفه المتنوعة يتناول منها ما يريد ، ليبني به القصيدة ، فناتي القصيدة كأنها بناء استندت حجارته من مقام مختلفة ، لكن الغاية توحد هذا التعدد ، وما الغاية هنا سوى أن الشاعر يعبر عن مواجهه بهذه الطريقة التي ارتضاهما لنفسه ، وارتضاهما شعرائه . وقدلاحظنا استخدامه لمصطلحات بعض المعلوم « معنعته ، حدديث ، يروى » ، كمالاحظنا كيف استند من القرآن سوره الطور الذي داک لئلا تجلی المربلوسى ، وأخذ من الأدب قصة مجنون لیلی الى أن وصل في النهاية الى تقرير جبه لأحبائه حتى الموت .

وقبل أن ندع الشيخ زكريا أحب أن نستمع إلى مقطوعة أخرى من شعره الصوفى :
[من الطويل] .

حبيب له بالحسن قامت شهوده
وأنهش في مجلى المال شهوده
رکوعا ، وان حيئاه طال سجوده
لاوح الها قد اشرقت شمس حسنه
واوح الها قد اشرقت شمس حسنه
فما جنت الفردوس الا لقاوه
وما النار والأهوال الا صدوده
فهل انت يا أعمى البصيرة مبشر
من الحسن ما عيني وقلبي يروده

وفي ختام حديثنا عن الشاعر نشير إلى أن الرجل كان معروفاً بلقب الحافظ لحفظه القرآن ، وكان عالماً بالموسيقى بارعاً في الخطابة ، حاضر البديهة ، له مشحات بديمة ، وقد كف بصره في أواخر حياته ، ولا يزال البعض الناس في حمص حتى أيامنا هذه يعذفون له أبياتاً في تاريخ وفاته أو ولادته أو بناء . ويبدو أنه كانت له مكانته في مدینته وكانت له مشاركة ما في الحياة الفنية آنذاك .

□ دسلان زين العابدين : (١٨٧٩ م)

انتقل الآن إلى الحديث عن شاعر آخر، عرف في حياته بالأديب ، واشتهرت اسمه بسبب لقبه بـ الأديب .

على يمين الخارج من سوق العشيش باتجاه الفرب ، وقد خلف وراءه مسجد القاسى ، وتحت أقواس عقد متداعية والآلام قليلاً تقع « زاوية » مهجورة الآن ، يتصدرها قبر الجد على زين العابدين الذي أتى إلى حمص من ناحية (أورفة) في تركيا منذ حوالي مائتي عام ، وأقام عقبه من بعده في حمص .

خلف الشيخ علي ولداً واحداً هو الشيخ دسلان الذي عُرف بأدبه وشعره ولقبه بالأديب ، وقد ذكره الوفاني (١١) في تاريخه فقال فيه : « كان رجلاً عالماً أدبياً فاضلاً عاقلاً متكلماً ، وكان شأن آثاره شأن غيره من آثار معاصريه فقد أتلت إلى الضياع ولم يقم أحد بحفظها حتى ذُرّوا فانهم لم يحافظوا شيئاً منها ، وبعد البحث والسؤال عثرت له على قصيدة واحدة لدى الأستاذ عبد المهيمن زين العابدين ، وهي مطبوعة في مصر وعدد أبياتها (٨٩) بيتاً ، وهي لا تختلف في شيء عن قصائد المديح النبوية المعروفة في تلك الأيام . فالشاعر يعشّد كل صفات المديح وأخبار المعجزات التي تنسب إلى رسول الله ﷺ ويقارنها بمعجزات غيره من الرسل ثم يفضلله عليهم ، ثم يخلص إلى الاعتذار عن تصريحه في مدح الرسول ، وتتسم تصريحه عموماً بالركاكة الأسلوبية آفة العصر آنذاك قال :

يقولون لي : تعم لنا وصف أحمدر
 فانك ذو علم ولست بعامل
 ولا تهملوا عدَّ النجوم جميعها
 فان تستطعوا عدَّها بتمامها
 فقولوا مثلي : صف لأكميل كامل
 وينتقل الشاعر بعد ذلك الى الاستفانة بالرسول متسللاً بتنسبه الشريف طالباً الرحمة
 ببركة النسب والقرابة :

ولني لفرع من فروعك سيدني
 تداركني من كيد ضدَّ مزايدي
 ثم يتسلل بكتاب الصحابة واحداً واحداً حتى يصل الى التوصل بشيخ الطريقة القطب
 عبد القادر وبسائر المشايخ كالدسقري والرافعي والبيوي الى أن يصل الى حسن الخاتم :
 على المصطفى نور البدور الكوامل
 بباب ندى المختار حطت رواحلي
 وصل الهي كل وقت وساعية
 كذا اآل والأصحاب ما قال واقع
 وكان الشاعر بهذا قصيدة يقوله :

بباب ندى المختار حطت رواحلي
 هو الحامد المعهود والعasher الذي
 فعاشا لطـهَ آن يرد لسائلـي

ولا شك أن للشيخ شعراً كثيراً بدليل شهرته بالأديب ، ولكن ليس بين أيدينا غير هذه القصيدة ، لذلك يمكننا أن نقول اعتقاد علينا : انه كان شاعراً عادياً لم يستطع ان يخرج عن ركاكتة الأسلوب السائد في عصره ، ولكنه على كل حال يبقى اسمه ابان عصره شاعراً – كانتا ما كانت نظرتنا الى الشعر – بل كانت له شهرة بذلك ونال سمعة طيبة وحسن ذكر .

توفي الشيخ رسلان سنة ١٨٧٩ ودفن بمقدمة « باب هود » .

□ محمد عجم « ت ١٨٩٤ » :

هو محمد بن عبد الرحمن عجم ، ذكره الأستاذ عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ولم يذكر له تاريخ ولادة ولا وفاة ، الا أن المؤرخ عبد الهادي الوفائي ذكر أن وفاته كانت عام ١٣١٢ = ١٨٩٤ م .

هذا الشاعر جمع ديوانه بنفسه ، وذكر في مقدمته أنه جمع شعره نتيجة للحاج
أصدقائه ، ويقول : أنه استنفت مراراً لأنَّه ليس من فرسان هذا الميدان ، لكن من قبيل
التقليد - وهذه عباراته - . ويستفاد من قراءة الديوان أن صاحبه كان يعمل موظفاً
« عدداد أغذام » وكان يعرض على مدير الرسميين آنذاك .

بدأ ديوانه بقصيدة بمدح الرسول تبركاً ، ثم انتقل إلى مدح « البكتورات » و
« الأفندية » فمن نماذج مدحه قوله يمدح محروم « بيك » بن اسماعيل « بيك » قائم مقام
حمص سنة ١٢٩٢ هـ : [من الكامل]

ان طاب عيشك بالمسرة اوصافا
قبل الفوات ، ثوات نهرا انصفا
من تمنع بل تمتع بالصفا
خذ فرصة اللذات صاح ولا تكون
ليل العنا لقدر تولي هاربا
والسحب بجاد على الرباء بطله
في بغ بغ طابت مواسم انسنا
هذا محروم قد وفي لسميه
هيئا نهنيه باسرع همة
في خير عام ياسرة قد وفي

ثم يستطرد الشاعر في ذكر صفات المدح ، فمحرم بيك ليث الشرى ودرى اللفظ
ويوسفي المسن إلى ما هنالك . . .

فإذا ما انتهينا من باب المدح انتقل بنا الشاعر إلى التشطير والتخييس والملرزات ،
ثم يلي ذلك الأدوار الفنائية ، فنستمع لديه إلى مثل هذه الأنعام : [مجزوء الرمل . . .]

يا نسيم الصبح بلئن
جريدة الشعب اليمني
حال صب مستهام يرجعي نيل الاماني

يلي ذلك باب للرثاء ولذكر العمران ، وباب للألغاز وأخر للهجاء ، وهجاؤه بذيء
اللفظ عامر الصور ، يستخدم فيه ما هيوبود من الفاظ بدئية ولعل هذا ما دفع
المؤرخ الوفاني إلى الاعجاب به فقال : « ولهمجو ظريف ». انتا أيام شاعر أنصف نفسك
وشعره منذ مقدمة ديوانه فهو يعترف بأنه يقول ما يقول من باب التقليد ، والعقيقة
أنه نظام ، ولكن ليس من المستوى الرفيع ولا الوسط . . . وقيمة ديوانه لا تتبع من قيمة
شعره ولكن من كونه يقدم لنا نموذجاً تاماً من أدب ذلك العصر ، ولأنه يقدم لنا فوائد
تاريخية تتعلق بجزئيات تاريخ المدينة كأسماء القضاة والحكام وتاريخ بعض الأبنية ، ولعله
اقتصر على ذلك ، ولكنه ملا ديوانه بقصائد ذات مناسبات تأفةه كولادة طفل أو زواج
فلان وموت فلانة من الناس العاديين الذين ليس لهم خير يروى ولا أثر يحفظ ولا عمل

يذكر . ولا ينجو شعره في أحسن حالاته من ركاكه أساليب العهد العثماني ، وقد لا يخطي مطرافة الفكرة ولكن لا يستقيم لديه التعبير عنها ، لنسمعه مثلا يقول : [من الكامل]

لو كان لي كالعاشقين عوافل
لجعلت ذم العاذلين تغزلي
ولو أنهم حشروا جيوش مكاييد
لسيت في تشتيتهم وتوصلي
لكن محبوسي تعشق نفسه
في نفسه وكذاك أعظم مشكل
قد هام في لاهوته ناسوته

فإذا ما نظرنا إلى هذه المبارات « توصلي » ، وكذاك أعظم مشكل ... الخ ،
ادركتنا ما تجنبه ركاكه التعبير على الفكره مما تكون طرائفها .

ومن أمثلة مطرزاته « والمطرزة مقطوعة من المنظوم اذا أخذت الحرف الأول من كل بيت من أبياتها تركب لديك الاسم المقصود » قوله مطرزا باسم « عارف » : [من الوافر]

وقلبي من لظى الهجران خائف
علقت بافيدي حلوا الثنبي
غزال قد حوى أنسني الطائاف
أبى قريسي لديه وصد عنى
كعييل الطرف مسلول السوالف
رنا عجبا وهز قضيب بان
فقلت له رويدك في المعنى
فانت بعاله الشاق عارف

ولا أحب أن أطيل أكثر من ذلك في كلامي عن محمد عجم ، وفي الحديث عنه متسع ولكنني أحب أن أنقل احساساً فحواه أن الرجل ربما كان يملك فطرة شاعر وتوبيه ، لكن ثقافة عصره وتقاليده الفنية كانت أقوى منه بكثير ، فسار على الدرب وقنع بالشعر صنة عقلية طريقها النظم .

وأتسامل : أيستحق ديوانه أن يتحقق وينشر ؟
أظن أنه يمكننا أن نجيب بـ (لا) فليس هناك ما يسوغ نشر مثل ذاك الشعر وقد لا يستحق ثمن الورق الذي سيطبع عليه ..

ويمكننا أن نجيب بـ (نعم) على تردد ، لأن الشعر يستحق ذلك ، وإنما البعض الفوائد التي يمكن أن يستمد شيئاً منها بعض الباحثين في أمور ذلك العصر من الوجهة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية .

□ عمر نبهان ت ١٨٩٨

هو الشيخ عمر بن عبد القادر نبهان ، لم استطع تحديد ولادته ، ولكنه بالتأكيد ولد في مطلع القرن التاسع عشر ، ولم استطع الحصول على تفصيلات تتعلق بنشأته وأطوار

حياته ، ولكن من الثابت في حبود ما ماصنعته أن نشأته كانت دينية خالصة ، يخالطها زهد وتقشف ورغبة عن متع الحياة ، كان يعمل حتى الظهر فقط ، وما بعده خصمه للعبادة وطلب العلم من افتقا أولاده الأربعه الى حلقات العلم في المسجد : عبد القادر وحامد ومحمد وأحمد ، ويبدو أنه كانت له مبادرة الى عمارة المساجد أو ترميمها ، فهناك مسجد لا يزال يحمل اسمه في « باب التریب » ، كما تدل لائحة أسماء المساجد في مديرية الأوقاف بعمر ، وهناك مسجد آخر مشهور باسم مسجد الشیخ عمر في العیدیة ، وحدثني بعضهم أنه المقصود به .

عثرت على دیوانه الصنیر مصادقة ، وقدم لدیوانه بمقدمة حمد فيها موضوع شعره فقال : « هنا ما يسر الله تعالى من مدح سید المرسلین وحبيب رب العالمین محمد ﷺ » ، وقد كان شعره منسجماً مع مقتضيه ، فلا نشی في دیوانه على بیت واحد تقرب به وتزلف الى أحد ، وله قصیدتان في مدح شیخه أحمد الاڑوادی ولیستا في حقیقتیهما الا امتداداً لمدحه النبوی وستقدم بعض نماذج من شعره قبل تقديم تعلیقنا الآخر ، قال يمدح الرسول : [من الكامل] .

<p>قلبي سوي مدح ابن رامة ما حوى وبمقدار جسم العبيب به ثوى وبمهجتي نار يؤججها النسوی (محصن) وان نسبوا لها طیب الهوى غراء فيها من تمثک ما غوى ولكل شخص في المعبة ما نوى ذكر العجاز ولا تعرّض بالنوى طه الذي ما كان ينطق عن هوی</p>	<p>قسا بمكة والخطيم وما حوى ويطیب وبالبان ثم بعاجبر كم ليلة قد بتھما متفکرا شوقا الى تلك الاماکن لا الى يا خیر مبعوث اتى بشريعة حاشا محبك ان يسوء بخيبة يا ایها الشادی - فديتك - لي اعد وأعد على ثنا اجل الانبیا</p>
--	--

ان هذا الشاعر كما نرى ينطلق انطلاقاً عفوياً في شعره لا تفلئه المحسنات ، ولا تكتبه القيود ، ولكن ما يسيء الى شعره هو تلك الرکاکة الأسلوبية التي نلمسها بين حين وآخر ، والرکاکة لا تعنى الغلط ولا تعنى العامية ، وإنما تمثل في العجز عند التصرف باللغة ، وتنشأ من عدم تمكن الأديب من اللغة التي يكتب بها لافتقاره الى معرفة أصولها وآدراك أسرارها ، ولقلة بصره بالفارق الباقیة بين لذائل المفردات ومعانی التراكيب ومناسبات الجمل وروابطها^(۱۲) ، وأول دلائل الرکاکة شعورنا بفشل الشعر الذي نقرؤه واحساسنا بأن الشاعر يرقع شعره هنا ويرفوه هناك ، فمن عبارة زائدة ، ومن قافية قلقة ، ومن ضرورة قبیحة . والحق أن الرکاکة كانت آفة الكتابة والشعر في عصور الانحدار وليس مقصودة على القرن التاسع عشر ، ولكن ربما بلغت أوجها في تلك القرون المتأخرة .

وتعود الآن إلى شاعرنا الشيخ عمر ، كثنا ذكرنا أن له قصيدة في مدح شيخه أحمد الراوادي ، وبيدو من قراءة النصين أنهما يناسبانه وصول الراوادي إلى حمص ، وهو شيخ النقشبندية ، وكان وصوه يوماً مشهوداً بليل ما ذكره الوقاني : « فصادف يوماً يان الشيخ أحمد الراوادي كان مشرقاً لحمص وحاضرأ عن طريق طرابلس من بلده جزيرة أرواد ، فغرت العالم لللاقائه ... »

وهو لقاء المشايخ يعني المتصوفة كانوا آتئوا يمتنون بسلطة أدبية واسعة ، وكانت موثلاً يحتسي بهم الناس من ظلم الحكم وعسف الأشقياء ، كما أشارت إلى ذلك حوارث كبيرة ذكرها المؤرخ الوقاني . ونسنستمع الآن إلى شيء مما قاله الشاعر في استقبال شيخه : [من الكامل]

خذ من وجوه العارفين إشارة
واسأل بهم مولاك ما ترجوه من
فهم الوسيلة في الدلتا لمن اهتوى
لما أتى (حمصا) يلدأ بدر الهنا
وانالنا من فيضه ذخراً لنسا
يوماً يرى فيه السعيد نجاته

وبشارة تنبعى من الھلكات
كشف الھموم وسائل الخيرات
وبهم نروم زیادة العسنات
فيھما واثرق طالع الشطحات
لقاءه يوم العرض في المیقات
وعليه داضر باریء النسمات

فمسيحيه لشيخه مرتبط بالمعانى الدينية ، وليس بعيداً عن المدح النبوى ، لأنه كان يرى أن شيخه سلسل النسب إلى العحضر النبوية . ويمكن أن نلخص أحكامنا بآن هذا الشاعر يتسم بالبساطة والغموض والانطلاق مع مواجهه ، متحرراً بغير ما تتيحه له ظروفه من قيود المحسنات والزخارف . ولو لا الركاكتة التي وقعت في شعره لكان حكمنا على شعره أقل قسوة من أحكامنا العامة التي قدمناها بين يدي هذه السطور .

وليسح لنا القارئ أن ننتقل به الآن إلى شعر الطراقة ، شعر المأكل ، إلى مائدة مصطفى زين الدين العاملة بآطاب الطعام .

□ مصطفى زين الدين (ت ١٩٠٠ م) (١١)

من شعراء حمص في القرن التاسع عشر من يدخل شعرهم في باب الطراقة وحدما ، فالشعر عندهم ليس تعبيراً عن مواجه ولا صبوت ، وإنما الهدف منه الإطراف وامتاع الأسماع بما تهواه وتضيق له الأنفواه . ومن هذا النمط وعلى هذه الطريقة كان مصطفى زين الدين *

ولد هذا الشاعر في حمص عام ١٨٤٥ هـ - ١٨٢٦ م ودرس على علمائها ، واطلع على عالم الثقافة العامة المعروفة في عصره على يد شيوخ مدینته ، وحفظ الشعر وتعلّق

بالموسiqua ، وكان حسن الصوت ، لذلك كله اهتم به الشيخ أبو النصر بن الشيخ عمر اليافى صاحب المنظمات والقىود وصعبيمه الى الاستانة . وصار زين الدين منشد الحضرة عند الشيخ اليافى ، ثم سافر الى المدينة المنورة ، ثم طاف البلاد المصرية . ولما عاد الشيخ زين الدين الى حصن وجد شهرة الشاعر العموى المعروف بالهلالى(١٤) قد طارت في الأفاق فدفعته شهرة الشهرة الى منافسته ، فشعر عن ساعد الهمة لمارضته ومبارزته .

وكان زين الدين شديد الفطنة والرकانة فقلت نظره وأعمل رأيه فلما اهتم الناس بماكلهم وابشاع بعلوهم يفوق اهتمامهم بما يقدمه الهلالى من غزليات ومن مدائح يقتسمها لشخصيات مدینته .. لذلك جعل زين الدين شعره في وصف الماكل والقدور ، فكان يأخذ قصائد الهلالى ويعارضها مستبدلاً موضوعها بما يقدمه من وصف للماكل ، فكان الناس يتصرفون عن الهلالى وشمره ويقبلون على قراءة معارضات زين الدين ، وبعضهم كان يحفظها ويرويها ، فكان ذلك يشمل الفيظ ويثير العنق في صدر الهلالى .

وقد كتب لأنشئ زين الدين البقاء بسبب اهتمام الناس بها ، وقام أحد أصدقائه وهو الأديب محمد الخالد جلبي(١٥) بجمع أشعاره في ديوان سهاد « تذكرة الغافل عن استحضار الماكل الموسوم بالمعارضات الزينية على المنظمات الهلالية » (١٦) .

ولزين الدين أشعار غير شعره في وصف الماكل ، وهي على نمط شعر عصره من حيث الاختزال بالبيان والتطرير وما شابه ذلك ، وسنقت الأن مع بعض نماذج من شعره مما قاله في الماكل ، معارضًا قصائد الهلالى : (من الغيف)

واستوى الطبع واستقامت أموري	قفف الدهن من فواه القدور
ايها الجائعون نخمن الغصور	ودعاء الطعام نادوا هلموا
في ضواحي الميعاس بين الزهور	واجبوا فيها المدارج صفت
قد تسللت خرفانهم كالبدر	بين قوم على اللعوم عكوف
من يفي حق سعيك المشكور	يا صدرا حوى الكنافة بصما

وتسير القصيدة على هذا النمط ، تذكر السمن ونوعه وريحة ، ثم تذكر « القطایف» و « القراص» والرز والحلبي والبن وغيرها .

ولعل سبب اتجاه زين الدين ونجاحه في هذا المضمار أنه كان شديد الوع بالطعام وأطائيه ، وقد ذكر مترجمه الجلبي قصصاً تکاد لا تصدق عن نهمه وشدة حبه للطعام واکثاره منه ، حتى لقد كان يأكل وحده قدر ما يأكله عدد من الرجال مجتمعين ، وسمت أيضاً بعض الأخبار التي تؤکد ما ذكره الجلبي . وله قصص طريفة ، فقد سافر الى حماه ورفع عليه الهلالى دعوى في المحكمة وحضر المحاكمة أعيان البلد ووجوهها ليشهدوا تلك

المحكمة الأدبية الطريفة ، وقد سجل ما دار فيها من مطارحات ومحاورات ، وكان الناس يهتمون بشعره وحسب علمي فقد طبع ديوانه ثلاثة طبعات على الأقل .
ومن شعره في غير المأكمل ما زواه المرحوم أمين الجندي في كتابه *أعلام الأدب والفن* : [من الطويل] :

رماسي بسهم من لعاظِ فواتكِ غزال له دانت أسود المعارك
فما البلدين يحيه ولا الغصان يداها
او اختال من ثوب البها في مسالك
يلذ لي التعذيب في حب من غداها
وأصبح من دون البرية مالكي
وتختتم حديثنا عن الشاعر بوفاته وهو يتحدث عن الكبة : [من الرمل]
هاتها كبة هير بسطت بالصوانى بعد ضرب وامتهان
يا لها حمراء بالسمن انقلأ وجهها بالفرن آنا بعد آن
منسف الرز بسه جيء يعلها ذو معينا منه قد ضاء المكان
ولا يخفى ما في نظم زين الدين من ركاكه أسلوبية تشفى لها طرافه الموضوع
وضيق حيزه .

توفي الشيخ زين الدين اثر نزلة صدرية في حمص عام ١٣١٩ هـ = ١٩٠٠ م وقد
اعقب من الذكور المرحوم نجيب زين الدين الذي ما زال يضرب المثل حتى الآن في حمص
بنداوة صوته وجمال أدائه وبروعة فنائه .

□ الشيخ عبدالحميد الزهراوي (١٩١٦ ت)

كان من المفروض أن يكون مسك الختام أن نتحدث عن السيد عبدالحميد الزهراوي
لكتنا تحدثنا عنه لدن نشرنا شعره في مجلة المتراث العربي مما أغنانا عن التكراره هنا
ونأمل أن يتاح لنا أن ننشر مقالة أخرى حول شخصيات من العصر نفسه .

وقد رأينا أن تلقي بهذا المقال قصيدة الشيخ أمين الجندي التي مدح بها ابن ابراهيم
باشا وهي غير منشورة في ديوانه كما أشرنا، وقد ساعدنا في قراءتها وقد قراءات صبيحة
فيها أخي الأستاذ خالد الزهراوي ، ومع ذلك فقد بقىت فيها هنات لم تستطع استدراكتها .
ويجب أن نشير إلى أن نشرها أنها هو لقيتها القومية آنذاك لاقيمتها الأدبية ، وقد عثرت
عليها مكتوبة على كراس بالعبر الصيني على ورق قديم متأكل ، لذلك رأيت في نشرها
حفظاً لها من الثلف والشياع ، ويجب أن أشير أيضاً أن بعض استعمالات الشيخ في
قصيده لي بعض الألفاظ كانت عامية . أما الأحداث التاريخية التي أشارت إليها القصيدة
فيمكن مراجعتها ومعرفة الشخصيات التي ذكرت فيها في كتاب مختصر تاريخ سوريا
للضران يوسف الدبس ٢ : ٢٨٧ وكتاب المناقب الابراهيمية والماثر الخديوية من ٤٨
وما بعدها وسائر الكتب التي فصلت القول في تاريخ محمد علي وابنه ابن ابراهيم باشا .

□ الحواشي :

- ١ - المرحوم الاستاذ رفيق فاخوري من شعراء قطربنا البارزین، عمل طوال حياته بالتعليم، ولد ١٩٠٩ وتوفي سنة ١٩٨٥
كتبه منه الاستاذ احمد الجنبي في كتابه شعراء سوريا .
- ٢ - من مقالة للمرحوم الفاخوري نشرت في مجلة المعلم العربي ، العدد : ٣ ، اذار ١٩٧٠
- ٣ - يطرس بن ابراهيم كرماتة ١٦٧٤ - ١٨٥١ م . انظر اعلام الادب والفن لادهم الجنبي ١ : ٣٦ .
- ٤ - ابراهيم العوراتي ١٨٤٦ - ١٩١٦ - انظر اعلام الادب والفن ١ : ٤٦ .
- ٥ - دار الكتب الظاهرية ب دمشق برقم ٦٨٦٩ .
- ٦ - الشیخ خالد الانسی : ١٨٣٦ - ١٩٠٨ - انظر اعلام الادب والفن : ٣٨ .
- ٧ - طبع في علية مجلدات في حفص باشراوف ابته الشیخ محمد طاهر الانسی . بدا يطبعه عام ١٩٣٠ وطبع آخر جزء منه وهو السادس عام ١٩٣٧ ، والمقصود بالجلة اتها كتاب يحتوي على القوانين الشرعية والاحكام العدلية المطبقة للكتب التقى . حررتها لجنة من العلماء في التشییعة الاسلامیة ایان الصدر العلماوی وینی الطیبة الثانية منها طبعت في مطبعة الیوانیت عام ١٢٩٨ هـ .
- ٨ - شعراء سوريا : ١٠ (طبع دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٦٥) .
- ٩ - انظر حلیة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ١ : ٠٣٩ .
- ١٠ - هذه الآيات من صلیبة لم تنشر في دیوانه المطبوع ، ولدي نسخة منها مخطوطة .
- ١١ - عبد الهادي الواقی ١٨٤٣ - ١٩٠٩ - وتأريخه مخطوط وهو يجوزتنا وننوي نشره بالاشتراك مع الاستاذ ریاض البدری .
- ١٢ - عبد التریز الاقواعی : ابن سناء الملك : ٣٧ طبع مكتبة الانجلو بمصر ١٩٦٢ .
- ١٣ - انظر اعلام الادب والفن ١ : ٣٩ وحلیة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٣ : ١٠٢١ .
- ١٤ - انظر اعلام الادب والفن ١ : ١٨٣ .
- ١٥ - محمد خالد الجنبي ١٨٦٧ - ١٩٢٩ - انظر اعلام الادب والفن ١ : ٥٧ .
- ١٦ - طبع هذا الديوان عدة طبعات .

* * *

نجوم.. لأشهُبْ

عبدالعزيز البشري

مُندِّح فاخوري

وهذا أديب فنان ، لم يسعى الشهرة ، ولم تسع الشهرة اليه . من بدنى الأدب مرور الضوء الساطع، يضيء ويلمع ، ولكن ضوءه وملائمه لم يكونا من النوع الذي يبهرويغلب، ثم يمضي لا وقع ولا أثر . وكان يمكن لضوئه ولعله أن يتراك من الديوي والأثر أكثر مما ترك ، لو لا ان سعادية كثيفة من ظروف عشه وطبيعة عمله بين الادارة والقضاء ، وفي عمرة مجتمعه عامة ، كانت تعجب الكثير من بريقه والقده ، وتقيمه في قلل مديد العناج بعيد الأطراف ، لا يبعد ما يقصيه عنه قيد انملة ، ولا يرى هو دغبة في معاولة اقصائه عنه ، وزحزحته من طريق تطلعاته وأماله .

وليس هنا هنا ، بطبيعة الحال ، أن نترجم لأدبينا هنا ، وإن كانت الترجمة ولو بأوجز عباراتها أمرا لا بد منه ، لتعريف القارئ بما ينفي عرفانه عن حياته ونشاته وعوامل تكوينه وظروف عشه ، وللقاء شيء من الضوء على شخصيته ومزاجه ، على أننا سنترك على الجانب الذي يتعلّم بادبه وفنه، فليس من شأننا أن نذكر كل دقة من دقائق حياته ، الا ما كان منها يلقي مزيدا من الضوء على طبيعة شخصيته ومزاجه ، دون أن يتسبّب في ادخال ملل في نفس ، وازهاق روح من غير ذنب .

□ شخصية فريدة :

الأديب الذي نحن بصدد الكلام عليه هو الشيخ « عبدالعزيز البشري » . ولد سنة (١٣٢٦هـ / ١٨٨٦م) وتوفي سنة (١٤٤٢هـ / ١٩٢٣م) . نشأ في بيت علم ، فقد كان أبوه الشيخ « سليم البشري » عالما بالدين ، وشيخاً للجامع الأزهر متوفياً (١٨٩٩ - ١٩٠٩) .

درس في الأزهر ، ومارس الأدب فلقي فيه ذاته ، وخص له حياته ، ولكن عمله بين القضاء والإدارة حد من نشاطه الأدبي وقيادته ، وقصره على المقالة فافتنت فيها وأطرف .

أما (شخصيته) فكانت فريدة فذلة نادرة المثال . وإذا كان الإنسان مزيجاً من لعم ودم وأعصاب ، فقد يغيل علينا أحياناً أن نسبة ما (يحتويه) فرد من هذه العناصر مختلفة عنها في غيره ، فهناك (السعيد جداً) بما خص به من لحم متكتل وبطن متهدل ، يزينه بطبيعته الحال - حسناً هامد وعقل جامد وراس خاوي لو نقرت عليه لطن وهنالك (الشقى جداً) برهافة حسه ورقابة طبifice ومشاعره ، فهو في عناده دائم مع نفسه ومع الناس . . . والزمان ، لولا ما يسرى به عن نفسه ويجلو من سويفاته روحه ، من حب لكل جميل فاتن ، سواء كان اديباً أو طبيعة اولحتنا او نكتة بالفقة . وربما كان من هذا الصنف من الناس أديبينا « البشري » ، وقد وصفه « طه حسين » بقوله :

« . . . انه قوي الحس الى درجة نادرة حقاً . . . سريع التاثير والتاثير ، فهو اذا احس لا يكن ما احسه ، ولكنه يعلمه ويهظره ، فهو يتلقى الاشياء مسرعاً ، ويعكسها مسرعاً »

نحن اذا تجاه « شخصية » فريدة غريبة الأطوار ، تقوم على مجموعة من الصفات تبدو متناقضة ، فهو - كما وصفه بعضهم - انسان « حسن المشارة ، بارع الحديث ، سريع الخاطر ، يجيد المفاكهه ، ويستضحك بنواحه الباكى الحزين » . . . ولكنه كان في مقابل ذلك « عصبي المزاج ، يثور لأقل يابرا . . . وفي سبيل ذلك يهدر الصداقة القديمة ، ومن أجل هذا المنمز كان الكثير من أصدقائه يتقونه ويتخاشونه ، ويغافلون من سقطات لسانه »

ومهما يكن من شأن هذه الصفات ، وتناقضها - ولو ظاهرياً - فهي صفات انسان رهيف الحس ، شاعري المزاج ، مغمض برهافة حسه ومزاجه . ذكر بعضهم انه كان في صباه يمضي الليل ساهراً ، ولا ينام الا غراراً ، فتحطم من ذلك جسمه ، وتضعضعت في الكهولة صحته . وهكذا طوى الأعوام المشارة الأخيرة من حياته مريضاً ، ما يكاد ينقاشه حتى تملأه الصلوة . . . أشناه المرض الوجيع حقيقة من السنين »

ولم يعد ، مع ذلك ، وسيلة تخفف شيئاً من الالم النفسي والجسمية ، من اختراق روحه وأعصابه ، من رهافة حسه التي وصفها المتتبلي او وصف أصحابها بقوله الجميل هذا :

أفضل الناس أغراض لهذا الزمان يخلو من الهم اخلاصهم من الفتن

□ مداواة الداء بالداء :

وكانت الوسيلة انفاساً في مزيد من الرهافة ، وفي مخالطة اناس في مثل رهافته ورقة وجданه ، ومن هم غير الفنانين أمثاله وأصنفاء روحه ، ولا سيما أهل صناعة الفناء ، من المفتين المطربين ، أمثال عبد الله الحموي ، ومحمد عثمان ، وعبد العزي حلمي ، وغيرهم . . . فكان كليفاً بفنهم ، كثير الصحبة والمغالطة لهم ، بل شديد الاستثمار بهم ، لا

يرى حقيقة بمحالستهم وسماعهم الا من كان صاحب حس ونوع وحسن استماع . وكان يرى « أن الفن ابن الموهبة ، والموهاب ليست من العق المعاش لجميع الناس » . وكان الى ذلك عالماً بفن الفنان ، عارفاً بأصوله وأنفاسه . يقول في أحد أشعاره :

الشيخ « سيد درويش » :

كان من أولى بدعه في جد تلاحيته (دور ياللي قوامك يعجبني) ، وقد صاغه من نفحة - التكريم - . وأكبر القلن أنه لم يكن لموسيقار مصرى عهد بهذه النضمة من قبل . وقد أجاد « سيد » في تعليم هذا « الدور » خلباً ورائعاً ، فوق أنه طبعه على غير غرار معروف في مصر ، وصاغه على غير مثال قد يرمي فيها أو جديداً ! . ودل على دقة حسه الموسيقي ، وانساجه المغزى به ، فقال وهي سند الكلام على ضرب من ضروب الفنان :

لقد كنا نجد في هذا الفنان صورة بيضة مما في نفوسنا ، حتى لكان يخجل علينا أنه صادر عنها لا وارد عليها ، وكانتنا نحن الدين لحنوه وصاغوه . فإذا لم يبلغ بنا الشعور هذا الموضع ، خلنا أنه لو كان أفضى الينابيعه وصياغته لما أخرجناه وصورناه إلا هكذا . بل إن حسن السبك وقوة الصياغة تذهب بنا إلى الشعور بأن هذا الذي نسمع إنما هو شيء من صياغة الطبيعة لا اثر فيه لصنعة الإنسان

أي فهم ، وأي ذوق ! وأي روح لطيفة تترك بالحس المرتفع التدقق ما قد لا يدرك بالدرس المعنط الطويل . وإذا تذكرنا العلاقة الوثيقة بين الأدب والموسيقى لم يصعب علينا أن ندرك سر اهتمام الكاتب بجمال أسلوبه وحسن صياغته ، ففي الشعر موسيقى ، وفي النثر المؤقت الجميل موسيقى ، تظهر في تناسق الحروف وحسن المعاورة بينها ، وقد يزيد الكاتب على ذلك فتبرز أيضاً في قصر جمله وتوافق عباراته ، وشروع إيقاع موسيقي بينها ، نذكر هنا مثلاً طه حسين في كتاباته الأدبية الخالصة ، وأحمد حسن الزيات ، ونذكر من القناع الباحظ وابن العميد وأضرابهما .

قيود ٠٠ وسلود : □

الكاتب إذا وجد نفسه في الأدب والفن ، وأرهفها وصقلها وسرى عنها بالموسيقى التي وجد فيها صنو روحه وذوب وجданه ، سلوى نفسه الحبيسة في ارسام القيود التي تشق روحه وتتعزز في أعصابه ، قيود الوظيفة وما تقتضيه من انكماش وحفظاً على المظهر ، بما لا يلائم طبعه وجوهره . . . فإذا كان الكاتب قد وجد نفسه في الأدب والفن ، فقد وجد نفسه أيضاً مشدوداً إلى طرفين متناقضين ، بالقياس إليه على الأقل ، فهو يزيد أن يذهب مع ميله الأدبية والفنية إلى أقصى مدى يريده ، ولكن طبيعة عمله ومركته بين الناس تحدّ من ميله هذه ، بل تقف سداً منيماً بينه وبين ما يعب ، فما كان يستطيع الكتابة بتقييمه الصريح ، وكان يخشى أن تنسحب مقالاته لغيره ، فكان يطلع أصحابه على ما ينشره لعلم الناس أن هذه الجزاية اللقطية ، وهذا الترف البياني والترصيع الإنساني ، كل أولئك من صنعة المترجم « (١) ». وهذا في ذاته أمر شاق على صاحبه ، فالكاتب يعب

أن يكتب لينقل شعوره إلى الناس ، وليرى صدى شعوره هذا عندهم .. وهو يريد أن يرتد هذا الصدى إليه لا إلى غيره أو إلى « انسان مجهول » لا يعرفه الناس ولا يعرفون عنه شيئاً .. يريد أن يسمعوا بني قلبه ويحسوا وهم شعوره ، ويبادلوه بنيضاً ينبع شعوراً بشعور ، ولا يجب أن يختفي نبضه في نبضات غيره ، ويفيسب شعوره في كهوف معتمة تسمى قلوباً ، ولكنها لا تتحقق بما يتحقق به قلبه ، ويفيسب به وجده ..

ولا شك أن اختفاءه وراء توقيعه المموه ، كاف وحده لتقليل شهرته في حياته . وتغيبها بعد وفاته . ولكن وراء خفوت صيته وغياب شهرته أسباباً أخرى ليس هنا مجالها ، وقد أشرنا إلى بعضها في مقدمة المقال ، وثمة غيرها سيعين أوانها ..

البشري الأديب

ولكن .. ماذا عن « البشري » الأديب؟ وعن أدبه؟ لنتذكر أولاً أنه أحد أفراد الجيل الأدبي الممتاز الذي أعقب البارودي وشوقى وأحافظاً والمنفلوطى ، جيل طه حسين والمقاد والمازنى توفيق العكيم والزيات والرافعى وأحمد أمين ..

بعض هؤلاء تابى على الوظيفة والقى العقاد والمازنى والعكيم والزيات - مع بند ما بينهم - واتجه بكليته إلى الأدب فافتتح وأصاب الشهرة التي يريد . وبعضهم كطه وأحمد أمين مضوا في طريق شاق طويل يحفه البهد والنرس والدأب ، وقد نتاجا كباراً منوعاً كان كفياً ببلوغه الشهرة التي يستحق ..

أما « الرافعى » فكان له - برأياختص بها - صدر مجلة « الرسالة » - بعد افتتاحية أصحابها « الزيات » - ، ومع ذلك لم ي Emerson جهده على المقالة بل قدّم للمكتبة مؤلفات متنوعة بعضها الأدبي الخالص كاوراق الورود والمساكين والسحب الأحمر ، وبعضها التقدى .. وكان في الوقت نفسه يمثل مدرسة « المحافظين » ، تصدّى فيها لمعالقة يعد نفسه نذراً لهم ويعدّهم أنداده ، فزاد ذلك من شهرته وتالق اسمه بين الكتاب ..

فما مكان « البشري » بين هؤلاء؟ وأي مدرسة يتبع؟ وما مدى شهرته بين الكتاب والأدباء عاماً؟ ..

يجيب طه حسين عن بعض هذه الأسئلة أو أكثرها فيقول^(٢) :

« كان عبدالعزيز مدرسة وحده في هذا الجيل ، لا تستطيع أن تلحظه بهذه البيئة أو تلك من بيئاتنا الأدبية ، ولا تستطيع أن تصله بهذه المدرسة أو تلك من مدارسنا المنتجة في الشعر والنشر .. وكانت أظن في أول الأمر أنه بقية مدرسة قد مضى أكثر أعضائها ، بقية لتلك البيئة التي كان يضطرب فيها المولىحي وحافظ والبابلي رحهم الله ، ولكنني رأيته يعرض لأشياء ما كان أحد من هؤلاء يستطيع أن يفكّر فيها ، وما أشك في أن تلك

البيئة الطريفة للبقة الموقفة لو اجتمعت كلها لكتابه فصل عن « الطيارة » ، كالذى كتبه عبد العزيز ، أو فصل عن أحد ندا ، أو فصل عن حسن غندر ، لما ظفرت من ذلك ببعض ما ظفر به .. ومن أجل هذا أيضا لم يكن عبد العزيز مدرسة وحده فحسب ، بل كان مدرسة لا تلاميذ لها .. فنثة على مهولاته ويسره وقربه من الناس جميا ، أرفع وأعسر وأشد استعماه من أن يتعلق به المتأثرون والمقليون ، ولذلك لم يتعلق به أحد ، ولم يحاول تقليده أحد ، وظل عبد العزيز واحدا في فنه ، وسيظل واحدا في فنه » .

هل نستطيع أن نستخلص من رأي طه حسين الاجابة الصحيحة عن أسئلتنا المتقدمة؟

١ - ما المدرسة التي يتبعها؟

يرى طه حسين أن « البشري » مدرسة وحده .. ومهمها يكن من قيمة هذا الرأي فانا أرى أن « البشري » كان أقرب إلى مدرسة الحافظين ، مدرسة الراهن والزيارات .. ولا أرى مجالاً لالعلاقة بمدرسة « محمد المولحي » صاحب « حديث عيسى بن هشام » أو مجرد التكثير في ذلك ، لأن « المولحي » كان أقرب إلى ما يمكن أن نسميه « المدرسة التقليدية » التي تترسم خططاً مدرسة الصنعة المتمثلة في طريقة « الهمذاني » و « ابن المعيد » ، بل « القاضي الفاضل » أحياناً .. ولم يكن « البشري » من هؤلاء وأشرافهم في شيء ..

٢ - أما كونه مدرسة وحده ، ومدرسة لا تلاميذ لها ، فهذا يفسر شيئاً ، أو يجيب عن تساؤلين :

آ - ما مكانه بين أدباء جيله؟

أن يكون الكاتب مدرسة وحده ، ويستطيع أن يبدع في كتابته عن « الطيارة » وغيرها ما لا يستطيع أن يبلغه أو يجاريه فيه كثير من مشاهير عصره ولو اجتمعوا له ، كاف وحده ليبرز لنا منزلة العالمية التي كان يتبوأها أدبينا ، والقدرة التي كان يختص بها دون هؤلاء ، ودون كثير غيرهم أيضاً !

ب - ولكن ، ومع كل ما قلناه عن منزلة الكاتب وقدرته الفذة ، لم نره يبلغ من الشهرة مبلغ من ذكرنا من أدباء جيله .. أو أن شهرته بعد وفاته لم تحافظ على توجهها الذي كانت عليه في أثناء حياته .. ولمل طه حسين قصد أن يعلل ذلك بطريقة ذكية ، غير مباشرة ، حين جمل من كاتبين مدرسة لاتلاميذ لها .. ونحن نقول ان ما تركه « البشري » - وهو لا يمدو فن المقالة - كان قليلاً بالقياس إلى غيره من الكتاب ، ومرهوناً بمناسباته وشخصياته ، وأكثرها محلي من جهة ، وظريفيه آتي « يتصل بظروف سياسية عابرة ولو قرأنا مثلاً كتابه (في المرأة) ، وهو أروع كتبه على الأطلاق ، بل « أول كتاب من نوعه في الأدب العربي » (٣) ، لوجدهناه متراجعاً من أدب وتصوير ، أو « رسم بالكلمات » ، وأي رسم ، وفيه إلى ذلك سخرية بارعة تتبع من روح عذبة صافية ، لا من مرارة موغلة فيقنة ، ولكن أكثر موضوعات هذا الكتاب ، أو قدر لا يستهان به منها ، يتصل بشخصيات لا تتجاوز

في شهرتها حبود المقطر الذي «لمت أنجمها» فيه ، والاطمار الزمني الذي اضطربت في أثنائه .. ومع ذلك تبقى لكتاب قيمته الأدبية التي لا تتجدد . وسنعرض لبعض نصوصه و «لوحاته» ، خلال هررض مقبل لخصائص أدبه وفنه .

□ خصائص أدبه وفنه :

ليس أشق ، في دراسة أدبية كهذه ، من ان تخضع أدبياً فذأ كالبشرى لنهج درامي تقليدي يأخذ بالأدب من اقطاره كافة لينفرد بكل جانب من جوانبه دراماً وتعليلًا من غير مراعاة كافية لطبيعته ولتكوينه مزاجه الأدبي الذي يتقبل لوناً أو الواناً من الحياة ويتأثر على غيرها ، فلا نحمنله اذا من أمره عسراً ولا نحمل أنفسنا عسراً فوق عسره . وأكثر ما يناسب ذلك على الأديب الفنان ، المرهف الحس والشعرور . ومن مثل أدبينا — وهو من عرفنا: رقة طبع ورهافة حس — جديرين بان تجنبه هنا العسر ، وتبعده من هذا الامتحان ؟ ، وأن نقنع منه بما قنع هو به ورضيه لنفسه، فنتناول بعض آرائه الأدبية والتقدمية ، وموقفه بين القديم والجديد ، ووصفه ، وجاذب السخرية عنده ، وأسلوبه ولغته .

□ آراءه الأدبية والنقدية :

لم يكن «ال بشري » دارساً أدبياً ، ولا مؤرخ أدب بالمعنى المفهوم لكلمتى دارس ومؤرخ ، ولم يدع هو ذلك ولم ين慈悲 له ، ولكن له آراء أدبية متباشرة في ثانياً بعض مقالاته ومحاضراته ، لا تجد كبير موعّد عليها الأفنياء يعين على جلاء بعض نواحي شخصيته وفنه . فمن رأيه في الأدب أنه فن غير محدود الأطراف ، ولا ثابت الأبواب ، بل هو «فنٌ عرضٌ يتکيف ويتواءل طوعاً لمعتنية كل قوم ، وتاريخهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، والجو الذي يعيشون فيه ، وأسبابهم الخاصة ، ومبليغ شعورهم بالجمال ، بل يصور هذا الجمال أيضاً » .

يسوقني في هذا الرأي قوله: « ومبليغ شعورهم بالجمال ، بل يصور هذا الجمال أيضاً ، واتجاهوز اشارته الى صلة الأدب بعقلية القوم وتاريخهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وما اصلح على تسميتها بالبيئة والمحيط ، لكثرة ما تداولتها الألسنة وفاقت بها المعابر والأقلام .. »

ثمة اذا ، في رأي الكاتب ، تمايز في الشعور بالجمال بين قوم وقوم .. يزيد حظر آمة منه حتى لي فهو أبرز مميزاتها ، وأخص صفاتها ، ويقل حظ أخرى منه او يتوسط فلا تذكر به ولا يذكر بها لأسباب لا حيلة لها فيها ولا يد ! وهو رأي مهمًا يكن حظه من الصواب ، لا يصدر الا عن أديب فنان ، يتعلّق بالجمال ، ويقتدر أهله .. لا ينظر الا به ، ولا يصدر الا عنه ، ولا يهنا الا به في مصبه ومساه !

والجمال مرتبط بالحس والذوق والطبع ، وهي أمور لاصقة بطبيعة الأمة خالصة لها خاصة بها ، لا يمكن أن يقع «التقارب» عليها ، يقول(٤) :

« ان العلوم والصناعات وما اليها ، امور يمكن ان تقارضها الامم ، اما الاذواق وخلجات النفوس ونزوات العواطف ، فما لا يقع عليه التقارب والاعتارة ، وان جازت هذه ان تقلد أخرى وتحنن حنونها في طريقة الأداء واساليب الاستقراء والتحليل ، وليس معنى ذلك تحويل الأذواق أو تلوين العواطف ! »

□ الأدب الصحيح :

والأدب الصحيح في رأيه هو الأدب الذي يعبر عن عصره . وينطبع به ، ويدل عليه ، مهما اختلفت أساليبه أصحابه وتبينت تبايناتهم ومذاهبهم في فنون البيان والقول ، وهو يأخذ على أدب مصر والشام بعده عن عصره وحياة عصره ، بل انك حين تقرأ للفيت منهم لا تصدق أنهم في عصر واحد وأمة واحدة ! يقول في هذا المتن (٥) :

« الواقع انه مهما تختلف لهجات المعاصرين من الأديباء ، في أية امة من الأمم ، وتتفاوت أساليبهم في فنون البيان : شعر اكان او نثر ، فانك ولا دبيب واحد لمجنوعهم طابعا خاصا يدل على عصرهم ، ويميزهم عن غيرهم ، بحيث يتهيأ للناقد الغربي أن يستدل من نفس البيان على العصر الذي انتفع فيه دون أن يردد بآية اشارة اليه ، ولكنك مع هذا لا تستطيع أن تجد اليوم هذا الطابع للأدب في مصر ، وستستطيع أن تزعم مثل هذا عن الأدب في الشام .. وعلى الجملة ، فانك لو تصفحت هذا الأدب المصري المقاوم لرأياته موزعا بين حياة في الجزيرة لعصر الجاهليه وصدر الاسلام ، وبين حياة في يقظاد أو الأندرس ، فيما يلي ذلك المصر ، وبين حياة في لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو . ولكن أين هذا الأدب الذي يعيش في مصر ، ويصور عواطفه المصرية التي يلهمها ما ينبغي أن يلهمها المصري من عواطف واحسام ! »

ثم يقول (٦) :

« عندنا شعراء عظام ، وكذلك عندنا كتاب عظام ، على انك حين تتلو آثارهم وتقلب النظر في الوان بلاغاتهم ، لا تصدق لولا انك تعيش فيهم . انه يجمعهم عصر واحد في أمة واحدة ! »

وقد يقودنا هذا الى بيان بعض آراء في التجديد ، و موقفه بين القديم والجديد ..

هو أولا يسمى الى التجديد ، ويتحمس له ، وينكر الجمود :

« ... فخلق من أدبنا لم يسلّم بقطبان الأدب شيء يسمى شعر أمرىء القرين وهيئش أمرىء القيس .. » (٧)

ولكن له فهمه للتجديد :

« اذا كان من آيات الحياة في الكائنات تطويرها ونموها وتتجدد ، فالآدب ولا يشاء ؟

من هذه الكائنات التي لا تكتب لها الحياة إلا على التطور والنمو والتجديف ، والا كان ميتا ، أو أشد على أيسر الحالين !

•• ولا شك في أن لأدبنا العربي عناصره ومقوماته ، وله شخصية بارزة معينة ، فمن شاء فيه تجديدا - وحتم العثم على القادرين أن يجددوا - فليتقدم ، ولكن من هذه السبيل .
•• (مكرر)

و لا حرج على المفترض المجلد أن (يقتضى) من فنون الأمم الأخرى ، ولكن ! (٤) :

•• لقد تفتت الأذواق في مبتدأ الأمر عن الجديد ، ولكنها سرعان ما تالفة وتندوقة وتلتده ، ما دام يمت إلى فن القوم بسبب ، وبينما إليه يتسبب ، ولا حرج على المفترض ، بل أن من واجبه أنه إذا حرك عواطفه ، وهم شاعره شيء من آثار فنون الأمم الأخرى - أن يبادر إلى اقتناصه ، ويسرع إلى معالجه بالتسوية والثنيف ، حتى يتسع لفن قومه ، ويطبع بطابعهم ، ويتوسّع في مذاقهم ، حتى ليترجم عن بعض ما يتعلّج من العواطف في نفوسهم .

أما أن يهجم على القطعة من فن غيره فينتزعها انتزاعاً ، ويمتلّخها امتلاخاً ، على حين لا يتندوّقها هو نفسه ولا يسيّفها ، ولا هي مما يمكن أن يسيّفه قومه أو يتندوّقها ، ومع هذا يأبى إلا أن يستكراها على فنهم باسم التجديف ، فذلكم لميري هو المحسن والتشويه !

□ الصلق الفني :

ويرى أن الصدق ، والصدق وحده ، هو الذي يضمن تعبر الأدب عن ذاته ، ولاريبي أن من يصدق في التعبير عن ذاته وشعوره ، لا يمكن أن يخرج عن زمانه ومكانه ولو شاء ! يقول (٥) :

« قال المتقىون : إن أغذب الشعر أكذبه ، وهذا كلام صحيح إذا اتجه على أن أغذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا ما وقع على مجرد تقرير العقائق الثابتة . ولكننا إذا تحولنا بالنظر إلى تاحية أخرى من تواحي هذا الموضوع رأينا كذلك أن أغذب الشعر أصدقه : ولستا نعني بالصلق هنا المطابقة للواقع ، على تعريف « صواب المنطق » وإنما نريد به الصلق في الترجمة عن شعور الشاعر فأغذب الشعر في الواقع هو الذي ينفع عليك ما يتعلّج في نفس الشاعر ، وما يتمثل لحسه في ادراكه للأشياء » .

مثل هذا الفهم المعيق لمتن « الصدق الفني » ، لا يمكن إلا أن يلتفت الانتباه ويستأنش بالاعجاب ، وبخاصة حين يصدر عن أديب تعلّم عليه السليقة والتجربة ، لا الثقافة المكتسبة ، والأراء المختلبة ، وتتنطلق لسانه ، بما يسبق به زمانه ... والحق أن فهما للصدق الفني على النحو الذي نراه عند « البشري » ، يميز بين « صدق الشعور » وصدق الواقع ، خليق أن يدفعنا إلى أن نقف منه على جوانب ظلت خافية ، وسرّ خفانها أن الكاتب لم يكن من هم أن يكون دارساً أدبياً أو مؤرخاً من مؤرخي الأدب في عصره ،

فإن طلع برأي أدبي ففي سياق عام لا يرتدلها الرأي وحده ، ولا يجعله محوراً يدير حوله البحث أو الأبحاث التي تتصل به أو تقيس فيه على طريقة الدنر-اس والباحثين، وإنما هي اللغة الدالة ، والخاطرة الملوحة ، وبحسب القارئ منها أن يلقى فيها غنيته ، وإن لم تشف غلتها .

ولو تبعينا مثل هذه اللمحات البارعة لدى الكاتب لوجدنا منها الكثير ، نجتازى ومنها ما يلي ، ينصها :

□ مصار الصنعة :

« إن الاحتفال للصنعة في الشعر مما يضر في الترجمة عن صادق العس . وكلما أمن الشاعر في الاحتفال للصنعة ازداد بالضرورة ، التراخي بينه وبين نفسه » .

□ وظيفة الخيال(١٠) :

« من البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم في فنون المعانى مجرد العبث بقلب الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بين العقائق . إنما الفایة كل الفایة كل الفایة أن جعل علىك هذه الأخيلة صوراً طريفة بديعة لهذا الذي أدركته من الواقع ، أو تترجم لك عما يدق عن فهمك من معانى ومتانى ، أو تكمل لك وتبسيط بين يديك ما ترى من أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبك وتسويته » .

فيفى الشاعرية يتجاوز مدارك الشاعر نفسه(١١) :

« إن من الشعراء ، وأعني بهم بالضرورة من يستحقون هذا الاسم ، من تخططى شاعريتهم أفق مدرائهم ، فنراهم يصيرون من المعانى ما لا تتعلق به ، في المادة ، آذانهم حتى لو راجعهم في بعضها — وقد آبوا إلى أنفسهم — لاحتاجوا في تفهمها إلى مطاولة وجهد في الاستخبار ! ذلك يانهم لم يصنعوا مثل ذلك الشعر صنعاً ، ولا جاءت روعته من التشمير في التجويد والافتتان ، ولكن فيفى يفاض على الشاعر ... » .

وهو كما ترى رأى فنان يصدر عن معاناة وتجربة ٠٠

□ العبرى هو الذى يرتفع على قومه(١٢) :

« من الجلى أن العبرى هو الذى يرتفع على مجموع قومه ، وأحياناً على أهل عمره في حفة أو في أكثر من حفة ، بحيث يهيا له أن يدرك في بعض الأمر ما لا يدركون ، ويشعر بما لا يتعلّق لهم به حس ولا شعور ... » فهو « يسبق بتلك المواهب جمهور قومه ، ولقد يسبق أهل عصره ، اذ تهديه فطنته الى أشياء لم يغفلوا لها » ... « لقد ينتصب بعض مؤلام العباءقة للرسول بالفن عن مذهبها ، وقد يقلبه رأساً على عقب ، وتلكم هي الثورة بعينها ... » .

□ من أسرار الإبداع الفني؟ (١٢) :

« البقرى المبتكر من الندم ، والمبدع على غير مثال ، قد لا يكون لتفكيره شيء مما صنع ، ولا لمقلته دخل في شيء مما يبدع . إنما هو الطبع والفريزة ينضجان بهذا ، ولقد يفعلن في سر من عقله ، وفي غفلة من تقاديره ... واني لأزعم لك ، أبلغ من هذا ، أن كثيراً من هؤلاء المبدعين قل أن يشعروا بما صنعوا ، وقل أن يقدروا حق ما أبدعوا ... »

□ في حسن البيان وعلاقته بقوّة روح الكاتب (١٤) :

« ان حسن البيان وجودة المقال لا ترجع في جميع الأحوال الى تمكّن الكاتب من ناصيّة اللغة ، وتفقّهه في أساليبها ، وبصره بموقع اللّفظ منها ... بل ان ذلك ليرجع في بعض الأحوال الى شلة نفس الكاتب وقوّة روحه ، فقد لا يكون الرجل واخر الحصول من تنّ اللغة ، ولا هو على حظ كبير من استطهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنى بقصصيّ منازع البلاهات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان ، الاما تقطع دونه علاقة الأقلام ، ذلك لأنّ شدة نفسه ، وجبروت فكره ، تابي الا أن تستطع بالكلام فتنتزع البيان انتزاعاً » .

ويضرب لذلك مثلاً بيان « جمال الدين الأفغاني » و « قاسم أمين » . الأول غريب عن العربية ، والثاني شبه غريب عنها . « ويزيد بان القاريء يعجب أشد العجب اذا عرف أن « حسين رشدي » - رئيس وزارء سابق - كان رجلاً قل أن تطرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواлиات ، قد كان أحياناً يرتفع بالعبارة الى ما يتجاوزه من دونه جهد اعيان البيان ! » .

وهو رأي فيه من القراءة يقدر ما فيه من صدق الواقع والتجربة ، ولو شئنا أن نضرب عليه مزيداً من الأمثلة وجدنا الكثير . وغير بعيد عن هذا ما هو معروف عن الشاعر ام الكبار أنفسهم ، فقد تؤثّرهم « القرىحة » فيندون بالعجب العجاب ، وقد تخذلهم وتحزنون بهم فيرثون منها سلامـة الآيات ! .

قوّة اللّفظ من قوّة المعنى (نفسه) (١٥) :

« لم يكن « شوقي » يكلّف بالديباجة ، ولا يجهد في تسوية اللّفظ وصطله ، ولكنّه مع هنا قد يجيء بالعجب العجاب ! بل لقد استحدث شوقي في العربية شيئاً اوفت على النّهاية من حلولة اللّفظ ، ومتانة النسج ، قوّة الاشراق . وأحسب أن قوّة المعاني هي التي اراداته على هذا ودفعته اليه دفماً . »

□ رأي فريد في الفن والإبداع (١٦) :

«) المبتكر والصانع النّاظم يتساهمان الجيدى على الفن !) . »

« .. المفتون ، الصنّع ، حتى الذي لم يتوّت ملكة الابتكار ، ولم يرزق القوّة على الانشاء ، ترى له من شدة الغفلة ودقّة الحس ما يتقطّع به المعنى الغريب ، ويشكّ به المفكرة الطريفة ، في شعر أو ثغر ، أو موسيقى أو نحت أو تصوير .. فلا يزال به يعكّه . »

بحسه المرهف ، ويختفي في ذوقه الرحب مخضًا . وكلما فعل ازداد في نفسه تبيثًا ووضوحًا ، وهكذا حتى يتمثل لها خلقاً سوياً ، فسرعان ما يجلوه على الناس كما جلته عليه نفسه .. فلا يحسبونه مهما جهد بهم من حدّ الذهن وتrepid النظر إلا خلقاً جديداً .. وكثيراً ما يعمد هذا العاذق الصناع فيما يغفل عنده الدقايق الكامنة الى مطلعها والبساط في خلقها بالتلويد والاشتقاق ، وبتداعي المانع ، حتى يبلغ بها في ذلك غاية المدى ، وأنت تحسبه كذلك مبتكرة منشأ ، وتطئنه مستحدثاً مبدعاً ..

ويضرب مثلاً على ذلك « الفنان المبدع » لنفي « محمد عثمان » و « الصائغ الرائع » « عبد العمولي » الذي كان يتلقى الشاعر عثمان وأدواره ويسوّي صورتها ، ويمزج على ذوقه الدقيق تعديلاً وتوليداً ، حتى يخرجها أقرى وأبدع وأفتقن ، ثم يقال هذا الصوت لعنوان فيه لعن ، ولبده فيه لحن آخر ! ..

والنتيجة التي يريد أن يرسخها في ذهن القارئ هي أن كلّيهما - المبدع والصائغ - يتسامحان البذوي على الفن .. « أما اذا لم يكن بدّ من فاضل فيما ومضضوا ، فان [راجع الكفتين قد يكون لهؤلاء الصاغة الماهرين] !

□ شاعر لفظ أم معنى ؟ :

وهذا رأي قد يبدو غريباً عنيصاً يعلقون الحكم ببراءة قاطعاً لا يتبلون من بعده نقداً ولا مراجعة ، فيصفون شوقي بشاعر الفتاء ناسين أن له من الشعر ما لا يربطه بالفنان قربي أو سبب .. ولكن هل هو في مقابل ذلك ، شاعر معنى ؟ يقول (١٧) :

« شوقي لا يحفل كثيراً بنسج الكلام وتزوير اللفظ وتزويف الدبياجة ، فإن طبعه قد انصرف أكثره الى المعانى حتى ليجعل اللفظ أحياناً ما يشقه ويبهظه ويكتد . ذهن القارئ في التماس وتبينه . بل انه في سبيل الوفاء بما قصد له من المعنى لياتي أحياناً بالغريب الشامس من اللفظ لا تدرك معناه الا بعد مراجعة وطول استغبار ! ..

ونحن نقول ان عبقرية شوقي لا تقبل عبقريته أحكاماً مجردة كهذا الحكم ، فمرة العبقرية لا يكون الى معنى ولا الى لفظ ، بل الى العبقرية نفسها .. العبقرية ملايير كنه ، فلا نهتكن ستراها في محاولة القبض على مرتها ، جملة او تفاريق ، وهل كانت عظمتها الا في خفاء هذا السر ؟ ولو أن الكاتب - البشري - احل كلمة « دائناً » محل « كثيراً » في قوله : « شوقي لا يحفل كثيراً بنسج الكلام .. » لكان أوقع وأجمع ، ولكن أكثر اتساقاً واتفاقاً وتتناسب رأيه اذا قال :

« بل انه في سبيل الوفاء بما قصد له من المعنى لياتي أحياناً بالغريب الشامس من اللفظ .. فمن يتضيد الشامس (أحياناً) - لا دائناً - لا يكون كل صيده شامساً ، ومجرد استعمال « الشامس » لا يعني أنه طالب معنى ، والا اسماء الى المعنى نفسه ، هنا قيمة معنى لا يأتي الا على شعورين ؟ فلنقل اذا ان اللفظ قد يغرنك نفسه ، هنا يكون ذلك في قافية ، بمطولة ، او في معنى هو في ذاته فوج غير نضيج - فيركبه هنا المركب

المضطرب . ونظرة ، مع هذا ، الى معظم شعره الفناني وشعره المفنى ، بل والى شعره التمثيلي ذاته . وبخاصة مجنون ليلي ومصرع كلوبترق لكي تدرك مدى التجبني على شوقي حين نقصي شعره عن فردوس الفناء و «موسيقية» اللقط !

□ رأيان بلافيان :

١ - قواعد البلاغة ليست شرطاً في الابداع الأدبي(١٨) :

« .. العالم بالفن غير المفتن » على كل حال ، وانما بينهما العموم والخصوص الوجهي على تبیر أصحاب المطلق ، فيجوز أن يكون المرء بليغاً وهو غير عالم بقواعد البلاغة ، ويجوز المكس كما يجوز أن يجمع بين الخلتين معاً .

٢ - وجوب « تطوير » علوم البلاغة(١٩) :

« لست ثائراً فادعو الى الفناء علوم البلاغة العربية بتاتاً ، كما الفتتها ام في الغرب بتاتاً ، ولكنني أدعوا الى تلبيتها وتمريرتها ، حتى تصبح أشبه بالأسلوب النقدي القائم على التفعلين والتذويق ، بحيث تتتطور مع تطور الأفهام والأذواق ، وعلى أن يصل تعليمها – في المدارس والماهاد – بدرس الأقرب نفسه ، فالواقع أنه ما نضجت موهبة شاعر ولا كاتب قط بدرمن علوم البلاغة ، ولكن بطول ترديد النظر وتقليل المذهب في المؤثر من روائع الآداب .. فإذا أبینا الا العرص على يقان هذه المعلوم ، على تلكم الصورة التي دفينا اليها السابقون ، فلا شك في أن لها في دثار الآثار العربية المكان الفسيح ! » .
وهو كما ترى رأي فنان فهم متندوق ، لا يحتاج الى أي شرح أو تعليق .

□ رأي طريف في الفرق بين الشاعر والعالم : (٢٠)

وانظر الى هذا التفریق بين الشاعر والعالم ، واحكم ما بدا لك ، ولكن لا تغطط الكاتب طرافة رأيه ! :

« كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم ، بان الشاعر في العملة معتد ، أما العالم في الجملة فakahد : الشاعر يبتکن ويستحدث بقلب الحقائق والتلقيق بينها وافتراضها في صورها وتلوينها بغير الواقعها .. أما العالم فابلغ جهده في تلقي العقائق ، فإذا كان له فيها استعدادات أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما انكشف له فيها من الآثار ، وما جئلي عليه من مكون الأسرار » .

□ مميزات اسلوبه وفنه :

لم يكن أدبينا « البشري » مؤرخاً أدبياً ولا ناقداً منتصراً أو « متذهباً » ، وانما كان مؤرخاً للساعات والمهنيات العلوة او المرة التي تعبير في شريط حياته ، فتوحي له ما تؤثر ، وتؤثر ما تؤثر ، وتنعكس على « لوحه قرطاسه » صورة حسية او دعابة عذبة او تهكماً قارصاً غير وجيع ! وكان ناقداً ولكن بالمعنى الناتجي المزاجي لا المنهجي

الموضوعي ، ناقد حياة لا ناقد كلمات ٠٠٠ فإذا تناولنا خصائصه ومميزاته فمن هذا الجانب ، جانب ذاتيته لا موضوعيته ، و « مراجعته » لا منهجه ، جانب « الأدب الخالص » الذي اصطلاح على تسميته « بالأدب الإنساني » . وببسطنا ذاك فلم يكن هو ذاته ليطبع باكثر منه ، ولتفنن بما قنع به وهو كثير ! وهل كان الأدب – في أصله – غير هذا ؟ ولكننا الفنا أن نقدم الناقد والمؤرخ ، وننقل عن المبدع الذي وجد لأجله التاريخ والنقد ، وقام جرأة الأخذ والرد ، ورحم الله القائل :

انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الغلق جراها ويغتصم !

وانطلاقاً من هذا سنحصر كلامنا على وصفه ، وعلى أسلوبه عامه ، مع الوقوف قليلاً عند سخريته .

□ وصفه :

يفرد الكاتب ، في « مختاره » باباً خاصاً بالوصف ، ولكن هذا الباب لا يستأثر وحده بوصفه ، فشلة « لوحات » ولحظات وصفية كثيرة تتناثر في انحاء كتابه الأخرى ، ولا سيما كتابه « في المرأة » .

أبرز سمات هذا الوصف الطراقة والافتتان ، وامتزاجه بالدعابة والسخرية في كثير من مجالاته ، ولا سيما الشخصية . وهو في معظمه حسيٌ تأخذه اللذة من اطرافه إذ يكون الجد طابعه ومنحاه ، ويفرق في التضييف و« المط » الكاريكاتوريين في سانحة من سوانح هزله ومرحه ومزاحه . واليك نماذج من لوحاته ولحظاته الوصفية هذه كافية ، في زعنفنا ، لاطلاعك على براعته في هذا الميدان وافتتانه فيه ، من غير حاجة الى وسيط بينك وبينه أو دخيل ! ونسعى لأنفسنا أن نبدأ بهذه الصورة « الوسيمة » لصديقه وصفيه « حافظ ابراهيم » ، جلتتها ريشة شيطانه هذا الجلام العجيب ، فلا تدري ماذا تنفس لك ريشته من خطوط طافرة والوان نافرة ، لا تملك معها الا أن تعراض وتتشيح ، ناشدا لنفسك السلامة . ولكن « البشري » ياباً عليه « غرفت » قلبه الا أن يمهد لصورته « الوسيمة » هذه بذكرة « حافظية » يتذذها تناه للانقضاض عليه بذكرة « بشرية » تكون جزاء له من جنس عمله ، فيقول(٢١) :

« حافظ ابراهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجمع له ، ويكره القبح وينعي على أمله . . . وما ان طلع عليه فتى دميم الخلق غير مستوى معارف الوجه الا قال له : يا فتى ليس الوزر عليك بل على أبيك لأنه لم يزد هرآ ! ويعقب « البشري » قائلاً : وادا اطئرت نظرية « حافظ » فلا شك في أن المرحوم والده تزوج على الطريقة الافرنجية ، فلم « يدفع » مهراً بل هو الذي أخذ « الدوطة » !

وما يليث بعد انقضاضه الصاعق على صاحبه وصفيه ، أن يبدأ بجلاء ملنته بهذه الصورة « البهية » :

« جهنم الصوت ، جهنم الخلق ، جهنم الجسم ، كانا قد من صخرة في فلة موحشة ، ثم نكّر في آخر ساعة في أن يكون انسانين كانو « السلام » !

ثم يأتي دور الازميل ، فينقش لنا هذا الشكل « الجميل » :

« أما ما يُدعى فيه فكاننا شَقْ بِمَا خلَقَ شَقًا ، وأما عيناه فكانا دَقَّةً دَقَّةً . وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ، فكانا عَهْدَ بِهِ إِلَى « نقاش » مبتدئ تشايهت عليه الأصباغ والألوان ، فداف أصفرها في آخرها في أبيضها في « بنفسجها » . فخرج مزاجاً من هذا كله لا يرتبط من واحد بسبب ... » .

وتتضي عملية التمثيل والتشويه لتوفي على النهاية فيقول (وامسك نفسك) :

« وانك لو نضوت عنه ثيابه والبسته دراءة من دونها سراويل ، وأفرغت عليه من فوقها جبة ضافية ، وتوجهت بعامة عظيمة متخالفة الطيات ، لغلته من فورك دهقاناً من دهاقن الفرس الأقدمين ! فإذا جرّدته كلّه وأطلقته في البر حسبته فيلاً ، أو أرسلته في البحر ظلتته درفيلاً ! » .

ويعذر أن يفرغ من « عمليته الآدمية » هذه يعود اليه يهدده على حرير ناعم وعطر فاغم ، لتحول صورته في نفسك بعد أن اجتوها قلبك ، واستعاد منها لبّك ، فيقول معاً ضاياه في روحه وظلله ، عما استباح من منظره وشكله :

« خفيف الفلل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المعاشرة ... وهو أوجود من الريح المرسلة ... » .

ثم يخاطبه مسترضياً :

« وبعد فإذا كنت يا صديقي قد وترتك بعض حتك ، ولم أعرض جميع مزاياك ، فلكيلاً أجعل لأحد سبيلاً إلى الاتهام ... » .

وهذه صورة حسية أخرى ، « جاحظية » يصف بها جسمآ آدمياً آخر ، يبدو أنه كان — هو الآخر — معدوداً في جملة « هواياته » (٢٢) .

« ... ان عينك لا تقاد سقطت عليه حتى تشعر بما بين خلقه وبين (قيافته) من سوء التفاصيم ... ولو تمثلته وقد يهد ما بين كتفيه ، وتقرب ما بين كشعيه ، وما يزال يتقارب في منازله إلى مستدق حذاءيه ، لرأيته منه خروطاً معموكساً ، أو على الأصح قمعاً مكتوفاً ! » .

وهذه صورة أخرى تذكر بالجاحظ وصورة « الهندسية » البارعة ، يصور فيها « زبور باشا » — من مياسيي مصر السابعين — (٢٣) .

« أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الأنفية ، فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحتاته إلى فن دقق ومهندسة بارعة . والواقع أن « زبور باشا » رجل — اذا صح هذا التعبير — يمتاز عن سائر الناس في كل شيء ، ولست أمني بامتيازه في

شكله المهول طوله ولا عرضه ولا ينبع ماء ، فان في الناس من هم أبدن منه وأبعد طولاً وأوفر لحماً ، الا ان لكل منهم هيكل واحداً أما صاحبنا فاذا اطلت عليه أدركه لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدرى كيف اصلت ولا كيف تلتقي بعضها ببعض ، وانك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنهما ما يدور حول نفسه ومنها ما يدور حول غيره ، وفيها التببس المتبعج ، وفيها المسترخي المترهل . وعلى ذل حال فقد خرجت محببة عالية مالت من شفافها الى الانعام شعبه طولية اطلاع فوقها على الوادي رأس فيه عينان زانفتان ، طلة من يرتفع السقوط الى قراره ذلك المهوء السعيق ! »

.. ويعد أن يعرض ما أخصي على صاحبه هذا من أمور مستنكرة في حق القضية الوطنية ، وما أخذ عليه من سفير في اموال الدولة واستهثار بصالحها .. يخلص الى هذا الحكم الطريف :

« ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الاعمال هو مخـ « زبور باشا » ، فما أحبه شارك ولا دخل ، في شيء من كل ما حصل ! »

وهذا نموذج آخر من تصويره لا يقوم على الوصف الحسي ، بل ينصرف الى أخلاق « نماذجه » وطبيعتهم ، يصف لنا فيه بخيالاً من أعجب بخلاف العصر ، ولكن ليس فيه ظرف من عرقنا من « بخلاء » الباحظ(١٤) :

« .. وأما اثنياب فلا يكفي لتغييرها أن تهول ، أو يلحتها النصوص ، أو أن تبلئ خيوطها ، أو أن تتغير عروضها ، فهو لا يترکها بل هي التي تتركه حين يدركها الفناء ، فتطاير عنہ تطاير الهباء »

وهذا نموذج آخر من « بخلائه » (٢٥) :

« .. كان يخالف سنة البخلاء في خلطة واحدة : ذلك بأنهم ، كما تعرف ، يقتربون على أولادهم وعلى أنفسهم مما ، ولكن هنا كانوا نقيره موجهًا على عياله وحدهم . أما نفسه فكان لا يحقن فيها شهوة ، وبخاصمة شهوة الطعام ، بل لقد كان يبلغها من هذا غاية مناها ! »

« .. وأما المشاء ، فله فيه صنع بديع ! يدخل وقت المشاء فاذا صاحبنا قد سلف وأعد بعد الأولاد « ملائم » ، فاذا اجتمعوا اليه مستشرين لعشائهم قال لهم : « اللي ياخذ مليم ما يتشاش ، واللي يتعشى ما ياخذ مليم ! من اللي ياخذ مليم ؟ ويدفع أحدهم فيقول : (أنا !) وعلى حكم غريزة التقليد في اللسان ، يسرعون في تصايرون : (أنا ! أنا ! أنا !) ، فيدفع الى كل منهم مليمه ، وكفاه الله مؤونة المشاء ، اعني عشاء الأطفال ! »

« .. وبعد فللقطور قصة أخرى : ذلك بأنه زعم للزيارات القائم على رأس الشارع ، أن لديه حملًا يربىه ويعب أن يسمنه ، ويجزل لحمه وشحمه ، وليس يعتقد له ذلك ويسرع فيه أفضل من خلاصته (٢٦) (تصافي) قدر المصر ، ويبعث اليه بها في الصباح الباكر ، والأولاد

نiam ، فينرغها في صحفة كبيرة ، ويمالجهما بقدر من الغل ، ويصفف حولها كسر الخبز التي افضلها الأولاد في غداء أسمهم . حتى اذا هبوا من النوم ، وأهشاؤهم تتنزى من شدة الجوع ، فتواثبوا الى الطعام ، صالح فهم: (الله عاوز يفطر يجيب المليم !) فلا يسع كل منهم الا أن يطروحه اليه ، مواتاته لالعاج البطن ، وايثاراً للماضية ، فسرعان ما تعود تلك الملائم الى عشاها ، وتعتمس بوكرها ! .

اما يوم موته هذا البختيل « اللند » فكان يوماً مشهوداً :

« وفي يوم موته ، رحمة الله ، لم ينتظروه لأولاد حتى يقسموا التركة ، وبهتتوا الى اسم المصرف الذي يكنز فيه (المرحوم) ماله ، بل لقد كنت ترى أحدهم يهربون في الطريق وعلى رأسه (شيئاً) ، والثانية وعلى كتفه مصارع باب ، وثالثاً يحمل بين يديه طستاً ، ورابعاً يحمل مقطعاً مليءاً بالصناید (العنفيات) وهكذا ! »

ومثل هذا عنده كثير ، وكله يدل على مبلغ ما يمتلك به كاتبنا من قبرة فائقة على التصوير قلَّ أن يوجد بمثلها الدهر ، وقدستنا بعض نتائجها ، وللقارئ أن يقع على الكثير من أمثالها في تصاعيف كتبه .

□ سخرية ونكاته :

سخرية الكاتب ودعاته لا تفصلان عن وصفه وتصويره . وفي « التساذج » القليلة التي سنناها أمثلة بيته على ذاك ، وفيها قبركتافية . ولكن لدى الكاتب جانباً آخر من جانب السخرية اشتهر به ، يتصل بعياته العادي بين الناس ، وسايشه لهم ، وهو جانب « النكتة » ، وهو يؤلف قاسماً مشتركاً بين شخصيته وادبه . ففضلاً عما فيه من دلالة على شخصيته وحلو مفاكهته ، فإن فيه أيضاً بلغ البطل على رهافة حسه ورقته طبعه ، وهي صفات لاتلازم غالباً الا الأصلاء المتذرين بادبهم وفنهم ، يصدق ذلك على قسمائهم ومحدثيهم ، وهم كثير ، منهم على سبيل المثال الأعشى والخطيبة ، في العاملية ، ومنهم الفرزدق وجربين ، في الصحر الأموي ، ثم مشارداً بين الرومي والمتني والباحث والمصري وغيرهم . وكلهم قبور أنداد ، ترتبط حياتهم بفنهم وادبهم أقوى ارتباط وأوثقه ، ولن نفيض في الكلام على هذا الجانب عند أدبياته البشرية » وستكتفي بعرض بعض من هذه النكتات التي تزيد في جلاء صورته وكشف طبيعته ومزاجه . منها ، وهي مصوحة بقلمه ، يعنيون (في الخدمة !) :

« لقيتني اليوم في الترام للماء (تربى) مشهور أعرفه ، فسلم وسلمت ، وأقبلت عليه أحبيه ، بما جرت به عادة الناس ، وأسألته عن شأنه ، فقال لي يريد التعية في لهجة تشف عن الصدق والأخلاق : (احنا في الخدمة !) ، فقلت له : الله يحفظك ! فلما جاء من فوره كذلك في اخلاقه ولهفة : (ربنا لا يعمرنا منك !) . »

وآخرى يعنيون :

أعوذ بالله !

« على طريقى الى المدار (حاسوت) والعياذ باه تعلى ، تُضىءت فيه خشبة الموى
ودكك النسل تنفيداً بديماً .. وينجلس على بابه كل يوم من الصباح الباكر عماله الكرام ،
من (غامليين) وحمالين ، ومنشدين ..) وهم يتوصون وجه كل غاد ورائج ، لعل القدر
يسعدهم يمرزوء(٢٧) في أحد بيته ، أو في آسماؤ في أبيه .

وجزت بهم مصيح يوم وعيناي تضجع بالسمع من أثر الرمد ، فاتلعوا الى عناقهم ،
ورأيت البشر يشع في وجوهم ، وسرعان ما تعركتوا جذلين للثاني ، وهم يدعون الله في
أنفسهم أن يجعل (استفتحي لين !) ، فصحت فيهن : استريعوا يا أولاد الـ ٠٠٠ ، فما بي
واه يبكاء ، ولكنه الرمد ، وكلنا وله الحمد بغير وعافية ، وقطع الله أرزاقكم ، ولا أدخل
النسمة عليكم ابداً ٠٠٠ ! »

وهذه ثلاثة يمتوان :

« مفتشر عموماً ! »

« اعترضني اليوم في مقفلة من الديوان شاب أنيق الملبس ، لعله طالب في احدى
المدارس المالية ، أو في السنين الأخيرة من التعليم الثانوي ، وقال لي : (يا عم) كم
الساعة الآن ؟ فطالعت ساعتي وقتلت له : الساعة ٢ وسبعين دقائق ، فحسر كمه فانكشف
عن ساعة ذهبية ، ونظر فيها وقال : لا ! لا ! ساعتك مؤخرة لاربع دقائق ! ثم خلّى بيته
وبيّن طريقه ، وانطلق لطيته ! وبعد أن أجلت ظني في شأنه أدركت انه ربما كان ٠٠٠ « مفتشر
عموم الساعات » !

□ مميزات اسلوبه :

للكاتب اسلوبه الذي يدل عليه ، وهذه اولى ميزات هذا الاسلوب ، ولعلها اهمها .
وهو اسلوب تفرد به حتى عد - كما شهد له بذلك طه حسين - « مدرسة وحده » في جيله ،
ووصفه بالكاتب العظيم حين قال : ان المتفقين « ليسوا من الجعود والمقوق بعيث يقصرون
في ذات كاتب عظيم كهذا الكاتب العظيم - وعندما ان اسلوبه ارفع وأعسر وأشد استعمالاً
من ان يتعلق به المتأثرون والمقلدون ٠٠٠ » هو اذا في اسلوبه ، غير مقلد فلا مجال للحادق
- كما أسلفنا في القسم الأول من هذا المقال - (المدرسة التقليدية) ، ولا هو مقلد ، فلم
يتعلق به أحد كما قال طه حسين ، ولم يحاول تقليده أحد - وقد رأينا مع ذلك أنه أقرب
- بأسلوبه خاصه - من مدرسة المحافظين ، فهو في جزالته وقوته أمره وتقىيله المباريات البدوية
التي تبواحياناً وكانها قدّرت من صغر ، أقرب إلى هذه المدرسة والصنف باصحابها وحاملي
رأيتها .

وللكاتب ، مع ذلك ، تمايزات فريدة خص بها وخصت به ، تدل على حيوية اسلوبه ،
وحرصه على تصعيد الكلمات العية المعبرة - وزاد على ذلك فاعترف بأنه يسف أحياناً الى
« العامية الشائنة » ، اذا اقتضاه المقام ذلك ، يقول(٢٨) :

« ولملك آخدي يانني أسف» أحياناً إلى العامية الشائهة ، فلأوردها في درج الكلام ، وعذرني في ذلك ما تعرف من انتها. نكتب بلغة ، ونتناول أسبابنا الدائرة بلغة أخرى ، وهيهات للك ان تجلّي على القارئ صورة كاملة من حديث قوم في مواقفاتهم ومتادراتهم ، واما تطارحوا من فنون النكات ، الا يان تورده تماطفوا به ، وبخاصة اذا كان يجري في التعبيرات التي تشيع على السنة الناس ، وتذهب عندهم مذهب الامثال ، فاذا حاولت ان تزدلي هذا بفصيح اللغة فسد الفرض واختل نظم الكلام . وللامام الجاحظ في هذا المعنى قول جليل فراجمه ان شئت في كتابه (البغاء) » .

وهو رأي – كما ترى – يدل على روح تجديدي واضح ان لم يسلكه في عداد المجددين فهو لا يسيغ جعله في مناي عنهم ، بل لا يمكن من عقد صلة من صلات القرابة معهم ! . ويقول موجهاً الكلام الى الاستاذة علام سلامة ، ومصطفى صادق الرافقي ، وصادق عمير ، واخراجهم من أصحاب اللغة والمتشددين فيها (٢١) :

« اذا اتيتم لا يتندر الناس الا بالفصيح فعليكم اولاً بتحفيظ الامة كلها « العلاقات السبع » والملعمات السبع ، والذهبات السبع ، والمنتقيات السبع الخ .. الى استظهار « الكامل » للميرد ، و « الامالي » للقالى ، و « صالح الجوهرى » ، و « مخصوص ابن سيده » ، والأساس للزمخشري الخ الخ ! .. وانا زعيم بأن الناس لن يعودوا يسمعون في اعراس (أولاد البلد) في حل الفتاء في (قافية اسماء الشوارع) مثلاً : اللي على جتنك ! اشمني؟ الضرب لحرم ! .. بل سيسمعون بذلك ان شاء الله : هنا البدى على جثمانك ! ما باله؟ .. من أثر المشق بالبساط .. »

و واضح من هذا الكلام حرص الكاتب على أن يظهر أمام قرائه بمظهر المجدد غير المتشدد ، فهو يقول مثلاً تحت عنوان (غواة) :

« اذا أباها علينا صديقنا الاستاذ « صادق عمير » قلنا (هوا) ، وأمرنا الله » .

بل لقد يترخص الى درجة الوقوع في الخطأ اللغوي أحياناً فيقول : « يكلف صاحب (المهم) الفراش باحضار « طقم » الشعراء » .. والصحيح « احضار » .

على أن له كما أسلفت الفاظاً وتعابير فريدة ، في أكثرها حيوية قل أن تجد لها مثيلاً عند كتاب عصره ، من مثل قوله في وصف جسم :

« اذا دنا منك سمعت له زحيراً من كثرة اكتناز الشحم » .

وقوله في السيارات :

.. « كان مهمتها في هذا البلد صنع أرامل وتغريب أيتام » .

وقوله :

« لا تراه الا طرباً طرب العقاد » (٢٠) حين يسأله في (تقاسيمه) .

وقوله :

« متحفظ دونك ما تتفصّل نفسه من الرأي يكثُر ولا قليل » .

وقوله :

« الموظف الذي ينكسر همَّه على طلب كُسْتى العجَاب والسماء » .

وبعد فهذا كاتب دخل إلى دنيا الأدب من غير دويٍّ ، وغادرها من غير دويٍّ .. ونامت أكثر الأعين والأسماع عنه توْمَها الهايدي والمُعيق ! .. ولكنَّه لم يُغضِّ عن أحبابه ومقربيه بمضي الشهاب لا وقع ولا أثر ، بل كان النجم الذي يظل يلمع ويضيء ، ويزداد على الدهر تالقاً والتماءعاً .



الحواشي : □

- ١ - اعلام الأدب والفن (٤٦٢/٢) .
 - ٢ - « المختار » - للبشرى - مقلمة العزءة ٢ (ص ٨) .
 - ٣ - اعلام الأدب والفن (٤٦٢/٢) .
 - ٤ - من معاشرة لـ (١٩٣٣) نشرت في « الأهرام » والسياسة .
 - ٥ - المرجع نفسه .
 - ٦ - « المختار » (٢٢/١) .
 - ٧ - المختار (٢٥/١) - (٧ مكرر) المختار (٦٢/٢) .
 - ٨ - المختار (٦٧/٢) .
 - ٩ - المختار (١٠٩/١) .
 - ١٠ - المختار (١٠٨/١) .
 - ١١ - المختار (١٠٢/١) .
 - ١٢ - المختار (٦٥/٢) .
 - ١٣ - المختار (٤١/٢) .
 - ١٤ - المختار (١٢/١) .
 - ١٥ - المختار (١١٦/١) .
- ٢٦ - الخلاصة : ما يبقى في القبر من تفل أو لبن أو فيء .
- ٢٧ - مرزووه : مصاب .
- ٢٨ - في المرأة ح - المقلمة .
- ٢٩ - في المرأة (٨٦) .
- ٣٠ - من عبارة المؤسيين ، وما ذُكر مشهور على القانون .

أصداء حطين والقدس في الشعر العربي

د. عمَّر الدقاد

منذ أن ظهر على الملا عmad الدين زنكي وأعقبه ابنه نور الدين محمود في تصديرهما لل العملات الصليبية إبان القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ، ومن ثم دخول البلاد العربية والشرق الإسلامي على يديهما في طور التضامن والتوحد على نحو متعاظم ، أخذ الموقف العسكري ، في أعقاب سلسلة من المعارك المقلقة ، يميل لصالح العرب .

غير أن الصليبيين الذين هالهم الأمر ، حاولوا استعادة هيبيتهم ، واستقدموا تجددات كبيرة من أوربا ، ودخلت العروبة في طور جديد هو ما يعرف لدى المؤرخين بالعملات الصليبية الثانية ، وكانت وجهتها مصر كيلاً يقع يوماً بيت المقدس وعكا وسائر ساحل الشام تحت رحمة الجيوش الإسلامية ، اذا ما قدر للعرب أن يتعدوا . وكانت مصر ، في أواخر عهد الفاطميين ، غارقة في فوضى مياسية شاملة . وكان خليفتهم العاضد لدين الله طفلاً لا حول له ولا قوة ، فخلال المحو للوزراء ولرجال القصر ، واحتدم صراعهم على السلطة .. واضطرب شاور أحد حكام مصر إلى الاستعانة بالقائد القوي نور الدين محمود والتحالف معه عسى أن يتغلب على خصمه . وكان أن مضى أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين على رأس جيش إلى القاهرة سنة ٥٩٥ هـ . ولكن الصليبيين استطاعوا أن يهيموا على مقدرات مصر بعد أمد قصير ثم جهزوا حملة سنة ٥٦٤ هـ، انتلقت من القدس وعكا لاحتلالها وجعلها في حوزتهم ، وتمكنوا من احتلال بليس وارتکبوا فيها مجازر رهيبة . غير أن زحفهم قد توقف على أبواب الفسطاط والقاهرة ، ثم اضطروا للارتداد على أعقابهم نتيجة لاستبسال المصريين وتضعيفهم الكبيرة . وما لبث صلاح الدين في السنة نفسها أن تولى الوزارة بعد عمه أسد الدين . واستطاع بذلك وحسن تدبيره وعدله وسماحته أن يكسب محبة الشعب وولاء الجيش .

واحسن الفرنجية بالخطير الم قبل الذي كانوا يخشون حدوثه من قبل في حال دخول مصر في حوزة نور الدين محمود . أما وقد أصبح العرب في الشام ومصر تحت قيادة واحدة قادرة على أن تطبق بحاشتها على إماراة القدس الصليبيه ، فقد بدا للصلبيين أن خير سبيل للدفاع هو الهجوم ، وهكذا أعادوا الكرة من جديد لاستخلاص مصر لأنفسهم أو تولية من يرضون منه حادماً عليها ، فاحتلوا دمياط ، وراحوا يتحفظون للانقضاض على القاهرة . غير أن صلاح الدين بدل كل ما وسعه من جهدي التصدي لهده الهجمة ، ثم خرج للقاء الفرنجية بنفسه على رأس جيش كبير فقههم ، وبعد حين في عام ٥٦٦ هـ خرج صلاح الدين من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم بعد أن نظم جيشه أحسن تنظيم وعباه أفضل تعبة ، فاغار على حصنون الصليبيين في الساحل غارات موفقة ، وعاد مظفرًا إلى مصر بعد أن عظمت ميسيته في النقوس . ثم أتى إليه الأمراء بمدحافة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ وتلقب بالملك الناصر . وكانت سنه سبعة وثلاثين عاماً .

وأستطاع صلاح الدين بعد ذلك أن يحقق هدفه كبيراً لا بد منه لبلوغ النصر العاسم وهو توحيد شمال البلاد العربية ، فدانت له مصر والشام والموصل وبلاط العزيزية وديار بكر والجهاز واليمن وجاء من بلاد المغرب ، وتدفق عليه المجاهدون من جميع تلك الأرجاء ، وانصبوا موارد الأمة في سبيل حركة الجهاد^(١) .

وبعد أن وطد صلاح الدين الأمر في مصر وبمشق وحلب ، وذلل ما اعترضه من عقبات ، وأزال من تصدى له من العكams خرج عام ١١٧٧ م على رأس جيش كبير يروم كسر شوكة الصليبيين ، ولكنه مع ذلك لم يفلح في تحقيق النصر المنشود لشدة تحصينات العدو ومنعة قلاعه . فارتدى إلى مصر ، وحمل يزيد من استعداده في ضوء تجربته السابقة .

* * *

ان حياة حافلة بجلال الأعمال وروائع الانتصارات عاشها صلاح الدين زمام ثلاثة عقود من السنين كانت جديرة بأن تشد إليها النفوس وتجذب نحوها القلوب ، فمنذ أن تولى صلاح الدين شؤون الإدارة وال الحرب ، وهو ابن سبع وثلاثين من عمره انعقدت عليه أوسع الآمال في طرد الصليبيين واسترجاع الريou الرابع المحتلة إلى أهلها العرب .

وكان من طبيعة الأمور أن يواكب الأدب تلك الأحداث الجسام وينقل بما تنطوي عليه من انتصارات باهرة كانت تهز ضمير الأمة ، وتلهب قرائح الشعرا ، وتشهد السنة المخطبات . وقد ذكر بعض الدارسين زمام خمسين شاعراً^(٢) ، منهم المصري والشامي والعرقي ... كانوا يقيمون إليه حيث كان ، فيباركون عليه مهنيين ، وينشدونه الأشعار مدحين ومجدين . وقد وصف العماد الأصفهاني بعض هذه المحافل من مثل ما أعقب سلسلة انتصاراته السابقة وذلك قبل معركة حطين واسترداد القدس ببضعة عشر عاماً فقال^(٣) : « كثت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بمحشق في دار العدل فحضر الشاعر سعادة

الغزير وهو من اهل حمص ووقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان احدى وسبعين
وخمسين ، وقد استهلها بالفزل^(٤) :

حيثك اعطي الصدود بياتها ما نسب اليها على كتابها

وذكر النساد انه في اليوم التالي احتفل العفل ، بحضور اهل الفضل ، فانشد الشاعر
بين يدي صلاح الدين^(١) :

لا يقدعنك ما حلوتا وما عضداوا هم الذئاب ، وانت الصيغم الاسد

وكان من قصدوا الى دار المدل ايضاً بدمشق البهاء السنجاري ، وهو من الموصل
فانشد قصيدة مطلها^(٥) :

جردت من فتكات لحقك مرهاها وهزرت من لين القوام متفقا

وكان صلاح الدين دائب الحركة كثير التنقل لا يكاد يستريح به جواهه في ارض حتى
ينهض الى اخرى . وحين بلغ حمص سرا وعسكر بالعاصي ، قصد الناس الى خيمته
مرحبين ، وفيهم الشاعر مهذب الدين الموصلي حيث قال من قصيدة^(٦) :

وما خضع الفرج لدريك حتى رداوا ما لا يطاق من الكفاح

ملات بلاهم سهلا وحزنا اسودا تحت غابات الرماح

وكثيراً ما ارسل الشعرا بقصائدتهم الى صلاح الدين وهم يعيشون عنه يقرئونه
التعبيات ويقدمون له التهاني عبر قصائد مطولة . كما فعل سبط ابن العاويد من بغداد^(٧) ،
وابو علي الحسن الجواني من مصر^(٨) . وقد ضاع الكثير من هذا الشعر الغزير ، بل
لم يبق من مظمه سوى القليل روت بعضه اوطفاله كتب الادب وكتب الترجم ، مثل كتاب
الروضتين ، وخريدة القصر ، ومجام الأدباء ووفيات الأعيان ... وكثيراً ما يرد ذكر
لشعراء مدحوا صلاح الدين دون أن نثر لهم في ذلك على شعر .

وربما يكون الشاعر أسامة بن منقذ أميرشيزر وفارسها من أشهر الذين أرسلوا الى
صلاح الدين مشيداً بياده وحسن تدبيره ، وقد بعث اليه بجملة من القصائد ، الواحدة بعد
الأخرى ، في اثر بعض الأحداث التي كانت تستجد عهدهن بين الحين والحين ، من ذلك
قصيدتان داليتان وثالثة ميمية وغيرها^(٩) ...

وكثieron هم الشعراء الذين عاشوا في ايام القرن السادس الهجري/الثانية عشر
الميلادي ، وعاصرروا أحداث عصرهم وواكبا حياة صلاح الدين العافلة بعثائلاً الاعمال
وروائع الانتصارات ، فبالاضافة الى الذين سبق ذكرهم كان لعمارة اليمني شهر حسن في
صلاح الدين حينما اشاد بجيشه الجرار الذي آخره في مشارف دمشق وأوله في ضفاف النيل ،
وانه لو لا يامن هذا البطل واستنقاده مصر لتبدل خريطة الاسلام في الشرق كله^(١٠) :

جلبتم اليه النصر أوسا وخرجا
كتائب في (جيرون) منها اواخر
ولو رجعت مصر الى الكفر لانطوى
وهي قصيدة تنطوي على سجل حي لتلك المرحلة العاشرة بالأحداث

على ان استرجاع الأرض ولا سيما بيت المقدس من أيدي الصليبيين كان الهاجس الملح او الأمل الكبير الذي كان يسيطر في نفوس العرب ويتجلى على السنة أدبائهم . ومن أمثلة ذلك ما نجده في قول العماد الأصفهاني مخاطبا صلاح الدين وحاضرا اياه على مهاجمة القدس وقسم ظهر الفرقين :

لهم من دماء الفاردين بها غندرا
قصبئوا على الأفونج سوط عذابها
الى ان يصل الى بيت القصيم مطالبا بفتح بيت المقدس :
ولا تهملا البيت المقدس ، واعزموا على فتحه غازين وافترعوا البكرا

والذي يعنينا في هذا المجال المحدود من شهر العياد الأصفهاني وغيره من الشعراء المعاصرین لصلاح الدين هو تعبيرهم - كلما وجدوا الى ذلك سبيلا - عن هذا الهم الدفين الذي كان يuttle في نفوسهم بل في ضمير العرب والمسلمين كافة ، انه استعادة بين المقدس ومسجده الأقصى وصحرته المشرفة ، وهذاما نجده أيضاً في قصيدة أخرى للعماد الأصفهاني اذ يقول مناجياً الملك الناصر(١) :

دماء متى تجرها ينتف
وخلص من الكفر تلك البلاد يغتصك الله في الموقف

وانه لهاجس قديم سبق أن عهدناه منذ أيام عماد الدين زنكي ثم ولده نور الدين محمود وتجلى على السنة الشعرا والخطباء ولا سيما ابن القيسرياني من قبل .

وحيث غزا صلاح الدين ساحل فلسطين واستعاد غزة وعسقلان انتعشت الآمال واشتدت الزرائم ، وأخذ الجميع يتطلعون بهفة واستبشران الى المرحلة التالية ونهاية المطاف . وقد انفعل عمارة اليمني آنئذ بهذا الانجاز العسكري الهاام ، وعبر عن نشوة وطنية دينية باللغة بذلك الانتصار الكبير فقال مشيداً ببني ابوب وزعيهم :

جهارا ، وطرف الشرك خزيانا مطريق
يفيض ابناء البر منه ويعيق
الغيل ، فابشر ، انت غاز موفق
غزوا عقر دار المشركين بغزة
وزاروا مصلى عسقلان بارعن
اضفت الى اجر الجهاد زيارة

وفي رأي العmad الأصفهاني أن هذا الفتح لدن الساحل لم يكن من صلاح الدين سوى سلسلة نحو تحقيق الهدف الكبير ، حيث يتطلع كل عربي تطلع المشوق اللافت الى ما بعده وهو فتح بيت المقدس الذي طال انتظاره :

وهيعبت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه اليك التشوّق
وفزوك هذا سلسلة نحو فتحه
قربياً ، والا راتلـ(١٢) ومطرقاً
هو البيت ان تفتحـه ، والله فاعلـه
فما بعلـه بـاب من الشـام مغلـق

لقد كان المهدى واضحـاً أمام القائد صلاح الدين منذ أن امتلك زمام الملك وتولى زعامة الأمة . غير أن الأمور مرهونة بأوقاتها ، إذ كان لا بد من تحقيق جملة من الأعمال قبل خوض المعركة الفاصلة ، وهكذا يمدد سلسلة من المعارك والغزوات تم خلالها اقتحام حصنون وقلع واسترداد قرى وبلدان انتعـصـتـ صـلاـحـ الدـينـ إـلـىـ تـدـعـيمـ الدـوـلـةـ وـبـنـيـانـهاـ ، وتوطـيدـ أحـوالـهاـ وـأـوـضـاعـهـاـ . وـوـجـدـ منـ العـكـةـ أـنـ يـتـظـاهـرـ أـمـامـ الدـوـلـةـ وـالـمـاهـدـةـ ، فـمـقـدـ مـهـ صـلـحـ لـدـاءـ عـامـينـ (١١٨٠) ، دـأـبـخـالـلـهـاـ عـلـىـ تـجـمـعـ القـوـىـ وـحـشـدـ الطـاقـاتـ ، وـكـذـلـكـ تـبـثـتـ المـوارـدـ وـأـعـدـادـ الـجـيـوشـ . حتىـ إذاـ مـاـ تـمـ لـهـ ذـلـكـ ، وـتـدـقـ عـلـيـهـ الـجـاهـدـونـ مـنـ جـمـيعـ الـأـمـقـاعـ ، يـادـرـ عـلـىـ عـادـتـهـ فـيـ بـعـثـ الطـغـيـانـ مـنـ الـأـمـورـ ، إـلـىـ جـمـعـ خـلـصـائـهـ وـأـعـواـنهـ ، وـاسـتـدـاعـ قـادـتـهـ وـأـرـكـانـهـ ، وـخـاطـبـهـ بـمـاـ قـرـنـ فـيـ نـفـسـهـ ، بـعـدـ الـاتـكـالـ عـلـىـ اللهـ ، مـنـ الزـحفـ عـلـىـ بـيـتـ الـقـدـسـ ، وـاسـتـرـجـاعـ سـائـرـ الـرـبـوـعـ الـمحـتـلـةـ مـنـ أـيـدـيـ الـفـرنـجـ ، وـاسـتـصـالـ شـافـتـهـ مـنـ بـلـادـ الـمـرـبـ وـالـمـسـلـمـينـ . فـلـقـيـ مـنـ مـجـلـسـهـ كـلـ الـمسـانـدـةـ وـالـتـائـيـدـ ، وـبـشـرـوهـ بـنـصرـ مـنـ اللهـ وـفـتحـ قـرـيبـ .

وفي يوم مشهود توقف صلاح الدين في أعلى جبل المقطم بالقاهرة وهو على صهوة جواده عند مدخل القلعة (التي عرفت بعده بقلعة صلاح الدين) ومن حوله أشد المعاريف يأساً وأعظم الفرسان شأنـاً ، خرج الناس لتوديمه وقد غلبهم التأثر ، واستبدلت بهم العصامة ، وعلت استنتمهم بالدعـاءـ لهـ ، فاستمعـ فيـ سـرـادـقـهـ إـلـىـ الطـغـيـانـ وـالـشـعـرـاءـ آمـلـينـ الـخـيرـ علىـ يـدـيهـ حتـىـ يـظـهـرـ اللهـ عـلـىـ أـعـدـائـهـ . وـمـسـاجـاجـ عـلـىـ لـسانـ أـحـدـ الـمـتكلـمـينـ يـوـمـذـ قـولـهـ مـتـمـثـلاـ بـقـوـلـ الشـاعـرـ الـقـدـيمـ(١٣) :

تمتع من شعيم هرار نجد فـماـ بـعـدـ العـشـيـةـ مـنـ هـرـارـ
فتـطـيـرـ النـاسـ مـنـ هـذـاـ القـوـلـ .

وقد قرـ في نفس صلاح الدين أن دشـقـ يـبـنـيـ فـيـ آنـ تكونـ منـطـلـقـ جـيـروـشـاـلـمـ العـسـمـ ، فـيـقـيـ فـيـهاـ حـيـنـاـ مـنـ الـوقـتـ يـوـطـدـ دـعـامـ اـدارـتـهـ ، وـيـعـبـيـ مـوارـدـهـ ، وـيـعـدـ جـيـشـهـ وـعـتـادـهـ ، مـقـارـبـاـ السـاحـلـ . وـفـيـ نـهـارـ الجـمـعـةـ الرـابـعـ عـشـرـ مـنـ رـبـيعـ الـآخـرـ سـنةـ ٥٨٢ـهـ (١٤) اـنـطـلـقـ صـلاـحـ الدـينـ بـجـيـشـهـ قـاصـداـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ طـبـرـيـةـ ، فـتـهـلـ عـلـىـ سـطـحـ الـمـضـبـةـ يـنـتـظـرـ قـدـومـ الـصـلـيـبيـنـ الـدـينـ اـجـتـمـعـواـ فـيـ أـعـدـادـ كـبـيرـةـ بـمـرـجـ صـفـرـيـةـ بـأـرـضـ عـكـاـ ، وـلـكـنـمـ لـمـ يـتـعـرـكـواـ مـنـ أـماـكـنـهـ ،

اذ انقسموا بين معبد لهاجمة صلاح الدين ، ومؤثر بقاء جيش الصليبيين متتركـزا في
موقعه ليحسن التصدـي للمرـب .

ولم يطل بهم الأمر كثـرا ، اذ قـام صلاح الدين بهجـوم مبـاغـت على طـبرـية ، واقتـعـدـها في
سـاعـة واحـدة .

وـاـذ بلـغـ الفـرنـجـة ما حـدـثـ سـخـطـوا وـاسـتـبـدـيـهم القـلـقـ ، وهـبـوا يـسـتـدـرـكـونـ منـ أـسـرـهم
ما فـرـطـ . فـسـارـوا لـمقـاتـلـة صـلـاحـ الـدـيـنـ ، وـسـرـعـانـ ما بـلـغـوا مـشـارـفـ حـطـلـينـ الـقـرـبـةـ منـ
مـوـاقـعـهـمـ فيـ ظـاهـرـ عـكـاـ ، وـكـانـ ذـلـكـ فيـ يـوـمـ قـاتـظـمـ مـطـالـعـ شـهـرـ تمـوزـ ١١٨٢ـ مـ ،
فـأـنـبـرـىـ لـلـقـائـمـ صـلـاحـ الـدـيـنـ وـلـمـ يـسـتـرـجـوـ مـأـمـنـ عـنـاءـ الـطـرـيقـ وـوـهـجـ الشـمـسـ ، وـحـمـلـ عـلـيـهـمـ
بـشـدـةـ عـلـىـ رـأـيـنـ كـتـبـةـ كـتـابـ منـ فـرـسـانـهـ ، وـسـانـدـهـ فـيـ ذـلـكـ جـمـعـوـاتـ مـتـلـاحـقـةـ منـ جـنـدـهـ
وـهـمـ يـصـيـحـونـ بـصـوـتـ هـادـرـ (اللهـ أـكـبـرـ) . وـخـلـالـ نـهـارـينـ مـنـ الـهـوـلـ تـشـتـتـ شـمـلـ الفـرنـجـةـ
وـرـاحـوا يـرـجـعـونـ الـقـهـقـرـىـ . فـقـبـلـهـمـ الـمـرـبـ وـأـحـاطـهـاـ بـهـمـ مـنـ كـلـ جـانـبـ ، وـأـطـلـقـواـ عـلـيـهـمـ
الـسـهـامـ ، ثـمـ حـمـلـهـمـ بـالـسـيـفـ . فـاعـتـصـمـتـ أـعـدـادـ كـبـيرـةـ مـنـهـمـ فـيـ يـوـمـ الثـانـيـ يـتـلـحـلـينـ (١٥)
فـضـايـقـهـمـ الـرـبـ أـشـدـ المـضـايـقـةـ . وـيـرـوـيـ الـمـؤـرـخـونـ أـنـ بـعـضـ الـأـشـدـاءـ مـنـ جـنـدـصـلـاحـ الـدـيـنـ
عـدـنـاـ إـلـىـ اـفـسـادـ مـيـاهـ آـيـارـ الـأـعـدـاءـ كـمـ أـشـلـلـوـاـ الـنـيـرانـ فـيـ الـأـعـشـابـ الـيـابـسـةـ الـمـعـيـطـةـ بـمـوـاقـعـهـمـ ،
فـزـادـ هـذـاـ مـنـ اـرـتـاكـهـمـ عـلـىـ حـيـنـ كـانـتـ ضـرـبـاتـ الـجـيـشـ الـمـرـبـيـ تـهـالـلـ عـلـيـهـمـ دـوـنـ هـرـادـةـ ،
فـتـصـدـعـ كـيـاـنـهـمـ وـأـنـفـرـطـ عـقـدـهـمـ ، وـاـكـتـفـتـ الـأـرـضـ بـقـتـلـهـمـ ، وـعـنـدـئـلـ مـلـمـ يـجـدـواـ بـدـاـ مـنـ
الـاقـرـارـ بـالـهـزـيمـةـ فـاستـلـمـواـ لـلـأـمـرـ بـجـمـعـوـ كـبـيرـةـ خـوـفاـ مـنـ القـتـلـ .

وـكـانـ فـيـ عـدـادـ الـأـمـرـىـ النـاجـيـنـ الـمـلـكـ (غـودـيـ فـرـيـ) وـأـخـوـهـ الـمـلـكـ (بـلـدـوـيـنـ)
وـ (أـرـنـاطـ) حـاـكـمـ الـكـرـكـ وـالـشـوبـكـ (١٦) .

وـانـجـلتـ تـلـكـ الـمـرـكـةـ الـكـبـرـىـ الـفـاـصـلـةـ عـنـ اـنـتـصـارـ مـرـيـعـ حـاسـمـ لـجـيـشـ الـرـبـ ، وـكـانـ
ذـلـكـ يـوـمـ الـجـمعـةـ ، الـرـابـعـ وـالـشـرـبـينـ وـالـخـامـسـ وـالـعـشـرـيـنـ مـنـ شـهـرـ رـبـيعـ الـأـخـرـ سـنـةـ ١١٨٣ـ مـ ،
الـمـوـافـقـ لـلـثـالـثـ ولـلـرـابـعـ مـنـ شـهـرـ تمـوزـ ١١٨٧ـ مـ . وـبـدـاـ وـاضـحـاـ لـكـلـ مـنـ الـرـبـ وـالـفـرنـجـةـ اـنـ
سـقـوـطـ الـقـدـسـ بـاـتـ وـشـيـكاـ .

لـقـدـ كـانـتـ مـعرـكـةـ حـطـلـينـ شـدـيـدـةـ الـوـطـاـءـ عـلـىـ الصـلـيـبـيـنـ ، وـلـمـ يـسـبـقـ أـنـ ذـاقـواـ مـثـلـهـاـ مـنـذـ
أـنـ قـدـمـواـ مـنـ دـيـارـهـمـ غـازـيـنـ . وـقـدـ هـزـمـواـ هـزـيـمةـ تـكـرـاءـ كـمـ تـحـطـمـ جـيـشـ الـجـارـ ، فـرـاحـواـ
بـيـنـ قـتـيلـ وـأـسـيرـ . وـكـانـ يـوـمـ تـارـيـخـيـ أـغـرـيـ اـنـتـصـارـ الـرـبـ وـالـمـسـلـيـنـ بـاتـ مـقـرـونـاـ عـلـىـ صـمـيدـ
وـاحـدـ بـأـمـاجـادـهـمـ الـكـبـرـىـ أـيـامـ بـدرـ وـالـقـاسـيـةـ وـالـيـرـموـكـ .

وـانـطـلـقـ صـوـتـ الشـمـرـ يـوـمـئـذـ مـهـلـلاـ لـهـذـاـ النـصـرـ الـعـظـيمـ ، وـتـكـاثـرـ الشـمـراءـ بـيـابـ
صلـاحـ الـدـيـنـ مـهـنـئـينـ ، وـتـوـالـتـ عـلـيـهـ الـقـصـائـدـ مـنـ كـلـ حـدبـ وـصـوبـ ، وـكـلـهـاـ رـضـيـ وـاسـتعـسـانـ
وـسـعـادـ وـاسـتـبـشارـ . وـمـنـ هـذـاـ القـبـيلـ قـمـيـدـةـ لـمـلـيـ بـنـ السـاعـاتـيـ (١٧) يـقـولـ فـيـهاـ بـنـشـوـةـ
عـارـمـةـ (١٨) :

جلـتـ عـزـمـاتـكـ الـفـتحـ الـبـيـناـ فـقدـ قـرـتـ عـيـونـ الـمـؤـمـنـيـنـ

غدا صرف الزمان لها ضمينا
ويَا لَه كَمْ أَبْكَتْ عِيُونا
ترقّعَ عنْ أَكْفِ الْأَلَامِينَا
وَسَلَّ عَنْهَا الْلَّيَالِي وَالسَّنِينَا
يَصْدِ الْلَّيْلَ أَنْ يَلْجِ الْعَرِينَا
وَصَدَقَتِ الْأَمَانِي وَالظَّنُونَا
وَتَرَضَى عَنْكَ مَكَةً (١٠) وَالْعَجُونَا
لَنَادَتْكَ : « ادْخُلُوهَا آمِنِينَا »
يَغْوِيُونَ الْحَدِيدَ مَقْنِعِينَا
هَلْ أَمْسَتْ رِمَاحًا لَمْ فَصُونَا
بِرُوقِ الْمَاضِيَاتِ لَمَا هَدَيْنَا
جَمْعُهُمْ عَلَيْكَ - رَحِيْ طَعُونَا
وَفِي (صَفَد) أَتَوْكَ مَصْقِدِينَا
ظَبَّى تَشْفِي بِهَا الدَّاءِ الدَّفِينَا
سَطَاكَ لِكَانَ مَكْتَبًا حَزِينَا

رَدَتِ الْخِيلَةُ الْإِسْلَامُ لِمَا
فِيَاهُ كَمْ سَرَّتْ قُلُوبَا
وَمَا طَبَرِيَةُ الْأَعْرُوسِ
حَسَانُ الْذِيْلِ لَمْ تَقْذِفْ بِسَوْهِ
لَفَضَتْ خَتَامَهَا قَسْرَا ، وَمِنْ ذَا
قَبْضَتِ فَرِيْضَةُ الْإِسْلَامِ مِنْهَا
تَهَزِّ مَعَاطِفُ الْقَلْسِ ابْتِهاجًا
فَلَوْ أَنَّ الْجَمَادَ يَطْبِقُ نُطْقًا
تَغَالِ حَمَّةُ حَوْزَتِهَا نِسَاء
تَمْيِيلُ إِلَى الْمُنْقَفَةِ الْعَوَالِيِّ
يَكَادُ النَّقْعُ يَلْهُلُهَا ، فَلَوْلَا
أَدْرَتْ عَلَى الْفَرْنَجِ - وَقَدْ تَلَاقَتْ
فِي (بِيْسَان) ذَاقُوا مِنْكَ بَؤْسًا
فَلَا عِلْمُ الشَّاءِمَ وَسَاكِنُوهُ
وَقَلْبُ الْقَلْسِ مَسْرُورٌ ، وَلَوْلَا

وَوَاضِعُ مِنْ خَلَالِ الْقُصِيْدَةِ أَنَّ هَذَا النَّصْرُ الْقُومِيُّ لِلْمَرْبُّ عَلَى الْفَرْنَجَةِ كَانَ فِي الْوَقْتِ
نَفْسَهُ نَصْرًا لِلْإِسْلَامِ إِذْ رَدَ إِلَيْهِ صَلَاحُ الدِّينِ مَا أَخْذَ مِنْهُ . فَنَدَتِ عَيُونُ الْعَرَبِ قَرِيرَةً بِهِ عَلَى
حِينَ فَاضَ الدَّمْعُ حَزَنًا مِنْ مَأْقِي الْمُسْلِبِيِّينَ .

ذَاكِ يَوْمَ أَغْرَى شَرَقَتِهِ الْمَنِيُّ ، تَبَرَّجَ طَبَرِيَةُ عَرَوَسًا مَجْلُوَّةً افْتَرَعَهَا الْقَانِدُ الظَّافِرُ .

وَيَطِيبُ لِلشَّاعِرِ ابْنِ السَّاعَاتِيِّ أَنْ يَسْتَلِمُ فِي قَصِيْدَتِهِ الطَّوِيلَةِ مَوَاطِنَ الْأَشْرَاقِ
فِي تِرَاثِهِ الْمَرِيقِ ، فَيَضْمِنُ أَبْيَاتَهُ حِينًا بَيْضَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، إِذْ هُمْ الْجَمَادُاتُ بَانَ
تَقُولُ (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ) ، أَوْ يَنْسِيْجُ قَوْلَهُ عَلَى غَرَارِ بَانِيَةِ بَشَارٍ مُسْتَبِّرًا صُورَتِهِ
الْذَّائِعَةُ الَّتِي تَشِيرُ إِلَى أَنَّ السَّيِّفَ فِي الْمُرْكَبَةِ هِيَ الَّتِي كَانَتْ تَتَبَرَّعُ قَتَامَةَ النَّقْعِ حِينَ أَخْدَتْ
تَهَوَّيَ الْكَوَاكِبِ ، فَيَهْتَدِي بِبَرِيقِهَا الْفَرَسَانَ :

يَكَادُ النَّقْعُ يَلْهُلُهَا فَلَوْلَا بِرُوقِ الْمَاضِيَاتِ لَمَا هَدَيْنَا

وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ هَاجَ النَّصْرُ قَرِيْعَةُ الشَّاعِرِ ابْنِ سَنَاءِ الْمَلْكِ فِيْمَنْ هَاجَ قَرَائِحُهُمْ ، فَنَظَرَ
وَهُوَ فِي مَصْرِ قَصِيْدَةً سِينِيَّةً أَنْهَادَ فِيهَا بَيْاسَ صَلَاحِ الدِّينِ وَجِيشَهُ يَوْمَ حَطَّينَ فَقَالَ (٢٠) :

حَطَّلَتْ عَلَى حَطَّينَ قَلْرُ مَلُوكِهِمْ وَلَمْ تَبْقَ مِنْ أَجْنَاسِ كَفَرِهِمْ جَنْسًا

ثم أطلب في ذكر خصاله وفصاله في اثر هذا العدد التاريخي الكبير :
 رأيت صلاح الدين افضل من غدا واثر من اصحي واكرم من امسى
 سجيته العسني ، وبعثته الكبرى ، وعزمه القعسا

وفي موكب الفرح الغامر ، اثر معركة حطين ، ينظم الشاعر فتیان الشاغوري ما حدث في ذلك اليوم (٢١) ، فيصف جانباً من تفصيلات المعركة وجزئيات القتال على نحو قلما التفت الى مثله الشمراء في نزوعهم المهود الى الاقتحام في الوصف والاسهاب في المديح ، ففي القصيدة نرى طلائع المغاربة الصليبيين بخيولهم ، الطهمة ، يعتلها فرسانهم الاشداء وهم يتنددون لقتال العرب ، ويطلقون صيحات الحرب :

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم يتذامرون على متون الفسّر
 اوردت اطراف الرماح صدورهم فولفن في علق النجيع الاحمر

وهذا القول يشير الى ما كان من حقيقة قوة الصليبيين ومدى استعدادهم للاقتال المرء ، ومنحى الشاعر في الوصف هو عدم التهوين من بأس العدو بل انصافه وبين قدرته ، وهذا يعيد الى آذاننا ما درج عليه كثير من شعراء الحمامة عند العرب ، ولا سيما ما أعدد اليه عنترة في معلقته ، وتأثر الشاعر هنا بالشاعر الجاهلي واضح على صعيد الألفاظ والمعنى ، بقصد تصوير منازلته لخصمه العميد ، او ما تجد في بايثية بشار خلال وصفه لجيش العدو الذي كان في انتشاره كجنح الليل ، وفي عنده كمدد الحصى ، وفي كثرة سلاحه كتابة الشوك ، او ما كان أخيراً من اشادة المتبنّي في معيته بجيش الروم الذي زحمت اطرافه الآفاق وبلغت زمامه أذن الجوزاء .. . ومع ذلك بindaاليوم من سير معركة حطين أن الصليبيين على قوتهم لا قبل لهم بايقاف المدد العربي وليس بوسفهم قهر العرب الذين طالما أعدوا لهذا اليوم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل يرهبون به عدوهم . . . ومكداً استغرق لهيب القتال ، وانبرى المجاهدون العرب بذريعة أعدائهم الاهوال ، فلا يقادرونهم كما يقول فتیان الشاغوري الا بعد أن ترتقى رماهم السر من دماء الفرنجة العمر .

وفي المقاطع التالية من القصيدة أيضاً ان أكثر ما كان يرى في زحمة الالتحام ، حيث يغفر ناه الموت الزرؤام ، رؤية مجاهد عربي وهو ينقض كالشهاب في اثر مقاتل صليبي يركض بخفة أمامه ركب العقارب عساه ينجو بجلده من القدر المحتوم :

فهناك لم ير غير نجم مقبل في اثر عفريت وجيم مدبر

وتنطوي بقية الأبيات أيضاً على اشارات واضحة الى ما دونته كتب التاريخ من تفصيلات معركة حطين ، وما نجم عنها من كثرة الأسر . حتى يبعث الأسرى بآياتهم الاشنان ، ويدرك المؤرخون أنه بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرةهم أن يبيع منهم يومئذ واحد بنعمل (٢٢) .

فمن الذي من جيشه لم يختبر
حتى لقد بيعت عقائل أرهاقت
بالسيبي بالشمن الأحسن الأحقر

ويشيد الشافوري ، في نهاية المطاف ، ببعض سجايا البطل الأيوبي الكبير تجاه
أعدائه ، وكيف أنه جنح للتسامح معهم ، فأنهم على نسائهم ، ومحامهم وذويهم من كل
أذى ، كما تقضي بذلك عقيدة المسحة :

آمنت سريهم ، وصنت حريمهم
وراء عنهم قاصمات الأفلاهر
ما ان راك الله الا امرا
فيهم بمعرفه ومنكر منكسر
متواضعه جل جلاله وبك اضعلت سطوة المتكبر

على ان البطل الأيوبي لم يشا ان يركن للدعة او يائس بالراحة ، كما لم يكن ذلك
الظفر المبين لغيره ويزدهيه ، فمضى في طريقه الى النهاية ، وتواتت الأحداث وتواصلت المعارك ،
اذ قر عزم صلاح الدين على لا يدع لمدوه فرصة لجمع شاته ، وهكذا استولى على
موقع حصينة في الساحل ليمنع وصول التهدبات الى القرنوجة في القدس ، وليبقى على خطوط
مواصلاته سالمة مع مصر ، كي يضمن وصول المؤمن والمدد اليه .

واستطاع القائد العربي اقتحام مدينة الكرك العصينة ومن بعدها مدينة نابلس ،
والاستيلاء على الكثير مما في ربوع فلسطين من مواقع وقلعات . وكان ابن سناء الملك شاعر
صلاح الدين يواكب هذه الأحداث ويصف هذه الانتصارات (٢٣) :

هل الكرك التكلى ياولادها انتهت عن النسل مما جرعته من التكيل
وكانوا لها كالعقد لكنه وهي واضحي لها جيش ابن أيوب كالغفل
اتاهم كمثل الرمل ينقل خيلهم الى الأفق ما فوق الطريق من الرمل

ثم يصف ما كان بعد ذلك من تهادي ماتبقى من مدن الشام تحت ضربات جيش
صلاح الدين وقدف الحصون الماديه بمجانيقه (٢٤) :

فناابلس لما نزلت بريوها اقامت بهم حق الصيافة والنزل
وقد رجمتها المنجنيقات اذ رمت لشيخ لعين كافر جاهل دزل

وكان أن تابع القائد صلاح الدين زحفه المقدس ، فيمم وجهه شطر بيت
المقدس ، فبلغ أبواب المدينة يوم الأحد ، الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ ١١٨٧ م.
وكانت القدس مدينة حصينة ، تحيط بها أسوار متينة ، فحاصرها العرب من جميع
جهاتها ، ونصبوا المجانيق لدك أبراجها . وقد احتمالي الصليبيون في داخلها بعد أن عقدوا
الزرم على الدفاع عنها . غير أنهم بعد أن تحملوا الحصار نحو من سبعة أيام ادركوا أن
لا قبل لهم بذلك الجيش الطافر وقوته الضاربة ، ولا سيما بعد أن خضدت شوكتهم ، ووهبت

عزيزتهم ، وتحققت في حطين هزيمتهم . فرأوا من الغير حقن دمائهم ، وقر رأيهم على رفع رايات التسلیم ، وجرت مفاوضات على شروطه . وكان صلاح الدين كدابه شهماً متسامحة مع أعدائه ولم يتذكر أو يتغير .

وفي يوم الجمعة السابع والشرين من رجب عام ٥٨٣هـ ، الموافق لمنتصف تشرين الأول من عام ١١٨٧ م دخل الناصر المظفر المدينة المقدسة . وصادف ذلك أن المسلمين احتفلوا في تلك الليلة أيضاً بذكرى ليلة الاسراء . وكان نمراً مؤزاً وفتحاً مبيناً (٢٥) .

وفي اثر ذلك المنعطف التاريخي العاسم طار صيت الناصر صلاح الدين ، وعم الفرج والابتهاج جموع العرب والمسلمين ، فدعت أخبار انتصاره في كل الأسماء ، وانفمرت بمحبته كل القلوب ، وغداً رجل الساعة وبطل الأبطال .

وما ان بلقت البشرى الجديدة بفتح بيت المقدس بعد حطين ، ارض الكنانة ، حتى هلل النام وكبروا ، وانطلقت السنة كتابهم وشعرائهم تباري في التعبير عن تشوشهم بهذا الفتح المبين ، وكان صوت ابن سنان الملك من مصر صوتاً مدوياً ومنتظراً في عالم الأدب ، وقصيدته كما هو شأن الكثير من أمثالها تجمع بين المديح والحماسة ، انه يخاطب البطل الأيوبي مرة أخرى اليوم بعد أن خاطبه بالأمس القريب في قصيدة سينية سالفة ، حين خط بيأسه يومئذ على حطين ، فيقول :

يا مثيل الاسلام ما قد تمنى	لست ادرى بسأي فتح تهنا
اذ فتحت الشام فقصرا	قد ملكت الجنان قصرأ فقصرا
حيث عادت تلك الشجاعة جينا	فاستحال شقائق الكفر صمتا
هروبأ او الفرار مجننا	أشبع القوم فيهم جاعل الترعر
فجرت فوقها العذائر (٢٦) سفنا	وجرت منهم الدماء بعارا
قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً	وحويت الافاق سهلاً وحزنا

كذلك بادر علي بن الساعاتي من جديد وبتساؤل المذهول المفتون ، الى تصوير وقع البا المظيم الذي جلّ عن أن يحيط به نظم من الشعر أو ثغر من الخطب (٢٧) :

اعيَا ، وقد عاينتم الآية العظمى لآية حال نذر التمر والنظم

وكان طبيعياً في موكب الشعر أيضاً أن يكون للعماد الأصفهاني ، شاعر صلاح الدين وكانته ما يقوله في هذه المناسبة ، مشيداً بنصر مليكه المظيم ، وما كان له على العرب والمسلمين من فضل عظيم . وقد استهل قصيده بالاعراب عن آباء لفارقة مولاهم منذ أن غادر ذلك القائد ارض الكنانة في حملته الكبرى مجاهداً لتحرير الوطن من دنس الاحتلال ، فقال (٢٨) :

استوحش القلب مد فبتم فما انسا وائلم اليوم مذ بتتم فما شمسا

ومن مصر أيضاً صور نقيب الأشراف شرف الدين الجوانبي ذلك الفرج النامر في اثر انتصارين خالدين : حللين والقدس ، يكاد المرء لا يصدق أخبارهما ف قال :

أترى مناما ما بعيوني أبصرا
القنس يفتح والفرنجة تتسر
ير قبل ذاك لهم مليك يتوس
ومليكتهم في القيد مصفود ولم
وعدار رسول فسبعوا واستغفروا
قد جاء نصر الله والفتح الذي
فتح الشام، وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام العشر
حيث الرقاب خواضع، حيث العيون
ملك غدا الاسلام من عجب به
يغتال ، والدنيا به تتبغض

وتمكّن القصيدة مشاعر الأمة يومئذ حين انتهاها البشري بتحقيق الأمل المنشود ، بعد أن غلب التشاوُم على النفوس ، وكاد الناس يستسلمون للپیاس ، فلا غرابة بعد ذلك أن يقر لدى المؤمنين بأن ما حدث كان نصراً من الله ووفاء بما وعد به رسوله ، وأن تتطوّر الآيات على العديد من المعانٰي الدينية المهدودة في مثل هذه الأحوال من التسبّيح والاستغفار ، ومن التطهُر والقيامة والعشر ..

وكان فخر الكتاب الحسن بن علي الجوني قد صور انفعاله بتلك الأيام الفر ف قال من قصيدة طويلة (٢٩) :

من شك فيهم فهذا الفتح برهان
جند السماء لهذا الملك أعون
له سوى الشكر بالأفعال اثمان
هني الفتوح فتوح الأنبياء ، وما
اضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
صيدا ، وما ضعفوا يوماً وما هانوا

وإذا تجاوزنا هذه الآيات التي استهل بها الشاعر قصيده وما تلاها من كلام معهود ينطوي على تصوير المشاعر الدينية المتاجدة والطابع المقدس لذلك النصر ، فإن الذي يعنيها هو جانب من المضمون الذي أورده الجوني ، وقلما عثرنا على مثله في كثير من الأشعار . فقد عقد الشاعر بعض المقارنات بين صلاح الدين وعدد من الملوك المتقاusين الذين سلقوه ، دون أن يلبو نداء من يستغيث بهم من وطأة الفرنجة وتجبرهم ، فأحجموا عن الجهاد وخانوا البلاد :

كم من فحول ملوك فودروا وهم
خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بيمليكساً طرابلسَ
فحاد عنها وصمّت منه آذان

ولعل من أهم ما يورده الشاعر في قصيده أيضاً ، فيما يقارب النزعة التوثيقية ، إشارته إلى بعض الحقائق التاريخية ، بل رصده للواقع السياسي والاجتماعي والنفسـي لحال العرب عهدـنة قبل أن تكتـحل عيونـهم بـمرـأـيـ ذلكـ الفتـحـ المـبـينـ :

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ
والإسلام انصاره صم وعميان

ومن هذا القبيل من ميل الشاعر الى التزعة التوثيقية قوله بعد ذلك مبينا الطابع السريع بل الصاعق للمسارك الكبرى التي استطاع بفضلها صلاح الدين أن يحسم المعركة الى حد كبير بين العرب والفرنجة :

فطهرت منه اقطار وبلدان
لو ان ذا الفتح في عصر النبي لقد
ما أجمل المبالغة في هذا البيت الأخير .

وانه لما يسترعى النظر في هذا النص اشار عن الخطب والاشمار ان تطير أخبار الفتح المبين الى اقصى الممورة وتلامس أسماء ابناء العمومة العرب في الاندلس ، فتهز نفوسهم وتخفف عنهم بعض ما كانوا يمانعونه من غفلة حكامهم ووطاة اعدائهم ، فدولتهم صارت الى دول ، والفرنجة هنا كما هن ايضا اعداؤهم . ونحن واجدون صورة لهذه المشاعر في قصيدة نظمها ابن جبير الاندلسي الرحالة الشاعر (٣٠) :

اطللت على افقك الراهن سعد من الفلك الدائري
ثارت لدين الهوى في العدا فاترك الله من ثائر
وقدمت بنصر الله الورى فسماك بالملك الناصر
وجاهلت مجتهدا صابرا فعادت الى وصفها الظاهر
فتحت المقدس من ارضه وجئت الى قيسه المرتضى
وأعليت فيه منوار الهوى فخلصت من يد الكافر
لكم ذخر الله هلى الفتوح من الزمن الاول النابر
وخصصك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخر

ولعل بيت القصيدة ابن جبير قوله ، وكأنه القرار في نهاية التشيد السعيد :
وادبر ملکهم في الشام وولى کامسهم الدابر

* * *

وانصر المد الصليبي بعد معركة حطين وفتح القدس ، وبعد الاستيلاء على الكرك ونابلس ، وسقوط عسقلان ، وبقي جزء من الساحل لاذ به الفرنجة وتواصلت منه امداداتهم مع اوربة . وكانت (صور) اسفع معاقلهم الباقية ، حيث تجمعت فيها بقايا جيوشهم المنهزمة . وكان ساحل الشام مهفلا صلاح الدين ومن قبله نور الدين وعماد الدين بعد أن تمكן فيه الصليبيون وأحسنتوا تحصينه، وقد برزت الرغبة في الاستيلاء عليه من جديد

حتى يغدو النصر كاملاً والطرد شاملاً . وينعكس ذلك في قول شاعر دمشقي اسمه سعيد ابن عبدالله منذ أوائل عهد صلاح الدين وانضمام دمشق إلى ملوكه :

فاسلم صلاح الدين ، وابي بيته دلس بدولتها مسوك زمانها
وانهض الى فتح السواحل بهضة قاتل تلك الأعداء بعد حرانها

وأذ تعود القدس إلى حوزة المرب ، تشتت الهمة على استعادة ما تبقى من مدن الساحل وفي مقسمتها صور ، وبدا ذلك في قول فتیان الشاغوري يخاطب صلاح الدين :

فانهض لصور هي أحسن صورة في هيكل الدنيا بدل لصور

ذلك يشير العماد الأصفهاني قضية صور وسائر مدن الساحل على هذا التعب من الاهتمام ، ولا سيما بعد تحرير القدس ، وهو الذي واكب بشعره معظم ما سلف من أحداث :

هل نعمليك صلاح الدين ، اكرم من يمشي على الأرض ، او من يركب الفرس
من بعد فتتك بيت الفلس ليس سوى (صور) ، فان فتعت فاقصد (طرابيسا)
واخل ساحل هذا الشام ومن في دينه نكسا

والتفت صلاح الدين إلى صور يمد أن استقدم أسطولاً من مصر لمحاصرتها من البر والبحر ، غير أن الفرنجية (وقعوا بسفنه ضربة على حين غرة في أحدي الليالي) ففك عنها الحصار بعد أن استعنوا اقتحامها على جندهم الذين أخذ منهم التعب مأخذها ، ووجد القائد الأيوبي أن من العكمة مقدار صلح مع الفرنجية كي يلتقي إلى اصلاح بلاده واراحة عساكره ، وما بثت الأجل أن وافاه بدمشق في ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، عن سبع وخمسين سنة . وكان يعترض لو امتد به الأجل أن يستكمل اجلاء الفرنجية عن جميع ربوح الوطن ، بل أن يغزو الجزر التي كانت في عرض البحر ليقطع عن أعدائه خطوطه امداداتهم من الأعتمد والمقاتلين ، وبذلك يتضمن له استئصال جذورهم ومحو أثرهم .

وكان موته حدثاً فاجعاً ، ولم يكن للبيه نظير منذ وفاة الخلفاء المراديين . وقد ارتاع له الشعر ، فرثاه آخر رثاء ، ونلب فيه تلك الحال السمعة التي جعلته حبيباً إلى القلوب ، أثيراً لدى النفوس ، ورمزاً للدفاع عن حمى الدين وربوع الوطن .

وأن ما قيل من شعر ومن نثر في أعقاب هذا النبا الأليم كان شديد الفرزارة ، ويکاد في معظمه يبكي العظمة والقومة ، والحزن ، والشجاعة ، والعزّة والكرامة ، والتقوى والسماحة . ولمل قصيدة واحدة كقصيدة العماد الأصفهاني تصلح لأن تكون صورة للمشاعر المزيرة في ذلك اليوم العزيز ، كمان كون أبياتها بلفت مائتين وأثنين وثلاثين بيتاً يشير إلى مدى انتماء النقوس بمشاعر الأسى والاجلال :

شمل الهدى والملك عم شتاته والنهار ساء ، وأقلعت حستاته

أين النبي عن الفرج لباسه
ذلا ، ومنها ادركت ثاراته
لو كان في عصر النبي لانزنت
في ذكره من ذكره آياته
ما كان اسرع عصره لما مضى
فكانما سنواته ساعاته

* * *

وإذا كان يحسن بالدارس - بعد هذا الرصد النسيبي للعديد من النصوص الشعرية - أن يضع هذا الشعر في ميزان النقد محاولاً أن يتلمس طبيعته ويسجل ملامحه ، ثم أن يجعل فيه النظر ، فيستخلص ماله وما عليه ويخرج بذلك بصورة أمينة وجلية له ، فقد يكون يكون من الجدي أن يفضي بما القول إلى ما يلي :

كان للشعر العربي دور هام في أحداث هذا العصر ، ولا سيما عبر القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وذلك في ظل المثلث القوي : عmad الدين ونور الدين - وصلاح الدين ، وهم القادة العظام الذين عاصروا المد الصليبي في بلاد العرب ثم انحساره ، كما واكبوا الأحداث الجسام وكانوا في كثير من الأحوال هم صانعيها .

وقدما الشعر عهدي ترجماتنا قوية مان كان يضطر به ذلك المصير من وقائع وأحداث ،
بعد أن كانت مضامينه ضحلة محدودة . وإن في مواكبة القصائد لأحداث عمرها ، وجعلها من
القوافي مراعيا لها حلها . كل ذلك أعطى الشعر سمة الحياة وطابع الصدق وغداً هذا
الشعر الموروث عن تلك الحقبة سجلاً ذا أهمية معرفية في وصف الكثير من الأحوال والملابس ،
بل تاريخ ما لا يستطيع التاريخ التهوّض به من تصوير منازع الأمة ورصد ضميرها
ومشاعرها .

وكان الشعر يحفز القادة والحكام على العمل ، ويقوى فيهم العزم على الجهاد ، ويزيد
في نفوسهم الشعور بالثقة والبأس . وملعوناً كثيراً من الشعر العربي ، ولا سيما هذا
الشعر الملتحم بالأحداث ، شعر محفل يلتقي القاء في المساجد ، أو ينشد انشاداً في المجالس ،
بين يدي أولي الأمر وذوي الشأن ، وذلك على ملا من الناس ، حيث يعرض كل حاكم أو قائد
على أن يقع في نفوس القوم الموضع الذي يريدون .

ومن جهة أخرى ، كان كل حادث سعيد من سلم زمام الأمور أو قهر خصم ، أو تحقيق
انتصار على عدو . حافزاً يهيج قرائح الشعراء ويفضّل نظفهم ، فتلتئم في اثر ذلك
المحافل ، وتتنطلق الآلسنة على المنابر . ويكون بذلك كله وقع في امتاع العامة وارضاء
الخاصة ، حيث تندو للأدب مهمة اعلامية ودعائية بالتنا الأثر في تهيئة النفوس وتنمية
العقل وتبني المشاعر .

وكان الحكام ، ولا سيما القادة في هذا العصر . يحرصون على حضور هذه المحافل
العاشرة أيام الجمع والأعياد وفي أعقاب تولي الأمور وتحقيق الانتصارات ، فيطربون لما
يسمعونه من حمد وثناء ، ويجدون على الشعراء بما يكون لديهم من فضل وعطاء .

وعلى صعيد آخر فان في حرص الشاعر على ذكر مجموعة من أسماء القادة الأعلام والامراء الحكام الذين ارتبطت شخصياتهم بالأحداث ، وكذلك ايراده أسماء البلدان والمواقع والمحصون التي كانت مسرحاً لتلك الأحداث ٠٠٠ كل ذلك كفيل بأن يضفي على تلك القصائد سمة واقية بارزة . غير أن هذه الواقعية قلما تأخذ أبعادها الازمة بسبب اغفال الشاعر فيأغلب الأحيان للعناصر الزمانية والمكانية الملازمة لمجرى الأحوال وسيطر الواقع ، والمرتبطة بطبيعة القتال وطابع المراك ، أو ما يكون من التصدى والاتهام ، أو ما يتصل بذلك من كفر وقر ، ومطاردة ومحاولة ، أو صيحات العرب ومحمعات الخيل ، أو صليل السيف وتشاجر الرماح ٠٠٠ الخ . فكثيراً ما يجعنه الشعراء ، على مهود الأعراف الأدبية السائدة ، إلى التعميم والبالغات ، وينجم عن ذلك في نهاية الأمر غلبة التسطيع على القصائد وافتقادها عناصر الصدق التسجيلي والتوصير الواقعي ، إلا ما كان على نحو محدود ومن خلال أشعار قليلة ٠٠٠ وتبعاً لذلك كله توارث خصوصية هذا الشعر ، وغلب عليه التشابه ، واختلطت خلاله النماذج ، وكان ان افتقد قدرأ كبيرة من الجدة والطراقة ومن التميز والأصالة .

وقد يكون من العسير احياناً - في مقابل غياب الصفة التوثيقية لجانب من هذا الشعر - أن يتمكن الدارس من التمييز بين القصائد التي كانت تقال في العديد من المناسبات ، كوصف معركة أو تهنئة بنصر ٠٠٠ كذلك يصعب الاهتمام خلال هذه الأشعار الى مناسبات هذه القصائد وفرز ما كان منها مثلاً في اعتبار الظرف في حللين أو فتح القدس ٠٠٠ فالشاعر العربي نفسه يؤثر التحدث في العموميات ويطيب له أن يحوم في فلك السجايا المثلثي والخصوص المجردة وتحو ذلك مما يصلح لأن يقال في أحوال متعددة وأزمان متباينة .

وان استقراء الأشعار التي تجاوحت فيها الصناعة الفزوة المصليبي يشير بجلاء الى أن محورها كان صورة البطل ، وما ينطوي عليه من الخصال والفعال ، ومن ثم تعجيه وتنمية الفضل اليه ، وهذا منحى يمكن تقبيله وفهمه دواعيه لأن الانتماف الذي حقق بخروج العرب من عهد الضعف والتمزق الى همданنة والتلاحم اتاماً مرده الى همة أفراد بعضهم جاد بهم الزمان على الأمة بعد طول قحط واحتباس ، فكان أن أجبت تلك الأيام قادة عظاماً مثل عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأمثالهم ، الذين القلوب المتناهية وجمعوا الجهود المبشرة ، ورأبوا الصدع ، ووحروا الشمل ٠٠٠ وكان كل ذلك ايداناً بنصر من الله وفتح قريب

ومع ذلك ويرغم التركيز على صورة البطل الفرد وما تنطوي عليه فيأغلب الأحيان من مبالغات ممهودة ، فإن الشعراء لم يقلوا وادماً المجهود الجماعي للمجاهدين وسائر المقاتلين في الجيوش المظفرة ، لأن هؤلاء فيحقيقة الأمر هم الذين يجودون بالأرواح ويصنعون النصر ، ومثل هذا المنحى ظاهر في قول ابن القيسرياني (٢٢) :

وَجَنَدَ كَالصَّقُورَ عَلَى صَقُورٍ إِذَا انْقَضُوا عَلَى الْأَبْطَالِ صَادَرُوا
وَانْبَسُوا مَكِيدَهُمْ أَخَافُوا إِذَا اخْفَسُوا عَلَى وَهْمِهِمْ أَبَادُوا

ولعل من الأسباب التي أدت إلى افتقاد القصائد المدحية - العمايسية التي ظهرت في عصر الغزو الصليبي لذلك التمييز المطلوب في العمل الأدبي وللتالي المنشود في النص الشعري إنما يرجع إلى أن الشاعر في تلك المرحلة قلما كان شاهداً للمرة براها من كتب ويعاينها من قرب ويعيش أحوالها ويتفعل بأحوالها . . . كما كان شأن السالفين من الشعراء الفرسان ، أو ما كان من شأن بعض الشعراء في عصور لاحقة من لزموا القادة في غزواتهم وصعبوهم في حلمهم وترحالهم ، مثل أبي تمام الذي كان في ركب الخليفة المتocom يوم وقعة عمورية ، ثم أبي الطيب الذي كان في صحبة أميره سيف الدولة أيام معركة الحدث .. وما من ريب أن مثل هذا الشرط لم يكن تتحققه يسيراً على كل شاعر . ومن جهة أخرى فإن تسارع الأحداث وتبعاد البقاع كان يعيولان غالباً دون مثل هذه المشاركة من قبل الشعراء . وكثيراً ما كانت قصائد التهنئة وال مدح والتمجيد ترد من أصقاع عربية وأسلامية بعيدة قد تبلغ أقصى خراسان أو أقصى الأندلس ، تبماً للطبع الشمولي للأحداث الذي تجاوز النطاق المحلي المحدود ، إلى رحاب الجهاد الديني والقومي الشامل .

ومن طوابع الشعر العمايسى في ذلك المصر، ان أكثر الشعراء في قصائدهم الجهادية دأبوا علىتناول هذا الموضوع المتصل بالأحداث على انه موضوع مباح يدخل ضمن الإطار الشامل لذلك الفرض البارز من أغراض الشعر العربي . . . وهذا المفهوم السادس والمتوارث عند الشاعر كان يقوده بطبيعة الحال الى التركيز على شخصية البطل أو القائد اي على شخصية المدحوب ، بحيث يتغدو محوراً ومنطلقاً لأوصاف جزئية ومعانٍ جانبية تتصل بصفاتٍ قبل كل شيء ، وتنتمي معها سائر العناصر الملحمية ثانوية تدور في فلك هذا الفرد الموصوف او المدحوب .

واعتماداً على هذه المعطيات اتكاً الشعراء في تصوير معارك مبنوّهم على الأوصاف السائنة في الشعر العمايسى الموروث ، ولا سيما قصائد أبي تمام والمتنبي ، وذلك لمدد من الأسباب ، أولها منزلة هذين الشاعرين ومسالهما من هالة في التفوس ، ومنها أيضاً قرب العهد من هذين الشاعريين العباسيين ، كذلك تشابه الظروف والمواقف والمارك تجاه عدو واحد بالآنس واليأس وهو الفرنجة : روماإصليبيين . .

لقد كان النموذج الشعري في كثير من الأحيان ماثلاً في الأذهان ، وسرعان ما كان الشيء بالشيء يذكر ، فتفقر إلى الذاكرة روانة شعرية حافلة بالملامح الملحمية مثل بائمة أبي تمام في (عمورية) المتocom ، أو ميمية المتنبي في (حدث) سيف الدولة . . . فيكون لشاعراء العقبة الصليبية من ذلك معين ثريتيكثون عليه ، ويقترون منه . . وسع ان هذا المنحى يفرغ بالتباري ويحضر على التجويد الآنه في الوقت نفسه يبقى الشاعر دائراً في تلك الشعراء الآخرين ، يستمد من معانيهم ويستعير من صورهم على حين ينأى بشعره عن سمات الابداع وملامح الأصلة .

يضاف إلى ذلك أن نأي شعراء هذه المقبة المتأخرة نسبياً عن العصور العربية الأولى وما كانت تفتقر إليه من مقومات المظلمة الماضية ، وعناصر المتعة السابقة ، حال دون تشبعهم بالنسخ المنشود لشعرهم ، اذ كان الجو الفا غالب عليهم قبل أن يفرض على المرء

وال المسلمين الواقع الجديد في اثر الاجتياح الصليبي هو الحياة برتاعتتها ، وما كانت تنطوي عليه من ممارسة الحكم والناس للشؤون المعيشية المتداة ، وأمور عيشهم اليومي ... كل ذلك يعني أن شخصية الشاعر عهد ذلك لم تكن مهيأة للنفف والصدام ، ولا مدة لروح المواجهة والتصدي ، بل كانت اليقنة أغراض المديح والرثاء وموضوعات الوصف والزهد ... حتى شعر العمامة نفسه ، وهو من أوسع الأغراض في الشعر العربي عبر المهد السالفه لم يعد له قبل الفزو الصليبي حيز حقيقي في الساحة الأدبية ، وقل من كان يمارسه من الشعراء لقلة مظاهر الباس وغياب الكثير من ملامح القوة لدى حكام ذلك العهد ورجاله .

وقلما كانت قصائد ذلك العصر تتجاوز السرد والنقل في إطار الوصف المعهود .

وأخيراً ، لعل من أهم اسياح عدم تالق كثير من الشعر الذي قيل في ظل العرب الصليبية ، غلبة المنحنى اللغطي ، وسيادة الرذينة البدعية على الذوق الأدبي العام ، فقد غدت عناصر السجع والبنان وغيرها من الرخاوف الأسلوبية تياراً فنياً طاغياً قلماً برئه منه كاتب أو شاعر ... وطبعيم أن هذا يعني طغيان الشكل على المضمون في الأدب ومن ثم افتقاد التعبير الفني في كثير من الأحيان لمقومات المبارزة الموثبة والصورة الحية .

وقد يكون في نهاية المطاف من أهم سمات الشعر في ذلك العهد من الوجود الصليبي في أرض المرب ان ذلك العصر لم ينجب شعراء كباراً في مستوى الفحول المتقدمين بعيث يكونون قادرین بما أوتوا من مواهب أن يعبروا عن أحداث عصرهم الجسام وانتصاراته العظام . لقد كانت قرائتهم كليلة ، لم تستعفهم على أن يرقوا في فنهما إلى مستوى تلك الأحداث المتقدمة ومعانقة نبضها المتشارع .

ان ما نهض به الأفتاده كمداد الدين ونور الدين وصلاح الدين من أمباء جسام ومهام عظام ، في ظل واقع سياسي مضطرب ممزق ، إنما ينحو إلى حد كبير ما قام به بعض الخلفاء العباسيين ثم القادة الحمدانيين ... ولكنهم يرغم ذلك لم يحظوا بشعراً بيدعين على النحو الذي جاد به الدهر على أسلفهم . لقد كانت أججنة الشعر في ذلك العصر أوهى من أن تنهض بتلك الإيجاد والبطولات . وهذا ما يجعل المرء يتتسائل بحسرة : لماذا كان يمكن أن يكون عليه حال أدينا العربي لو أن القدر أتاح لعباقرة العرب والفروسيه ابان الصراع العربي الصليبي شعراء كباراً يوازنون عظمتهم بما يقابل ذلك من مواهبهم ، ويكونون في مستوى الفحول المتقدمين الذين جاد بهم الزمان في المصادر العربية السالفة مثل بشار وأبي تمام ومثل أبي الطيب وأبي فراس ...

★ ★ *

□ العواشي :

- ١ - انظر : الأدب في بلاد الشام ٣٧ - ٤٣ ، الدكتور عمر موسى ياشا ، ط ٢ دمشق ١٩٧٢ .
- ٢ - الحياة الأذية في عصر الغرب الصليبي ، ٤٣٦ ، د. أحمد أحمد بيدوي .
- ٣ - خزينة القصر - قسم شعراء الشام ١ : ٤٠٦ .
- ٤ - خزينة القصر ١ : ٤١٢ .
- ٥ - خزينة القصر ٢ : ٤٠٢ .
- ٦ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٢ : ١٦ - ١٧ ، شهاب الدين أبو شامة . مصر ١٢٨٨ هـ .
- ٧ - وفيات الآباء ٢ : ٤٠٣ . ابن خلكان .
- ٨ - كتاب الروضتين .
- ٩ - يننظر كتاب صلاح الدين ، د. أحمد أحمد بيدوي ، ٥٤، ٥٣ ، ٧٢ .
- ١٠ - يننظر : صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتاباته ٥٥٤ - ٦٢ ، د. أحمد بيدوي . القاهرة ١٩٦٠ .
- ١١ - صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتاباته ٨٣ ، الدكتور ناصر محمد ناصر . القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٢ - المطرق : الطريق المهد .
- ١٣ - الأدب في العصر الأيوبي ٤٢ ، الدكتور محمد زغلول سلام . القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٤ - كتاب الروضتين ٢ : ٧٥ أبو شامة .
- ١٥ - حلبي : فرقة فلسطين تقع على هضبة ، يقال أنها تضم قبر النبي شبيب .
- ١٦ - كتاب الروضتين ٢ : ١١٣ .
- ١٧ - انظر ما كتب الدكتور عمر موسى ياشا عن الشاعر في كتابه « الأدب في بلاد الشام » ، ص ٢٦٦ .
- ١٨ - صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتاباته ٩٢ - ٩٤ . د. أحمد أحمد بيدوي .
- ١٩ - التجون : جبل يمكنا .
- ٢٠ - التلجم الزاهري ٦ : ٣٦ ، وإيضاً كتاب الروضتين ٢ : ١١٣ .
- ٢١ - انظر : الأدب في بلاد الشام ٢٨٨ - ٢٩٦ ، الدكتور عمر موسى ياشا .
- ٢٢ - يننظر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٢ : ٨٢ شهاب الدين أبو شامة . مصر ١٢٨٨ هـ .
- ٢٣ - ابن سناء الملك ١١٢ - ١١٤ ، محمد ابراهيم نصر ، سلسلة اعلام العرب . مصر ١٩٧١ .
- ٢٤ - يننظر كتاب الروضتين ٢ : ٨٧ .
- ٢٥ - يستدلّ مما ذكر المؤذخون بعد مقارنة التقويمين الهجري والميلادي افتتاح القدس تم في خريف عام ١٨٧١م وفي حدود منتصف تشرين الأول ، وتكون بذلك عدد الأيام التي تصلت بين معركة حطين (١٦ دبيع الآخر) وفتح القدس (٢٧ وجوب) هو منه يوم .
- ٢٦ - الجزائر : مفرداتها جزء اي الشاة المذبحة .
- ٢٧ - صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتاباته ١٠٦ .
- ٢٨ - ابن سناء الملك ١١٦ ، محمد ابراهيم نصر ١٩٧١ .
- ٢٩ - كتاب الروضتين ٢ : ١٠٤ - ١٠٥ ، أبو شامة .
- ٣٠ - يننظر صلاح الدين بين شعراء عصره وكتاباته ١٠٧ .
- ٣١ - صدى الفزو الصليبي في شعر ابن القيساني ١١٦ .

من النجوم الغوارب

القاضي محمد أدب القدري

د. وفق نعسانى

ارتجل الى جوار ربه العالم العامل القاضي محمد اهذلي اليماني في
ربع الآخر الموافق ٢٧ آيار ١٩٧٢ عن عمر يناهز ٧٨ عاماً ، حاصل بالأعمال
الجليلة والجهاد المتواصل في سبيل الله .

اسمه وكنيته ولقبه ونسبه :

هو محمد أدب بن عزى بن حسن بن القادري بن عمر بن القاسم بن محمد بن الطاهر
ابن محمد الثاني ، وهو سليل علي الأهدل الكبير الذي يتصل نسبه بالحسين بن علي
رضي الله عنهما ، ومنه جاءت كنيته الأهذلي ويدعى أبا الأهذلي .

اما امه فهي خديجة بنت الحاج لطوف بن نجيب البصجي من حلب .

موطنه الأصلي ومسكنه الجديد :

موطنه الأصلي هو اليمن حيث هاجر أحد أجداده وهو محمد بن سليمان ، الذي يعود
بنسبه الى جعفر الصادق ، من المسراق الى المروعة بوادي سهام من أعمال الحديدة في
اليمن ، فولد له عمر ، ثم ولد لعمه علي الأهدل الذي تفرعت منه اغصان الأسرة الأهذلية .

وقد انتقل أحد فروع الأسرة وهو محمد السادس الى قرية الشقر القديم التابعة لقضاء
جسر الشغور سنة ١٨٤٧ م حيث استقر به المطاف هناك ، وعندما توفي عام ١٨٧٨ م قدم
ابن أخيه محمد عزى (والد القاضي المرحوم) في عام ١٨٨٠ م من اليمن الى الشقر يصفنه
الوريث الشرعي الوحيد لعمه ، لأنّه مات بدون عقب ، وقد خلف له زاوية ومكتبة ، فاقام في
الشقر ثم عين مقتيلاً لقضاء جسر الشغور حتى وفاته قبيل عام ١٩١٨ م حيث خلفه ابنه
(المترجم له) في عمله .

□ موجز عن تاريخ حياته العلمية والعملية :

ولد المرحوم عام ١٣١٢ هـ الموافق ١٨٩٤ م في قرية الشفر القديم ، وفيها ختم القرآن وجوهـه وتلـمـ الكتابـة ، ثم انتـقلـ إلى المـدرـسـةـ الرـشـيدـيـةـ في قـصـبةـ الـجـسـرـ ، فـتـلقـنـ جـوـهـرـ الدـيـنـ وـقـوـيـمـ الـأـخـلـاقـ فـيـهـاـ ، ثم اـنـصـرـفـ لـطـلـبـ الـعـلـمـ الـدـيـنـيـ حـسـبـ رـغـبـهـ والـدـهـ فـرـحـلـ إـلـىـ أـرـيـحاـ وـادـلـبـ وـالـلـاذـقـيـةـ وـحـلـبـ وـأـخـرـاـ إـلـىـ مـصـرـ حـيـثـ دـخـلـ جـامـعـةـ الـأـزـهـرـ وـحـظـيـ بـعـنـيـةـ الـمـرـحـومـ مـصـطـفـيـ صـادـقـ الـرـافـعـيـ ، وـبـعـدـ قـضـاءـ ٤ـ/ـ ٤ـ سـنـاتـ فيـ الـأـزـهـرـ الشـرـيفـ عـادـ لـيـعـينـ فيـ مـدـرـسـةـ ذـكـورـ الـجـسـرـ الـابـتدـائـيـةـ .

وـعـنـ اـلـاعـلـانـ التـغـيرـ الـعـامـ اـنـخـرـطـ فـيـ سـلـكـ الـجـنـديـةـ مـتـطـلـعاـ لـشـعـورـهـ بـجـوـبـ الـجـهـادـ ، فـانتـسـبـ إـلـىـ رـهـطـ الـبـرقـ (ـالـلـفـرـافـ)ـ ثـمـ تـحـولـ إـلـىـ قـلـمـ الـفـرـقـةـ ٢٢ـ ، وـعـنـدـ سـعـيـهـ عـلـمـ بـوـفـةـ وـالـدـهـ ، عـادـ إـلـىـ الـجـسـرـ لـبـؤـدـيـ اـمـتـحـانـ مـشـيـخـةـ الـتـكـيـةـ ثـمـ لـيـعـينـ بـعـدـهـ مـأـمـورـاـ لـلـزـرـاعـةـ ، ثـمـ كـاتـبـاـ ثـانـيـاـ لـلـأـعـشـارـ ، وـبـقـيـ فـيـ عـمـلـهـ هـذـاـ حـتـىـ نـهـاـيـةـ الـحـرـبـ الـعـلـمـيـ ، حـيـثـ اـنـتـخـبـ فـيـ عـامـ ١٩١٨ـ مـ مـفـتـيـاـ لـقـضـاءـ جـسـرـ الشـفـورـ مـكـانـ وـالـدـهـ مـضـافـاـ إـلـىـ ذـكـورـ الـقـاضـيـ وـرـيـاسـةـ الـبـداـيـةـ .

وـفـيـ آيـارـ ١٩٢٥ـ مـ اـنـفـدـتـ حـكـوـمـةـ الـاـنـتـدـابـ إـلـىـ حـلـبـ حـيـثـ أـجـبـرـ عـلـىـ الـاـقـامـةـ مـنـفـياـ فـيـهـ حـوـالـيـ ١٩ـ/ـ ١٩ـ شـهـراـ ثـمـ عـيـنـ فـيـ كـانـونـ الـأـوـلـ ١٩٢٦ـ مـ مـفـتـيـاـ لـجـرـابـلسـ ثـمـ أـضـيـفـ إـلـىـ الـأـفـاءـ وـظـيـفـةـ الـتـدـرـيـسـ لـقـضـاءـ جـرـابـلسـ ، وـفـيـ تـمـوزـ ١٩٢٨ـ مـ عـيـنـ قـاضـيـاـ شـرـعـيـاـ لـقـضـائـيـ اـعـزـازـ وـكـرـدـ ضـاغـ درـجـةـ رـايـمـ ثـمـ تـحـولـ إـلـىـ قـاضـيـاـ الـقـضـائـيـ جـرـابـلسـ وـمـنـبـجـ عـامـ ١٩٣١ـ مـ وـنـقـلـ فـيـ عـامـ ١٩٣٢ـ مـ قـاضـيـاـ بـقـضـائـيـ الـبـابـ وـمـنـبـجـ ، وـفـيـ عـامـ ١٩٣٣ـ مـ عـيـنـ حـاكـماـ لـمـلـحـ قـضـاءـ حـارـمـ ، فـقـاضـيـاـ شـرـعـيـاـ لـمـدـيـنـةـ حـلـبـ حـيـثـ تـرـقـيـ فـيـهـ لـلـصـنـفـ الثـانـيـ ، وـفـيـ عـامـ ١٩٣٨ـ تـسـلـمـ مـدـيـرـيـةـ اوـاقـافـ حـلـبـ ، وـفـيـ عـامـ ١٩٣٩ـ مـ نـقـلـ قـاضـيـاـ شـرـعـيـاـ لـعـصـنـ درـجـةـ ثـانـيـةـ ثـمـ رـقـيـهـ الـدـرـجـةـ الـأـوـلـيـ وـبـقـيـ فـيـ مـنـصـبـهـ هـنـاكـ حـتـىـ عـامـ ١٩٤٨ـ مـ حـيـثـ نـقـلـ إـلـىـ الـلـاذـقـيـةـ وـهـنـاكـ أـحـيلـ عـلـىـ التـقـاعـدـ عـامـ ١٩٤٩ـ مـ . وـقـدـ حـصـلـ اـيـضاـ عـلـىـ دـيـلـوـمـ كـلـيـةـ الـمـحـاـفـةـ فـيـ الـقـاـمـرـةـ .

وـقـدـ عـمـلـ كـاتـبـاـ لـلـعـدـلـ فـيـهـ بـعـدـ ذـلـكـ لـلـمـنـاـيـةـ بـتـرـيـبـةـ وـتـوجـيـهـ اـوـلـادـهـ إـلـىـ أـنـ فـارـقـ الـبـيـةـ وـهـوـ فـيـ دـمـشـقـ فـنـقـلـ إـلـىـ الشـفـرـ حـيـثـ دـفـنـ هـنـاكـ ، وـكـانـتـ حـصـيـلـةـ تـرـيـبـةـ وـتـوجـيـهـ اـوـلـادـهـ بـالـأـضـافـةـ إـلـىـ مـئـاتـ الـشـيـبـاـنـ الـذـيـنـ تـوـلـاـمـ بـالـتـوـجـيـهـ وـالـرـاعـيـةـ فـيـ كـلـ مـنـ الـجـسـرـ وـحـلـبـ وـدـمـشـقـ وـحـصـنـ وـالـلـاذـقـيـةـ ، وـلـمـ يـكـنـ نـصـيـبـهـمـ مـنـ عـنـيـاتـهـ باـقـلـ مـنـ نـصـيـبـ اـوـلـادـهـ .

□ اـضـواءـ عـلـىـ شـخـصـيـتـهـ :

منـ هـذـاـ عـرـضـ السـرـيعـ لـرـاحـلـ حـيـاتـهـ نـصـلـ إـلـىـ دـلـالـتـيـنـ هـامـتـيـنـ :

- ١ـ نـشـاطـهـ الـدـائـبـ ، وـسـعـيـهـ التـزاـصـلـ ، وـحـبـهـ لـلـعـملـ ، وـتـفـانـيـهـ فـيـهـ .
- ٢ـ مـنـاـوـاتـهـ لـلـطـالـلـيـنـ وـمـعـادـاهـ لـلـانـتـهـاـيـيـنـ ، وـوـقـوفـهـ فـيـ وـجـهـ حـرـكـاتـ التـتـرـيـكـ ، وـمـنـاضـلـتـهـ لـلـفـرـنسـيـيـنـ ، مـاـ جـرـ عـلـيـهـ نـقـمةـ الـعـكـوـمـةـ الـفـرـنـسـيـةـ وـعـلـانـيـاـ أـيـضاـ فـيـلـواـ عـلـىـ نـقـلـهـ مـنـ

مكان آخر ، وتمرض للاهانة والنفي والسجن وللحكم بالاعدام ايضا ، دون أن يفل ذلك من عزمه أو يوهن من قوله أو يغير مواقفه .
والخلاصة أن فضيلة الأستاذ محمد الأهدلي قاضي الشرع العظيف أديب كبير من أدباء العرب وعالم من علماء الإسلام ، فهو عصري النزعة وحديث الطلعة .

يعـ: من الإسلام تعاليمه القوية وبمبادئه السليمة ويابـي الا الاعتراف بفضل الدين على المجتمع . واتـما هو الدين الذي يقوم على الأخلاق والفضـلة والصدق والمـلـدـ والمـساـواـة وينظر إلى الدين بـمنظـار التـجـيدـ والـارتـقاءـ والتـطـلـورـ وهو في مـقـدـمةـ من يـشـعـرونـ بشـعـورـ الـأـمـةـ فـيـعـزـنـونـ لـحـزـنـهاـ وـيـفـرـحـونـ لـفـرـحـهاـ ، فـاـذـاـمـاـ نـفـثـ كـرـبـتـهـ بـمـقـالـ فـاـنـمـاـ يـكـوـنـ قـدـ رـدـ صـدـىـ ماـ تـعـيـشـ بـهـ الصـدـورـ وـتـنـطـوـيـ عـلـيـ النـفـوسـ .

وقد نـوـءـ بـذـلـكـ شـاعـرـهـ قـائـلاـ مـنـ قـصـيـدـةـ :

ولـاـ اـبـلـاكـ الفـرـنـسـيـسـ قـلـتـ
هـلـمـواـ بـنـيـ الـجـسـرـ فـالـمـوـتـ طـابـاـ
فـقـاـ خـذـلـتـكـ الـجـمـوعـ وـلـاـ أـسـلـمـتـكـ
الـضـلـوـعـ كـيـ تـتـلـقـيـ الـعـرـابـاـ
غـدـاـ خـطـيـفـتـ مـنـ الـمـسـجـدـ الطـهـرـ
خـطـفـاـ وـسـاقـوـكـ فـرـداـ مـهـابـاـ
لـكـ يـقـتـلـوـكـ عـلـىـ ضـفـةـ النـهـرـ
وـالـنـهـرـ يـغـلـيـ حـصـاـ وـجـبـاـ
كـمـاـ خـطـفـوـكـ خـطـفـنـاـ الرـئـيـسـ
وـقـلـنـاـ : دـمـ بـلـدـ انـ اـرـدـتـ حـسـابـاـ

ويؤيد ما ذهـبـناـ إـلـيـ مـوـاـقـفـهـ الـحـازـمـةـ مـنـ الـأـمـرـ الـجـسـيـمـةـ الـتـيـ تـعـرـضـ لـهـ ،ـ تـذـكـرـ مـنـهـ :

□ مناضلـةـ الـاسـتـعـمارـ :

عـنـدـمـاـ عـنـنـ فيـ مـنـصـبـ الـأـفـتـاءـ فيـ جـسـرـ الشـفـورـ قـامـ بـتـشـكـيلـ فـرـقةـ مـسـلـحةـ تـضـمـ /ـ ٨ـ /ـ آـلـافـ رـجـلـ لـمـنـاهـفـةـ سـيـاسـةـ التـقـرـيـرـ ،ـ التـيـ قـادـتـهـ جـمـاعـةـ (ـ الدـوـنـيـةـ)ـ :ـ يـهـودـ سـالـوـنيـكـ وـعـنـدـمـاـ دـخـلـتـ فـرـنـسـةـ إـلـيـ سـوـرـيـاـ قـادـ الشـوـارـالـسـوـرـيـنـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـجـسـرـ ،ـ وـتـعـاـونـ مـعـ اـبـراهـيمـ هـنـانـوـ وـالـشـيـخـ صـالـحـ الـمـلـيـ وـكـانـ عـلـىـ رـأسـ ثـوـارـ جـبـلـ الزـاوـيـةـ فـيـ كـفـاحـ الـمـسـتـعـمـيـنـ الفـرـنـسـيـنـ .

كـلـ ذـلـكـ مـاـ سـبـبـ نـقـمـةـ الـحـكـومـةـ الـفـرـنـسـيـةـ وـعـلـمـاـهـ عـلـيـهـ .ـ قـاعـتـقـلـ عـامـ ١٩٢٥ـ مـ باـخـطـالـهـ مـنـ جـامـعـ الـجـسـرـ وـنـقلـهـ إـلـىـ السـجـنـ ،ـ ثـمـ حـكـمـ عـلـيـهـ بـالـأـعـدـامـ ،ـ وـكـادـ الـحـكـمـ يـنـقـذـ لـوـلـاـ ثـورـةـ أـهـالـيـ الـجـسـرـ وـاعـتـقـالـهـ لـلـمـسـتـشـارـ الـفـرـنـسـيـ حـيـثـ اـفـتـدـواـ بـهـ زـعـيمـ الـأـهـدـلـيـ ،ـ وـهـذـهـ الـحـادـثـةـ كـافـيـةـ لـدـلـالـةـ عـلـىـ مـدـىـ حـبـ الشـعـبـ لـهـ وـلـعـقـلـ قـلـوبـهـ بـهـ ،ـ وـبـالـمـقـابـلـ تـدـلـ عـلـىـ تـفـانـيـ الشـيـخـ الـمـرـحـومـ وـأـخـلـاصـهـ وـتـضـبـحـتـهـ فـيـ سـبـيلـ مـصلـحةـ أـمـتـهـ .

وـبـالـإـضـافـةـ إـلـيـ نـفـيـهـ إـلـيـ حـلـبـ .ـ كـمـاـ ذـكـرـنـاـ سـابـقـاـ .ـ فـانـهـ قـدـ حـجزـ فـيـ دـمـشـقـ أـيـامـ الـأـنـتـدـابـ الـفـرـنـسـيـ مـدـةـ ٧ـ /ـ ٧ـ /ـ أـيـامـ حـيـثـ اـسـتـجـوـبـ كـالـعـرـمـيـنـ .

ولكن كل هذه المحاولات لم تفل من صلابة الرجل المؤمن ، ولم تعرف شخصيته انفصاماً بين الفكر والسلوك ، فاستمر في كل النشاطات السلبية والايجابية ضد فرنسة المستعمرة .

□ اصلاحاته الدينية والاجتماعية :

لقد كان رحمة الله حرياً على التخلف والتسلط ، ولم تلن عريكته أبداً مما أدى إلى اتهامه بالتروج والتروق من الدين .

وعندما عين مديرأً ل الوقاية حلب نهض بالمشاريع الآتية :

١ - قام باصلاح ديني واسع سار فيه حيث شابقة العقيدة وحرارة الایمان مما عرضه لمحاولة الاختيال من جانب أصدقاء الدين والانسانية الذين يرون في الاصلاح دمارهم .

٢ - قام باصلاحات ادارية جمة كانتقاء المؤذن الصالح والامام الورع والخطيب البلغ ، بالإضافة الى سهره على أموال الأوقاف وكف الأيدي الأثيمة عن سرقها ، وأشهر اصلاحاته في هذا المجال القاؤه راتبتكته في الشفر . قبل أن يلغى راتب آية تكية أخرى ، وازداد راتبه المعن في المرسوم الجمهوري من /٤٠/ ليرة دينارية الى /٣٠/ ليرة دينارية رغبة في التوفير .

٣ - حاول انشاء جامعة دينية تضاهي الجامع الأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى رغم ضعف امكانيات اوقاف حلب عهده .

٤ - قام بنشاط صحفي واسع خاصة في حمص واللاذقية ، فدبّجت يراعته المقالات المختلفة من سياسية واجتماعية وأدبية ودينية مما كان له أكبر الأثر في نفوس الجماهير ، وما يزال الجمهوري يريد هذه المقالات العبرية التي تتصل على حرب التخلف والاستعمار الصهيونية وتنادي بالاصلاح الديني .

هذا بالإضافة الى نشاطه في عمله حيث تقلب بين التدريس والافتاء والقضاء فترة طويلة ، فقدم للإسلام والمسلمين خدمات جليلة ، ناهيك عن الشباب الذين أحاطهم برعايته في مختلف المناطق .

□ آراء علماء عصره وفضلهاته فيه :

لقد كان رحمة الله يحق شخصية اسلامية فذة ، تذكرنا بالسلف الصالح علماً وعملاً ، تقوى وورعاً ، حزماً وعزماً ، وقد شهد له بهذه الخصال وبغيرها من الحالات البليدة العديد من العلماء ورجالات عصره ، وخاصة في معرض حديثهم عن أحد مؤلفاته (القول الأعدل في تراجمبني الأعدل) وهماكم بعض هذه المقالات في تقييظ المؤلف رحمة الله :

من حمص تحدث المحامي نديم المصلي قائلاً :

عرفتك قاضياً فاضلاً ، وعالماً عالماً ، ومصلحاً .

لا تأخذ في الحق لومة لائم . أقول هذالا زلفي اليك ولا حاجة لديك . ولكن الاعتراف بالغفل وأهله هو الذي أملني على قلمي ما يمليج في صدري من عاصفة التقدير ، وأتمنى أن يذكر في العرب عامة وطبقية المطامخ خاصة مثلك في الثلق .

وتحدد الأستاذ روحي الن يصل منها :

استطاع أن يقعن بقلم الأديب البارع وثقافة العالم الضليع آراءً سمحـة ، فيها من الروح المصرية في فهم الدين استقاها فضيلة الأهدلـي من روح الأزهر الشريف الذي درس معه ومحاسبـة الرافعي الذي اتصل به ورعاـه .

كما أشـاد الأستاذ أديب الساعاتـي بصراحتـه :

أرجو أن يطالـنا بكلـ جـديـدـ فيهـ منـ صـراـحةـ الأـهـدـلـيـ وجـراـتهـ ماـ يـصـلـحـ المـوجـ منـ أـخـلـاقـناـ وـيـقـوـمـ النـاسـدـ منـ عـادـاتـناـ وـعـقـائـدـنـاـ .

وتـكلـمـ الأـسـتـاذـ نـديـمـ الـوقـائـيـ عنـ مـزاـيـاهـ :

تلكـ الزـهرـةـ الفـواـحةـ ، فـضـيـلـةـ السـيـدـمـحـمـدـ أـديـبـ الـأـهـدـلـيـ ..ـ المـفـتـيـ ،ـ رـئـيسـ الـمـكـمـةـ ،ـ حـاـكـمـ الـصـلـحـ ،ـ الـقـاضـيـ ،ـ مـديـرـ الـأـوقـافـ الـعـربـيـ ،ـ الـوـطـنـيـ ،ـ الـتـفـيـ ،ـ الـبـعـدـ ،ـ السـعـينـ ،ـ الـعـامـلـ ،ـ الـأـهـلـيـ ،ـ أـضـافـ كـلـ هـذـهـ الـأـلـقـابـ إـلـيـ اـسـهـ وـحـلـهـ بـكـلـ أـمـانـةـ وـكـفـاـيـةـ وـاخـلـاصـ .

الفـتاـوىـ وـسـجـلـاتـ الـمـاـعـكـمـ وـبـطـلـونـ دـفـاتـرـ الـأـوقـافـ وـمـوـاطـنـ الـشـرـفـ وـمـرـاقـيـ النـبـلـ كـلـهـاـ تـعـرـفـ أـمـانـتـهـ وـكـفـاـيـةـ وـاخـلـاصـهـ .

وـمـنـ أـبـنـاءـ جـسـرـ الشـفـورـ وـافـيـ الـدـكـتـورـ سـلـيـمانـ جـرجـسـ شـكـورـ بـخـلـجـةـ الضـمـيرـ هـذـهـ :

خلـجـةـ ضـمـيرـ ..ـ عـلـىـ مـنـ رـبـيـ فـيـنـاـ تـبـلـ الـخـلـقـ ،ـ وـاسـتـقـامـةـ السـيـرـةـ ،ـ وـتـرـكـ مـدـرـسـةـ نـعـنـ منـ روـادـهـ الـأـوـأـلـىـ هـذـهـ الـمـدـرـسـةـ الـتـيـ كـانـتـ وـلـاـ تـزـالـ وـسـتـبـقـىـ أـبـدـاـ تـشـيرـ إـلـىـ مـؤـسـسـهـاـ (ـأـبـيـ الـأـهـدـلـيـ)ـ الـذـيـ قـالـ الـحـقـ وـدـافـعـ عـنـهـ يـوـمـ كـانـ قـولـ الـحـقـ ظـهـيرـهـ الـمـدـدـيدـ وـالـنـارـ .ـ هـذـهـ الـمـدـرـسـةـ الـتـيـ مـنـ أـوـلـ أـخـلـاقـيـتـهـاـ قـولـ الـحـقـ فـيـ حـضـرـةـ حـاـكـمـ ظـالـمـ ،ـ مـنـ أـخـلـاقـيـتـهـاـ الـوفـاءـ .ـ لـلـصـدـيقـ ،ـ مـنـ أـخـلـاقـيـتـهـاـ التـفـكـيرـ الـعـرـ .ـ

إـنـ كـنـتـ سـاسـطـرـ هـنـاـ كـلـ مـاـ يـدـورـ فـيـ خـلـدـيـ فـيـلـزـمـنـيـ الـأـلـفـ مـنـ الصـفـحـاتـ ،ـ وـلـكـ يـكـفـيـ أـنـ أـقـولـ أـنـ رـجـلـ رـصـيـدـهـ الصـخـمـ هـوـ فـيـ ذـمـةـ الـأـجـيـالـ رـجـلـ يـقـرـعـ التـارـيـخـ بـكـلـتـاـ يـدـيـهـ .ـ

سيـظـلـ فـيـ ذـكـرـايـ صـورـةـ مـتـجـدـدـةـ مـنـ أـبـرـحـيمـ وـصـدـيقـ وـفـيـ ،ـ وـمـوـجـهـ مـخـلـصـ شـرـيفـ مـاـ حـيـيـتـ أـنـاـ وـاجـيـالـيـ .ـ

وـمـنـ حـصـنـ أـيـضاـ يـقـولـ الأـسـتـاذـ وـصـفـيـ الـجـنـديـ زـمـيلـ الـمـرـحـومـ فـيـ الـجـنـديـةـ :

الـجـنـديـةـ تـلـكـ هـيـ الـتـيـ عـرـفـتـنـيـ الـمـؤـلـفـ حـفـظـهـ اللهـ .ـ وـعـرـفـتـنـيـ مـاـ تـضـمـنـ تـلـكـ الـخـصـصـيـةـ الـبـيـلـةـ فـيـ أـطـوـاءـ الـصـدـرـ مـنـ أـخـلـاقـ الـفـاضـلـةـ ،ـ وـالـثـقـةـ بـالـنـفـسـ ،ـ وـالـصـبـرـ عـلـىـ الـأـذـىـ وـاحـتمـالـ الـمـكـارـ .ـ

ويتابع وصفي الجندي حديثه قائلاً :

قال لي يوماً أركان حرب فرقتنا : لقد أسدت علينا يدأ لا تنسى باختيارك السيد محمد الأهلي للقلم . . . لم يمض على وجوده سوى بضعة أيام حتى أصبح مضرب المثل بين عموم أفراد الفرقة على اختلاف مراكتهم فيها : عفة وامانة واستقامة وأخلاقاً وديننا . . . انساني برحابة صدره وكريم سجاياه وعظيم أخلاقه .

كل هذه الخصائص من عنوان الشباب ، وحزن الرجال ، ورزانة الشيوخ ، وتجمع ما تكون الشخصية الفريدة ، شخصية المرحوم القاضي الأهلي عليه رضوان الله ، وهذا ما دفع الشاعر رفيق الفاخوري ليقول :

طوق الأهلي حصن يميناه
واحياناً بفضله الأملا
أي دار أرادها ما تهافت ؟
أي صقع قد ذاره ما اختالا ؟
متعلق ساحر ، فإن حزب الأمر
تخلّى عن طبعه واستحالا
وقضاء يدني الصيف ويضئي
من تعافي عن الضراط وملا
واجتهاد يستلهم العق صرفاً
ليس يلقى إلى الإباضيل بسلا

حقاً كان الأهلي شخصية فريدة في عصره ، من سمع به أحبه ، ومن رأه ازداد حباً له . . . في سلوكه يتجلّى إيمانه ، وفي زهده يتجلّى ورعه وتقواه .

وقبل نهاية المطاف يجدونا أن نلم بشيء من مؤلفاته التي بقيت ذكرى جميلة تعي في نفوسنا تلك الروح الطاهرة التي كانت مشعلة من مشاعل الاسلام أدت واجبها الى آخر مدد من وقوتها .

□ مؤلفاته :

- ١ - القول الأعدل في ترجمة بنى الأهلي : في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط .
- ٢ - رسائل صفيرية .
- ٣ - مقالات عديدة ومتعددة .

وأخيراً لا بد لنا من الوقوف موقف الاعجب والاكثار من هذه الشخصية الاسلامية الفذة التي جمعت الى جانب رفعة النسب وشرفه ، دماثة الخلق ، وقوة الإيمان ، وحب الجهاد في سبيل الله . . . والهدف من عرض بعض ملامح هذه الشخصية هو ان تكون لها قدوة صالحة ، ونبراً ساسياً في طريق التبرير وذكرى للمؤمنين .

رحمك الله يا آبا الأهلي . . . لقد كنت بشهادة معاصرتك قاضياً نزيهاً ، وعالماً عاملاً ومسلماً مجاهداً حتى المقام الأخير ، حتى انك لترعرع الملا على وضع المسلمين المزري ، وعيارتكم الأخيرة التي لفظتها مع أنفاسكم الأخيرة تدل بوضوح على رغباتكم الجامحة في الاصلاح رغم قوة الجاهلية وعنادها ، فان كنت قد رحلت فقد بقيت عبارتك في مسعى الدهر تدل عليك وتذكرنا بك وتدعينا للاقتدام بك ، هذه المباراة هي قولك (انتي شهيد الالم) فرحمك الله رحمة واسعة وأسكنك فسيح جناته وجمينا بك في ظلال رضوانه .

من غَابَ عَنْهُ الْمَطْرُبُ

للشاعري

استدراكات و ملاحظات

عادل الفريجات

الشعري أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل علم كبير من اعلام الأدب العباسي ، عاش ما بين سنتي ٣٥٠ و ٤٤٩ هـ . وقد نعنه (ابن خلكان) بانه : « راعي تعلمات العلم ، وجامع اشتات النثر والنظم ، وراس المؤلفين في زمانه وعام المصنفين بحكم اقراره » - (وفيات الاعيان ٢٨٣:٢)، وقد ترك لنا مجموعة من المؤلفات تربو على مئة كتاب ، لعل أهمها: يتنية الدهر ، التي ترجم فيها لشعراء عصره وأدبائه ، وكتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، وفقه اللغة وسر العربية ، والأعجاز والإيجاز ، وأحسن ما سمعت ، وخاص الخاص ، والتمثيل والمعاصرة ٠٠٠ الخ .

ومن كتبه التي طبعت حديثاً كتاب « لطائف اللطف »، وحقّقه الدكتور عمر الأسعد ، وطبعه في بيروت سنة ١٩٨٠ . وكتاب « التوفيق للتلقيف »، وحقّقه السيد ابراهيم صالح ، وطبعه مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٣ ، وكتاب « من غَابَ عَنْهُ الْمَطْرُبُ »، وطبع في دار طلasm بدمشق سنة ١٩٨٧ ، بتحقيق الاستاذ عبد الدين الملوي .

والاستاذ الملوي قدّم على طبع هذا الكتاب مقدمةً برغبة في تصحيح بعض الأغلاط التي وجدتها في طبعة سابقة للكتاب ، قام بها محمد بن مسلم الليبابي سنة ١٣٠٩ هـ بيروت .

والمعلوم عن السيد الملوي أنه سبق له اخراج غير كتاب من كتب التراث ، منها : كتاب المنصفات ، واللاميتان ، وديوان عروبة بن الورد ، والعماسة الشجرية ، والأزهية في علم الحروف ، وأشعار اللصوص في قسمين ٠٠٠ الخ .

ووقع بين يدي كتاب الشاعري - محور حديثنا هنا - في أثناء بحثي عن مؤلفات الشاعري المطبوعة والمخطوطة ، لأنني حصلت على نسخة منسوبة اليه جلبتها من (باريس) ،

وأقوم الآن بنسخها تمهيداً ل لتحقيق نسبتها إليه ، ومن ثم ، اخراجها للناس - إن شاء الله .

وقرأت مقدمة الاستاذ الملوحي لـ « من غاب عنه المطلب » فأعجبت بتواضعه العلمي الكبير وأكبرته ، والحق أن التواضع العلمي سمة من سمات هذا الباحث التراشى تجده في كثير من مقدمات كتبه التي حققها وطبعها . وقد استوقفني في مقدمة كتابه الأخير هنا آراؤن اثنان :

الأول : اشارة المحقق الى أنه لم يستطع أن يحصل على مخطوطات « من غاب عنه المطلب » رغم اشارته الى أماكن وجودها في العالم ؛ اذ عد منها تسع مخطوطات موجودة في برلين ، وبارييس ، والمتحف البريطاني ، والاسكوريال ، وببريل ، والقاهرة ، ولا له لي ، (استامبول) بخط المؤلف ، والموصل ، وطهران . ولكن فاته ذكر مخطوطة هنا بدمشق بين مخطوطات الأدب في الظاهرية - كما سيأتي الحديث .

الثاني : قول المحقق في البند الثامن من خلطة في تحقيق الكتاب : « ٨ - تركت بعض ما لم استطع من تخريجات المقطوعات ووضعت لها في الهاش نقاطاً (٠٠٠) لعلى اهتمدي أو اهتمي إليها في طبعة لاحقة » -(المقدمة ص ١٤) .

ولذلك فاني أشير الآن الى أن ثمة مخطوطة لكتاب « من غاب عنه المطلب » أخبر عنها مؤلفنا فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم الأدب) رياض عبد الحميد مراد ، وياسين سوسان ، وقالا : أنها تقع في ٣٦ ورقة، ورقها ٧٨٦١ ، وقد نسخها في فربة (طنطا) بمقام السيد أحمد البدوي ، حسين القرافي سنة ١١٦٢ هـ (الفهرس المذكور ٢٩٤:٢ - ٢٩٥) . وقد رجعت إلى هذه المخطوطة في مكتبة الأسد الوطنية ، وقابلت بينها وبين المطبوع ، فوجدت أن المطبوع يشبهها تماماً ، حتى لو أن قائلًا قال : ان محمد بن سليم البابيدي الذي طبع الكتاب أولاً سنة ١٣٠٩ هـ قد أخرج عنها لم يبعد .. والاختلافات بين المطبوع وهذه المخطوطة طفيفة جداً ، تكاد لا تندوان تكون تبديلًا لكلمة واحدة في صفحة من بين عدة صفحات ، وهو تبديل لا يخل بالمعنى في أكثر الأحيان . ولكنه قد يكون تحريرها من النанс ، أو من المخطوطة التي نقلت عنها مخطوطة الظاهرية . وعلى سبيل المثال ، فقد جاء هذا البيت في المخطوطة على هذه الصورة(ص ١٣) :

وهبة ارعوي بعد الملام اليم يكن تودده طيبا فصار تكلا

وهو في المطبوع (ص ١٥٧) :

وهبة ارعوي بعد الملام اليم يكن تودده طيبا فصار تكلا

ومن الواضح أن رواية المطبوع أصوب وأصح من رواية المخطوط ، لأن « الطبع » ، لا « الطيب » هو الذي يناظر « التكلا » ، ويقابلها .

وفي المخطوطة (ص ٦٣) جاءت الكلمة الأولى من بيت ابن الرومي الأول :

١ - قصدك الشيب فاقض ما أنت قاض عاجلاً من هو العيون المراض
وهي في المطبوع (ص ١٦١) : « جاءك الشيب ... » وهي الرواية الأصح .

على أن المودة للمخطوطة صوبت بعض الروايات في المطبوع من جهة أخرى وأوقتنا على بعض ما أصاب المطبوع من تصحيف أو تحرير ، ففي المطبوع (ص ١٥٢) جاء بيت أبي تمام الثاني من أبياته الثلاثة هناك على هذا النحو :

عصابة جاوزت آدابهم أذني فهم وان فرقوا في الأرض جirاني
والرواية في المخطوط (ص ٦٠) :

عصابة جاوزت آدابهم أذبي فهم وان فرقوا في الأرض جirاني

بالزاي في « جاوزت » والدال والباء في « أدبي » بدلًا من الراء في الأولى ، والدال والتون في الثانية . ورواية المخطوطة مصدر البيت هي الصواب دون ريب ، اذ لا معنى لأن « تجاوز الآداب الأذن » كما في المطبوع !

....

....

....

يجد أن اهتمامنا بهذا الكتاب لم يقت عند المودة إلى مخطوطة له في مكتبة الأسد الوطنية ، ومقابلته بها مقابلة غير كاملة ، بل تجاوز ذلك إلى المودة التي بعض كتب الشاعري ، وبعض دواوين الشعراء التي لم يرجع إليها المحقق ، أو رجع إلى أحدهى طبعاتها القديمة ، فتوفّر لدينا مجموعة من الملاحظات والإضافات ، منها ما يتصل بتصويب النسخ ، ومنها ما يتصل بتغريباته واغنام حواشيه بمعلومات إضافية . وهذا تعم نسير بدءاً من الآن مع كتاب « من غاب عنه المطلب » وفق تسلسل أرقام مفحاته :

١ - (ص ٢٧/ حا ٢) يضاف إلى الماشية هنا: بيتاً كثاجم في وصف غلام يكتب وي gyro:

ورأيته في الطرس يكتب مرة غلطاً يواصل محوه يرضا به

فودت أني في يديه صحيفة وودته لا يهتلي لصوابه

في ديوانه المطبوع بيروت سنة ١٣١٢هـ - ص ١٣ بالرواية ذاتها .

٢ - (ص ٣٠/ حا ١) يضاف هنا حول بيتي أبي روح ظفر بن عبد الله الموجودين في البيعة(٤: ٣٤٨) أن الرواية تختلف ، فالبيت الثاني في البيعة :

وإذا امتطى قلمًا أنامله سحر العيون به وما سحرنا

وهو في « من غاب عنه المطلب » :

سحر العقول به وما سحرنا

وإذا امتطى قلمًا أنامله

ولست أرى وجهاً أضيّطه « سحراً » بفتح السين والهاء في مطبوع « من غاب » .
والمصواب ضم السين وكسر العام .

٣ - (من ٢٠/ حا ٢) أبيات الشعالي الثلاثة ليست في اليتيمة (٣٥٦: ٣) بل في
(٤: ٣٥٦) . ورواية الثالث منها :

مثل كلام الأمير سيدنا نثراً ونظمًا يسير كال مثل
بدلاً من : « ... نظماً ونثراً يسير كال مثل » في « من غاب » .

٤ - (ص ٣٠ / حا ٣) تملأ هذه الحاشية الفارغة بما يلي : بيتاً الشعالي في اليتيمة
(٤: ٣٥٦) والرواية للأول :

أني أرى القاظك الفرءاً عطلت الياقوب والدرءاً
بدلاً من : « ... عطلت الكافور والدرءاً » . ورواية البيت الثاني :
لك الكلام العريماً من غداً معروفة يستعبد العزراً
بدلاً من : « ... أعماله يستعبد العزراً » .

٥ - (ص ٤١ / حا ٥) يضاف هنا : أن البيتين الرائين للشعالي في خامس الخاص
، والرواية : ٢٢٢

١ - أظنَّ الربيع العام قد جاء تاجراً ففي الشمس بزءاً وفي الريح عطاراً
بدلاً من : « أظن ربيع العام ... » في كتاب « من غاب » .
والبيت الثاني :

٢ - وما العيش الا أن تواجه وجهه وتقضي من الوشى والمسك او طاراً
بدلاً من : « ... وتقضي بين الوشى والمسك او طاراً » في « من غاب » .

ولعلَّ صواب الروايتين المعرفتين : « وتقضي من الوشى والمسك او طاراً » .
٦ - (ص ٤١ / حا ٦) تُسْنِلَا الحاشية الفارغة هنا بما يلي : أبيات مؤلف الكتاب في
احسن ما سمعت ٦٦ ، خاص الخاص ٢٣٤ . والرواية في الأخير :

١ - ولما نزلنا البنشقان التي غلت وراحت بجنتها الربيع تشبهه
بدلاً من : « ولما نزلنا البنشقان التي ... » . وفي رواية خاص الخاص تعريف .

٢ - وقد برزت أشجارها في ملابس ربيعية تعوي مدى العُسْن كلَّه
بدلاً من : « وقد برزت شجراتها ... مدى الأنس كلَّه » في « من غاب » .

- ٣ - وعارضنا ماء يروق مصندل وواجهنا ورد يشوق موجه
 بدلًا من : « ... ووجهنا ورد » في « من غاب »، ورواية خاص الماء هنا هي الأصوب.
- ٤ - وقهقهه رعد في السماء مفرد وفي الأرض ابريق المدام يفهمه
 بدلًا من : « وقهقهه رعد في السماء مجلجل ... » في « من غاب » .
- ٥ - وغنى مفني العندليب كانما يجاوبه في حلقه مزهر له
 بدلًا من : « ... يجاوبه في حلقه مزهر له » . ولمل روایة خاص الماء هنا هي الصواب.
- ٦ - (ص ٤٥ / ح ٦) يضاف هنا : ان بيته أبي الفرج الواوام في لطائف اللطف ٤
 والرواية :

١ - سقى الله ليلا اذا زاد وصلها فافنيته حتى الصباح عناقا
 بدلًا من : « اذا زار طيفه » .

٢ - بطبيب نسيم منه يستوجب الكري فلو رقد المغمور فيه افaca
 بدلًا من : « يستجلب الكري ... » . والبيتان أيضًا في خاص الماء مع ثالث لهما .

٣ - (ص ٥٠ / ح ٢) بيتاً أبي المعلم السروي في الـبيتـة (٤ : ٥١-٥٠) صحيح .
 ولكن الأول منها ملتفق من بيتين هما :

اما ترى قضب الاشجار قد لبست
 اسوارها تتنى بين جلاس
 منظومة كسموط اللدر لابسة
 حسنا يبيع دم العنقود للعاسي
 والرواية في « من غاب » :

اما ترى قضب الريحان لابسة حسنا يبيع دم العنقود للعاسي
 والبيتان أيضًا في المتوفيق للتلفيق ١٩٩-٢٠٠ مع ثالث لهما . وروايتها كما في
 الـبيـتـة . وفي خاص الماء ١٦٠ ، وثمار القلوب ٤٤٧ ، وروايتها كما في « من غاب » .

- ٤ - (ص ٥٤-٥٥ / ح ٢) أبيات كشاجم السبعة الضادية التي اشير في العاشية الى أنها
 في ثمار القلوب ٤٩ ، لم أجدها في الشزار (طبعة محمد أبو الفضل ابراهيم) . ولكنني
 وجدتها في ديوان كشاجم (طبعة بيروت ١٢١٣ هـ ص ١٠٨-١٠٩) والرواية :

١ - غيث انسانا مؤذن بخوض
 بدلًا من : « غيم انانا ... » . في « من غاب » .

٢ - كالجيش يتلو بعضه ببعض
 بدلًا من « بعضه ببعض » . في « من غاب » .

٣ - يضعك من برق حفي الومض

بدلاً من : « خفي النبض » . ورواية الديوان هي الأعلى والأجد .

٤ - دنا فخلناه فوق الأرض

بدلاً من : « دوين الأرض » .

٥ - إلها الى الف بسي يقضى

بدلاً من « بسرٍ يقضى » . ورواية « من غاب » هي الصواب . وفي الديوان تصحيف وتعريف .

٦ - ثم هم كاللؤلؤ المرضف

بدلاً من : « ثم مضى » . ورواية الديوان هي الصواب . وفي رواية « من غاب » تعريف على الأرجح .

٧ - (من ٥٦/حا٣) قال المحقق : انه لم يوجد بيتي ابن المتن الحاذين في طبعة من طبعات ديوانه لم يشر اليها . وقد وجدهما في شعر ابن المتن (صنعة أبي يكر الصولي) - تحقيق يونس أحمد السامرائي - بغداد ١٩٧٨ ص ٧٩ .

٨ - (من ٦١/حا١) بينما ابن المتن السينيان لم أجدهما في ثمار القلوب (طبعة محمد أبو النضل (ابراهيم) . وهو أيضاً ليسا في ديوانه (طـ بغداد) .

٩ - (ص ٦٥/حا١) بينما الشالبي الميميان في شعره الذي صنعته د. عبدالفتاح العلو في مجلة المورد العراقية (مجلد ٦ عدد ١ من ١٨٦) . وقد نقلهما العلو عن كتاب الشالبي أحسن ما سمعت ٢٤ ، ونهاية الأربع ١٢٢:١ . والرواية في البيت الثاني :

١٠ - قلت اذ صاب حرّه حرّه وجهي ربّنا اصرف عنا عذاب جهنّم

بدلاً من : « قلت اذ صاب حرّه حرّه وجهي » في « من غاب » .

١١ - وقد ضبط المحقق العام في « حرّه وجهي » بالفتح ، والصواب ضمّتها : لأن حرّ الشيء (بضم العام) وسطه وخياره . انظر اللسان (حرر) .

١٢ - (ص ٦٨/حا١) الأبيات الأربع اللامية لكشاجم في ديوانه (طبعة بيروت ١٣١٣ م) ص ١٨٥ ، ورواية الديوان :

١٣ - في جنة ذات لقاطها قطوفها الدانيات تذليلها

بدلاً من : « ذلت لقاطها » . والرواية الأخيرة هي الصواب لما شاكلتها لما في عجز البيت .

١٤ - كان اترجتها تميل به اغصانه حاملاً ومحمولاً

بدلاً من : « كان اترجتها ... اغصانها » .

٤ - سلاسل من زبر جد حملت من ذهب أصفر قناديلأ

بدلاً من : « ٠٠ من ذهب أحمر قناديلأ » .

١٤ - (ص ١٨ / حا ٢) في هذه الصفحة قال الشاعري : « وللامام في وصف الأترج ، ثم ساق هذين البيتين :

جسم لجين قميصه ذهب مركب في بسيط تركيب
فيه لمن شمه وأبصره لون محب وريح معسوب

فعلم الحق على اسم « الامام » بقوله : « اظنه ابن الرومي ، كما لقبه الشاعري مرات ، ولم اجد البيتين في ديوانه » . قلت: البيتان في التوفيق للتلتفيق ٢٤ . وقد خرجهما المحقق السيد ابراهيم صالح ، فقال: « مما في فوات الوفيات ٤٠٤:٣ إلى محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسين ، وفي نثر النظم للشاعري ص ١٣٨ بلا نسبة » .

١٥ - (ص ٦٩ / حا ٥) نملا العاشية الفارغة هنا كما يلي: الآيات الثلاثة للشاعري في شعره الذي صنمه الدكتور العلو ، في مجلة المورد (مج ٦ ع ١ رقم ٣٧) . ولم يذكر صانع الشعر مصدراً آخر للأبيات .

١٦ - (ص ٢١ / حا ٣) آيات الشاعري الأربع المائية في شعره المنثور في المورد (مج ٦ ع ١ رقم ٢٠٢) ، ولم يذكر جامع الشعر مصدراً آخر لها .

١٧ - (ص ٧٣ / حا ١) آيات ابن المتنز الدالية التي لم يجدنا المحقق الأستاذ الملوحي في احدى طبعات ديوان ابن المتنز ، هي في شعره (صنعة الصوالي - ط بقداد) من ٥٣٥ - ٣٥٦ . والرواية هناك :

١ - جاء الربيع بشمال وصبا يلقاهمما المقرور بالشدّ

بدلاً من : « جاء الزمان بشمالٍ ٠٠٠ بالشدّ » .

٢ - انَّ الكبِيرَ - فقاده سعراً - درياق لسع عقارب ابرد

بدلاً من :

انَّ الكبِيرَ تقلَّه سحراً ترياق لسع عقارب البرد

ورواية « من غاب » غامضة .

١٨ - (ص ٧٤ / حا ٣) الآيات الستة الكافية لكتشاجم في ديوانه (طبعة بيروت ١٣١٣) من ١٤٠ مع اثنين آخرين ، وخلاف في الترتيب . والرواية :

٢ - راحت به الأرض الفضاء كانها من كل ناحية بشفر تضحك

بدلاً من :

ضحكـتـ بـهـ الـأـرـضـ الفـضـاءـ كـانـهـ فـيـ كـلـ نـاحـيـةـ بـشـفـرـ تـضـحـكـ

٤ - شابت ذوابتها فيئن ضعكتها طرباً وعهداً بالمشيب ينسنك
بدلاً من : « شابت مقارقها فيئن شيبها ... طرباً » .

٥ - فاليلوم يؤذن باللاحقة انه سيطّل، فيه دم الدنان ويسفك
بدلاً من : « فاليلوم يوم نزامة ولذادة ... سيطّل » .

٦ - والعجو من ارج الهواء كانه ثوب يُعتبر تارة ويمسّك
بدلاً من :

والقيم من ارج الهواء كانه ثوب يُعصفّر مرة ويمسّك

وقد ذكر المحقق أن أبيات كشاجم في (شار القلوب) ٤٩ ، وإن أجدها في هذه الصفحة ،
ولا في آية صفحة أخرى من الكتاب المذكور في طبعته الجديدة (طبعة أبي الفضل إبراهيم) .
١٩ - (ص ٨٢ / ح ٦) بيتاً للشعالي في خاص العاشر ٢٣٢ . والرواية فيه :

١ - يا ليلة كالمست منظرها وكذاك في التشبيه مخبرها
بدلاً من :

يا ليلة كالمست مخبرها وكذاك في التشبيه منظرها

٢ - (ص ٨٥ / ح ٢) تملأ الماشية المفارقة هنا على النحو التالي : أبيات الشعالي
الأربعة في خاص الخاص ٢٣٦ . والرواية فيه :

٢ - مددت سرادق وشي على السورى اي مسد

بدلاً من : « مددت سرادق شجو ... » .

٣ - نجومها الزهر تحكى من حسنها نثر عقد

بدلاً من : « نجومها ... حسناً لآلئ عقد » .

٤ - « والأنجم العمر فيها » بدلاً من : « والأنيم الزهر فيها » .

٢١ - (ص ٨٨ / ح ١) يضاف إلى هذه الحاشية أن بيتي ابن المتن الرانين في لطائف
اللطف للشعالي ١٤٠ . والرواية فيه :

١ - أهلاً بقطير قد أتاك هلاله الآن فاغد إلى الشراب وبكثير

بدلاً من : « أهلاً بقطير قد أتاك هلاله ... فالآن » .

٢٢ - (ص ٨٨ / ح ٢) تملأ هذه الماشية المفارقة بما يلي : الأبيات الثلاثة الرابية ،
وأولها :

أهلاً وسهلاً بالهلا لبساً العين المصير

في ديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص ٩٧ .

- ٢٣ - (ص ٩٢/ ح ٢) أبيات أبي بكر الخالدي الأربعية ، وأولها :
فأعْتَنَا فِي حَبْسَنَا إِلَكَوَابَا سُقْطَ النَّدَى وَصَفَا الْهَوَاء وَطَابَا
 معزولة لأبي عثمان الخالدي في التوفيق للتل菲ق ص ٩٠
- ٢٤ - (ص ٩٣/ ح ٢) بيتاً مؤلف الكتاب (الشعالي) اللاميان في شعره المنشور في مجلة المورد (مجل ٦ ع ١٥٣ رقم ١٥٣) . ولم يذكر صانع شعر الشعالي مصدرأً آخر لهما .
- ٢٥ - (ص ٩٤/ ح ٢) أبيات ابن المتن الأربعية التي لم يجد لها المحقق في احدى طبعات ديوانه . هي في شعر ابن المتن (صنمة الصولي) ص ٦٢، مع اثنين آخرين، وخلاف في الترتيب . ورواية الثالث في شعر ابن المتن :

٣ - سَقِيَا لِي سُومْ صَبُوحَنَا إِذْ قَبَبَتْ عَنْهُ الشَّوَّامَتْ
 بدلأ من :

يَوْمَ يَطِيبُ بِهِ الصَّبُو حُّوقَدَ نَاتْ عَنْهُ الشَّوَّامَتْ

- ٢٦ - (ص ٩٧/ ح ١) أبيات الهلبي الأربعية الشينية منها اثنان فقط، مع ثالث آخر، في يتيمة المدح (٢٢٧: ٢) وليس (٢٢٧: ٢) . والرواية في اليتيمة :

١ - يَوْمَ كَانَ سَمَاءَ شَبَهَ الْعَصَانَ الْأَبْرَشِ

بدلأ من « ٠٠٠ مثل الحصان » .

- ٢ - « وَكَانَ زَهْرَةُ رَوْضَهُ ٠٠٠ » بدلأ من « وَكَانَ زَهْرَةُ أَرْضَهُ ٠٠٠ » .
 ومن الأبيات الأربعية الشينية اثنان في التوفيق للتل菲ق ، مع ثالث لها من ١٤٨ .
 والرواية فيه :

١ - « يَوْمَ كَانَ ٠٠٠ شَبَهَ الْحَصَانَ » بدلأ من : « مُثُلُ الْعَصَانَ » .

٢ - « وَكَانَ زَهْرَةُ رَوْضَهُ » بدلأ من « وَكَانَ زَهْرَةُ أَرْضَهُ » .

٢٧ - (ص ٩٩/ ح ١) أبيات الشعالي المستنة الثانية ، وأولها :

الْأَرْضُ طَاوُوسِيَّةُ وَالْجَوْبُ جَوْجَوْ فَاختَ

- في شعره في مجلة المورد المذكورة آنفًا رقم (٣٦) . ولم يذكر صانع شعر الشعالي مصدرأً آخر لها . ولكن المحقق ضبط هذا البيت على هذا النحو :

وَالْوَرَدُ عَرَّةُ نَابَتْ أَحْسَنُ بَلْرُ نَابَتْ

- (فاحسن) في العجز مفتوحة السين ، مضمومة النون . و (بسدر) في العجز مفتوحة الباء ،
 ومسكونة الدال ومنوننة الراء . وصواب العجزان يكون :

« أحسن بدر نايت » . أي يكسر السين وتسكين النون في (احسن) . وكسر الباء ، وضم الدال ، وتشديد آراء وتقويتها في (بدر) على صيغة التعجب .
وذلك وقع خطأ في ضبط بعض حملات بيت الاخير الذي جاء على هذه الصورة :
ضحت الشيب بعارضي ضحكت العلو الشامت
بفتح الباء في (المشيب) . وعدم تسكين الحاء في (ضحك) الثانية . والصواب رفع الياء في (المشيب) . وتسكين الحاء في (ضحك) الثانية، لتصبح مصدرًا لا فعلاً . وربما كانت هذه الاخطاء اخطاء مطبعية .

٢٨ - (ص ٤٠٤ / ح ١) قال المحقق هنا انه لم يعثر على أبيات الشعالي الثلاثة ،
وأولها :

عندی انسان ولکئے اکبر لی من الف انسان

وهي في خاص الخامس ٤٢ . والرواية فيه :

- ١ - « عندی ۰۰ اکتر لی » وهذه الرواية أجود من رواية « من غاب » المذكورة آنفاً .
- ٢ - لقاوه آشہی من البار العذب الى غسان عطشان . بدلاً من ۰۰۰ الى عطشان طمان .

٣ - « فاقتربنا عندی ۰۰ » بدلاً من « فاقتربنا عندی » .

٢٩ - (ص ٤٠٧ / ح ٣) الابيات الخمسة للشعالي التي أولها :

١ - سقیا للہر سروی واعیش بین السواری

في شعره في مجلة المورد المشار إليها سابقاً - رقم (٩٢) . وخرّيجها جامع الشعر الدكتور العلو من كتاب أبي نصر ٦٦ ، ونبية القمر (الطباطخ ١٨٥) ، ومعاهد التنصيص . ٩٢:٢

٣٠ - (ص ٤٠٧ / ح ٥) تسلًا العاشية الفارغة المتصلة ببيت الشعالي اثنائين هكذا :
البيتان في ثمار القلوب ٤٩١ (طبع أبي الفضل ابراهيم) . والرواية فيه :

١ - سقیا لایام الصبا اذ آنا في طلب اللہڈہ عفریت

بدلاً من : « ۰۰ اللذات عفریت » .

٢ - اصید کالبڑی ولکنی اسفل کالعصفور ماشیت
بدلاً من : « ۰۰ أحکی الصافیر اذا شیت » . والبيتان في شعر الشعالي في مجلة المورد - رقم (٢٢) .

٣١ - (ص ٤١١ / ح ٣) بيت بشائر هنا هو أيضاً في لطائف اللطف ١٣١ . وفي رسمه المرتضى وهم ، فقد كتب هكذا :

انا والله اشتھي سحر عینیک واحشی مصارع الشّاق

والبيت من البحر الخفيف ، لذا ينبغي أن يرسم كما هو في لطائف اللطف ، وزناً
رواية :

انا والله اشتھي سحر عینیک واحشی مصارع الشّاق

٣٢ - (ص ١١١ / ح ٤) يضاف الى هذه العاشية وجود بيتي المؤتمن بن امير
العربي في لطائف اللطف، ١٣٧ . والرواية فيه :

١ - اذا مرضتم اتبناكم نعوذكم وتدبرون فناتيكم ونتضر
بدلا من : « اذا مرضنا اتبناكم » . والبيت ذاته مع آخر منه في خاص الخاص
١١٥ ، وفي عيون الاخبار ٤٥:٣ بلا نسبة .

٣٣ - (ص ١١٢ / ح ٣) الأبيات الثلاثة التي تتبع للعاشرة الخالية هنا، وهي للشعابي،
توجد في خاص الخاص ٢٢٩ مع رابع لها، وفي الريتية (٣٩٥:٣) والرواية في المصرين:

١ - قلبي وجدا مشتعل على الهموم مشتعل
بدلا من :

١ - قلبي وجدا مشتعل على الهموم مشتعل
ورواية المصرين السابعين آجود وأصوب ، من رواية « من غاب » .
والبيت الثالث في خاص الخاص :

٢ - اذا زنت عيني بها فاللموع تقتسل

بدلا من : « اذا زنت » . وفي رواية خاص الخاص تصحيف . والصواب « زنت »
لا « زنت » كما في « من غاب » . والريتية .

٣٤ - (ص ١١٦ / ح ٦) تملا العاشية الفارغة هنا هكذا : بيتسا كشاجم في ديوانه
(طبعة بيروت) ص ٢٥ - ٢٦ من قصيدة تبلغ ٢٧ بيتا . والرواية فيه :

٢ - لا تركوا العين المريضة في جارحة صحيحة .

بدلا من : « لم تترك المقل المريضة » . وفي رواية الديوان خطأ واضح .

٣٥ - (ص ١١٨ / ح ٥) تملا العاشية الفارغة هنا بما يلي : الأبيات الستة في ديوان
كشاجم ٢٩ - ٣٠ مع اختلاف في الترتيب ، وزيادة بيت . والرواية بعد الترتيب الآفقي
لل أبيات .

٤ - وحدائق مرائض صلاح

بدلا من : « وحدائق مريضة » .

٥ - هن اللواتي افسلت صلاح

بدلا من : « هن اللواتي أيامت » .

٣٦ - (ص ١١٩ / ح ١) البيتان في ديوان كشاجم (ط بيروت) ص ٦١ مع اثنين

آخرين .

٣٧ - (من ١١٩ / حا ٢) يضاف هنا: وبينما أبي العشائر في لطائف اللطف ١٤٧
والرواية فيه :

للعبد مسالة اريد جوابها ان كنت تذكره فهذا وقه

بدلا من : « للعبد مسالة » لديك جوابها ٠٠٠ ، وخرج محقق لطائف اللطف الدكتور
عمر الأسعد البيتين من الأعجاز والإيجاز ٢١١ ، وخاصن الخاص ١٤٤ ٠

٣٨ - (من ١١٩ / حا ٦) بينا الشاعري هنا في شعره في مجلة المورد - رقم (١٤٠)
ومصادرها أيضاً أحسن ما سمعت ١٠٩ ٠

٣٩ - (من ١٢٠ / حا ٢) تملأ العاشية التارحة هنا بما يلي : البيتان للشاعري
أيضاً في التوفيق للتلتفيق ١٧٩ ، وخاصن الخاص ٢٣٠ . ورواية الثاني في التوفيق للتلتفيق:
فمسك ورد خديه السوافي وعبر مسك خديه الفبار

بدلا من « مسك صدغيه الفبار » . وهما في شعر الشاعري في مجلة المورد رقم (٧٠) وفي
أحسن ما سمعت ١٣٠ ٠

٤٠ - (من ١٢٢ / حا ١) يضاف هنا أن بيته كشاجم في ديوانه (ط بيروت) ص ١٢٥
من أربعة آخر والرواية فيه :

١ - من عذيري من عذاري رشا عرض القلب لأسباب التلف

بدلا من : « من عذاري قمر ٠٠٠ »

٢ - « علم الشعر الذي جاء له ٠٠٠ » بدلا من « ٠٠ الذي عارضه »

٤١ - (من ٢٨ / حا ١) يضاف إلى هذه الحاشية الآتي : البيتان في لطائف اللطف
١٤٧ - معزوهان لأبي الفتح نديم سيف الدولة . وقد خرج بهما الدكتور عمر الأسعد
متحقق الكتاب من خاصن الخاص ١٤٥ ، والأعجاز والإيجاز ٢١٢ ٠

٤٢ - (من ١٤٠ / حا ٥) بينما ابن المعتز اللذان لم يجد بهما المحقق في ديوانه
هما في شعره (صنعة الصولي) ص ٢٥٣ - ٢٥٤ مع أربعة آخر . ورواية الثاني في شعر
ابن المعتز :

٢ - نعم قرئ السمع على شربها نفح الزامير وعزف القيان

بدلا من ٠٠٠ صوت المزامير »

٤٣ - (من ١٤١ / حا ٤) بينما الشاعري الرائيان في خاصن الخاص ٢٢٢ . والرواية:

٢ - كان عين الشمس قد أفرغت في قالب صيغ من البذر

بدلا من : « ٠٠٠ صيغ من البذر » . والبيتان في شعر الشاعري في مجلة المورد السالفة
الذكر رقم (٨٣) ، وأشار صانع شعر الشاعري إلى أنها في المهج ٤٤ ٠

٤٤ - (من ١٤٣ / حا ١) يضاف الى هذه العاشية أن الأبيات الثلاثة في لطائف
اللطف ١٣٣

ومن الملاحظ أن في البيت الثالث خللاً عروضياً ، فقد رُسم على هذا النحو :
من شراب اللد من نظر المعشوق في وجه عاشق بابتسام
وهو من البحر الخفيف ، وصواب رسمه :
من شراب الدمن نظر المع شوق في وجه عاشق بابتسام

٤٥ - (١٤٦ - ١٤٦ / حا ٧) يضاف الى هذه العاشية أن أبيات ابن المعتز الثلاثة في
التوفيق للتلفيق ٣٨ ، والرواية في البيت الثاني :
فكان حمرة لونها في خده وكان طيب نسيمها من بشره

بدلاً من : « ٠٠ من نشره » . والرواية الأخيرة هي الأوجود والأعلى .

٤٦ - (من ١٤٧ / حا ٢) تعدل هذه العاشية لتصبح هكذا : الأبيات الثلاثة في شعر
ابن المعتز (صنعة المصولي) ص ٩٨ - ٩٩ . والرواية فيه :

١ - خليلي قد طاب الشراب المبرد وقد عدت بعد النسك والعود أحمد
بدلاً من : « الشراب المورّد ٠٠ »

٢ - « فهات عقاراً ٠٠ » بدلاً من : « فهاتا عقاراً ٠٠ » .

٣ - « ٠٠ وذلك معروف لها ليس ببعده » . بدلاً من : « ٠٠ وذلك من احسانها ليس
يبعد » . والبيان الأولان من الأبيات الثلاثة في التوفيق للتلفيق ١٦٠ .

٤٧ - (من ١٥٢ / حا ١) تُمْسَح هنارواية البيت الثاني من أبيات أبي تمام الثلاثة،
وهي :

عصابة جاوزت آدابهم اذني فهم وان فرقوا في الأرض جيراني
لتصبح على هذا النحو :

« عصابة جاوزت آدابهم أدبي فهم ٠٠ »

بالزاء في (جاوزت) لا الراء . وبالدال والباء في (أدبي) لا بالدال والنون في (اذني).
وهذه هي رواية مخطوطة الظاهرية . كما سبق أن أشرنا من قبل .

٤٨ - (من ١٥٥ / حا ١) يضاف هنا : البيتان في لطائف اللطف ١٤٢ . ورواية الثاني
٢ - لولا تمتنع مقلتي بقدومه لو هبتهما بشري ببابيه
بدلاً من : « مقلتي بجماله ٠٠ » .

وذكر الدكتور عمر الأسد محقق لطائف اللطف أن البيتين أيضاً في الاعجاز والإيجاز
٤٥٣ وسِمِّهَا ثالثاً . وفي الوافي بالوفيات ١ : ٤٥٥

٤٩ - (من ١٥٧ / العتوان) دقق في هذا المعنوان غلط يبدو أنه طباعي ؟ فقد كتب
هكذا : « فصل في المتاب والاستزادة » بالدال . والصواب « والاستزادة » بالراء ، لا بالدال ،
وهو كذلك في مخطوطة الكتاب بالظاهرية .

٥٠ - (من ١٥٧ / حا ٣) يضاف هنا : بيت ابن الرومي في التمثيل والمحاضرة ١٠٠ .

٥١ - (من ١٥٨ / حا ١) يضاف هنا : أبيات كشاجم الثلاثة في ديوانه مع ثلاثة آخر
من ١١٨ . ورواية الثاني منها :

٢ - اذا ما الوشاة سعوا نحوه أصاخ اليهم باذن سميفه

بدلاً من : « سعوا بي اليه » .

٥٢ - (من ١٥٨ / حا ٤) تلا الحاشية الفارغة هكذا : بيتاً الشعالي في شعره في مجلة
المورد السالفة الذكر ، ومصدرهما هناك اليتيمة ١ : ١٨ - ١٩ .

٥٣ - (من ١٦٦ / حا ١) يضاف هنا : بيتاً أبي الفرج الواوء الدمشقي في لطائف
اللطف ١٤٨ ، ورواية الثاني .

٢ - انت اذا جلت ضاحكا ابداً وذاك اذ جاد باكى العين

بدلاً من : « ضاحك ابداً ٠٠ دامع العين » .

٥٤ - (من ١٦٧ / حا ١) تلا الحاشية الخالية هنا بالآتي : بيتاً كشاجم في ديوانه
(ط بيروت) ٤٦ ضمن قصيدة تقع في عشرين بيتاً . ورواية الثاني فيه :

ان حمد الطبع حل منه قان ذاب انحلالاً اعاده جامد

بدلاً من : « لو حمد الطبع حل منه ولو ٠٠ ٠ ورواية « من غاب » هي الصواب . وفي
الديوان تصحيف .

٥٥ - (من ١٦٨ / حا ١) أشار المحقق إلى أن بيتاً الشعالي الكافيين في شمار القلوب ،
ولم يذكر الصفحة ! وهو حقاً في الشمار (طبعة أبي الفضل إبراهيم) ص ٦٧٨ - ٦٧٩ ، وقد
عزاهما الشعالي نفسه إلى بعض المغاربة . ورواية الأول فيه :

صديق لنا عالم بالنجوم يعدثنا بلسان الفلك

بدلاً من : « عن لسان الفلك » .

والبيتان في أحسن ما سمعت ١٦١ - ١٦٢ ، وفي خاص الخاص ٢٤٢ . والرواية فيه :

١ - « بلسان الملك » بدلاً من : « عن لسان » .

٢ - « ولكن نعوم بسر الفلك » بدلاً من : « ينم بسر الفلك » .

★ ★ ★

وبعد ، فهذه مجموعة من الاضافات والاستدراكات على كتاب (من غاب عنه المطرب) للشاعري تجمعت لدى من خلال وقفة غير طويلة عند هذا الاثر التراثي . واني لعلى يقين ان وقفة اطول تتبع لي ، او لغيري ، اضافات واستدراكات أخرى . ولكن غرضي ليس اعادة تحقيق الكتاب ، بل الاستجابة لنداء المحقق .

ومن المسلم به القول : ان العمل بالتراث عمل شاق وممتن . وهو مظنثة للأوهام واللالات والأغلاط . وكثيرون ، ولعلني اولهم ، واقعون في أولئك .. ! ومن هنا كان بعض كبار الباحثين في تراثنا يملتون عن رغبة قوية وصادقة في التصحح والتنتقيق والراجحة ، الأمر الذي ينم على احترام جزيل لروح العلم ، وادعاءن لطيف للحقيقة العلمية وحدها ، وليس لنبرها .. ويحضرني في هذا المقام ما كتبه الأستاذ المعنq محمود شاكر في مقدمة طبعته الثانية لكتاب (طبقات فنون الشعراء) ١٩٧٤ ، اذ قال مُتراجعاً عن طبعته الأولى للكتاب نفسه والتي كانت سنة ١٩٥٢ ، وبعيد أنحصل على صورة مخطوطته جديدة ، قال : « فلما جاءت مصورة المخطوطة وقابلتها بماطبعته في سنة ١٩٥٢ تبين لي أن نفسي غرّتني ضرورة كبيرة ، وأني وقتت عند نسختها في خطأ وقبيحة لغرارتي يومئذ وجهلي . نعم قد صحت بعض هذه الأخطاء التي وقعت في تنسخي القديم ، بما بذلته في مراجعة الكتاب على دواوين الشعر والأدب ، ولكن قادتني بعض هذه الأخطاء إلى دروب موحشة ، تعمّرت فيها تعمّر لا يُنتصر . ومن أجل هذا ، فانياً أحل لأحد من أهل العلم ، أن يتمتد بعد اليوم على هذه الطبعة الأولى من (طبقات فنون الشعراء) مخافة أن يقع بي في زلل لا أرهله له . وأضرع إلى كل من نقل عن هذه الطبعة شيئاً في كتاب ، سواء كان قد نسبه إلى أو لم ينسبه ، أن يراجعه على هذه الطبعة الجديدة من الطبيعتين ليتفق عن نفسه وعن عمله العيب الذي احتملت أنا وحدي وزره » . (مقدمة الطبعة الثانية لعام ١٩٧٤ - ص ٦٠).

وأختم بخشى هنا بما سبق أن قاله العميد الأصفهانى منذ مئات السنين وهو : « انى رأيت انه لا يكتب انسان كتاباً في يومه الا قال في غده: لو **فُيَّرَ** هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُسْعَسَنَ ، ولو **فُنِّدَ** هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .